

رواية فضيحة الحب الواحدة بعد ألف

د.مجدي صالح

- جئتك وكلي محبة لك، عزيزي لا أريد أن يعلم أحد بما سيدور بيننا عديني بذلك

-أعدك

-أتحبين باسل

-نعم

-كسحابة صيف؟

-بل كأرض معطاءة

-أتعرفين النهاية؟

-نعم

-مستعدة لتحميل العواقب المؤدية للهلاك؟

-الموت مثلا؟ «تساءلت سعاد بعدم اكتراث»

-مثلا

- الموت ميلاد للقلب الصادق

-وماذا عنه؟

-لا يختلف عني

-وإن خان وعده يوما؟

-لا يفعلها، عهدته صادقا

-«قالتها سعاد جازمة»

-لنفترض جدلا... أنه شاب يتقن تقمص دور المحب المخلص

فكرت سعاد مليا ثم قالت:

-فليعاقبه الله....

تصميم الغلاف: راكان الشخانبه

ISBN 978-91-89273-59-7







فضيحة الحب الواحدة بعد الألف

د. مجدي صالح

فضيحة الحب الواحدة بعد الألف

الكتاب: فضيحة الحب الواحدة بعد الألف
المؤلف: د. مجدي صالح
الطبعة الثالثة 2020
ISBN: 978-91-89273-59-7
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 15-11-03-11-2020
النـاشر: رقمنـة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، ڤاسترا جوتالند
هاتف: 0046790185518
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook@hotmail.com
تصميم الغلاف: راكان الشخانبة



الإهداء

لك عزيزي القارئ

مدخل

يذهب الطلاب الصغار إلى المدرسة المتواضعة ويقضون أربع ساعات يومياً في الفصول الدراسية. وبعد انتهائهم من الدراسة، يعودون إلى منازلهم لتناول وجبة الغداء، ومن ثم ينتشرون مجموعات صغيرة في بقاع القرية للهو واللعب. باسل طفل كباقي الأطفال، يلعب ويزهو ويمرح مع صديقيه تامر وسعاد. الأصدقاء الثلاثة بأعمارهم المتقاربة يخطو كل واحد منهم نحو استكمال السنة السابعة بفوارق زمنية لا تتعدى شهراً أو شهرين ما بين متقدم ومتأخر. ينتمي تامر لأسرة فقيرة، مثله مثل باسل، على عكس سعاد. ولكن الطفولة تجسد المعنى الحقيقي للبراءة والمساواة. تامر طفل يتيم توفي والده وهو في الشهر الأول من عمره، تكبره أخته لبنى بخمس سنوات، تعتمد أمهما السيدة إحسان على صناعة الجبن وبيعه في سوق القرية. ماساعدها هي وابنيها على العيش حياة لا بأس بها لأنها من أفضل من يصنع الجبن، وقد اكتسبت كغيرها شهرة ملحوظة في القرية المجاورة. ولعل الترمل وإعالة طفلين كتب عليهما اليتم، كان وراء إتقانها هذه الصنعة. أما باسل، فوالده فلاح بسيط يكافح من أجل تعليم ابنه ويحلم بأن يصبح في المستقبل محامياً يدافع عن المظلومين وينتصف لهم.

بعد وجبة الغداء وأخذ استراحة الظهيرة، تنطلق سعاد وهي محملة باللحم الملفوف بقطع الخبز لملاقاة تامر الذي بدوره يحضر الجبن. ويمضي كلاهما إلى ضفة النهر بانتظار باسل الذي يحضر معه البيض المسلوق. وعادة ما يتوجب عليهما انتظار باسل على ذات الموعد بسبب بعُد منزله الواقع على

الجهة الشرقية للقرية. أما تامر وسعاد، فمنزلاهما متجاوران وسط القرية.
يلعب الأصدقاء لعبة التخفي عند النهر، وأحيانا يلعبون لعبة رمي الأحجار إلى النهر. وما أن يشعرون بالجوع حتى يتناولون وجبتهم على إحدى الصخور وهم يتبادلون النظرات المرحة والضحكات الطفولية غير المبررة والتي لا يجد لها الكبار أدنى سبب. ينتهون من تناول وجبتهم ومن ثم يعودون للعب وجمع التراب والأحجار الصغيرة. يصنعون منها بيوتا صغيرة، وكلٌ منهمْ يجادل أن منزله أجمل ما بني لهذا اليوم. وعند المغيب، يعودون إلى منازلهم وقد اتسخت ملابسهم. هكذا يقضي الأصدقاء الثلاثة وقتهم الغامر بالبراءة والتصورات البسيطة بسذاجتها الرائعة لكل ما يحيط بهم من ظواهر طبيعية أو اجتماعية. يقف تامر متسائلا من أين تحضر سعاد يوميا كل هذا اللحم، سأل أمه ذات يوم:

- أمي...
- نعم يا بني.
- لماذا لا نأكل اللحم كل يوم؟! ولماذا سعاد تحضر اللحم كل يوم؟!
- نحن يا بني! دخلنا محدود ولا يمكننا أكل اللحم طوال الأسبوع. لذلك نكتفي بأكله يوما واحدا كل أسبوع. ثم ألا تكف عن طرح مثل هذه الأسئلة وتتركني أقوم بعملي وغسل ملابسك المتسخة باستمرار.
- لا..لا أمي أرجوك! قولي لي فقط. لماذا لا يمكننا أكل اللحم طوال الأسبوع مثل سعاد؟!

مسحت على شعره وقالت:

- والد سعاد رجل غني ولديه المال. ونحن لا نملك المال الكافي لنعيش عيشة الأغنياء.
- وأنت يا أمي! لديك المال أيضا؟
- نعم لدي بعض المال ولكن ليس كافياً.

- ولماذا هم لديهم كل المال ونحن لسنا مثلهم؟!
- عندما تكبر ستعرف لماذا. مازلت صغيرا على مثل هذه التساؤلات.
- أمي! لقد قلت لسعاد أني من سيحضر اللحم في يوم غد، فهلا تشتري لنا اللحم غدا. (قالها بصوت طفولي عذب مطوقا عنقها بيديه الصغيرتين وطابعاً قبلة طويلة على جبينها) ضحكت الأم وقبلت ابنها وقالت:
- لا عليك! فأنت كل ما لدي في هذه الدنيا. سأعد لكم يوم غد دجاجة كاملة، وسأصنع لكم ثلاثة أقراص من الجبن لم أصنعها لأحد من قبل.
- حتما ستفرح سعاد وكذلك باسل.

في اليوم التالي، انطلق تامر ساعة العصر محملا بما أعدته أمه من طعام سلفاً وتوجه للقاء سعاد أمام منزلها وذهبا إلى ضفة النهر بانتظار باسل. بعد مجيئه، شرعوا باللعب حتى شعروا بالجوع وبدأوا يأكلون وهم يضحكون ولكن هاجسا كان يراود تامراً حتى أنه قطع ضحكةُ سألاً:

- سعاد، من أين يحضر أبوك المال؟

أجابت وهي تأكل:

- من المحفظة.
- ومن أين له بالمحفظة؟

نظرت في وجه باسل وكأنها تبحث عن إجابة ثم استدارت نحو تامر وردت:

- لا أدري.
- وأنت يا تامر من أين تحضر والدتك النقود؟ (سأله باسل)
- سألتها بالأمس، ولكنها قالت أني مازلت صغيرا وعندما أكبر سأعرف. وماذا عنك ياباسل من أين يحضر والدك النقود؟
- من جيبه.

قالت سعاد مستغربة:

- صحيح... من أين يحضر الناس النقود؟!
رد باسل مفسرا:
- ربما المال شجرة تثمر مثلها مثل أشجار الزيتون أو اللوز.
قال تامر:
- إذا كان الأمر كذلك، أنا أملك قطعة عملة معدنية. لماذا لا نزرعها ونسقيها حتى تنبت ونجني المال مثل الكبار؟!
قال باسل:
- فكرة جيدة.

ترك تامر الطعام الذي كان بيده، دس يده في جيبه، أخرج قطعة العملة المعدنية وركض نحو شجرة اللوز. تبعه باسل وسعاد وساعداه على الحفر وطمر قطعة في التراب ومن ثم إحضار الماء لسقيها. وكحلم بريء في دنيا ماكرة، دأب الأطفال الثلاثة يسقون قطعة العملة المعدنية المطمورة في التراب كل يوم أملاً في نموها.

***

ذات يوم، أصيب الفلاح نبيل والد باسل بتسارع نبضات القلب، شعر بقلبه ينبض بقوة، ولد له هذا الأمر حالة من التعب وضيق في النفس، ورغم ذلك أراد الخروج من المنزل للعمل. وقفت في وجهه زوجته السيدة هديل بملامحها الحسناء الطيبة والجادة في آن واحد، تترجاه أن لا يذهب للعمل في هذا اليوم حتى تتحسن صحته، رفض الانصياع لرجائها وقال بصوت مبحوح:
- يجب علي الذهاب للعمل.
أمسكت بيده وراحت تمسح عليها وهي تقول:
- لن تكف عن هذا العناد أبدا، فالحياة لن تتوقف إذا اقتطعت منها يوما أو يومين حتى تستعيد عافيتك.
- لا أريد أن أضيع ساعة واحدة لا أعمل فيها. تعرفين أني أريد أن أجمع المال لكي أرسل باسلاً إلى المدينة ليكمل

تعليمه ويصبح محاميا يقف في وجه الظلم وينتصف للمظلومين، وأن لا يعاني ما عانيته أنا.

- وهل تفكر من الآن بدراسته؟! إن الوقت مازال مبكرا على مثل هذه الحسابات المستقبلية.
- لا أريد أن يحرم حق التعليم مثلما حرمت منه صغيرا. آه...(تنهد بحسرة..) لو كان لي فرصة للتعلم، لما أصبحت فلاحا أبدا. كم كانت أحلامي كبيرة. لكن الحمد لله على كل حال.

أرادت تبديد الحزن الذي بدأ يخيم على تقاسيم وجهه، فقالت بلهجة مداعبة:

- لكن، لا تنس أنه وإن كنت قد حرمت التعليم، فلقد ظفرت بالزواج من أجمل جميلات هذه الناحية.

هكذا هي، تجيد دائما تبديد شجونه وتحيل حياته إلى رضا وطمأنينة لا محدودة. جاوبها مبتسما هذه المرة، ولقد كانت جديرة بالضغط عليه بحسنها حتى أنها لو قدر لها أن تختار ما بينه وبين كنوز الأرض جميعا لاختارته هو:

- أحبكِ يا حلوتي الغالية، وأندهش كيف لقلبي أن يحمل كل هذا الحب الذي يضاهي الجبال بثقلها والسماء باتساعها.
- إذا كنت تحبني حقا، لا تخرج وأنت في هذا الإعياء والتعب، سأعد لك شراب الزعرور البري وزهور الزيزفون. هو مفيد في مثل حالتك.

قال مازحا:

- وإذا قلت لك أني أرفض مطلبك.
- حينها أعاقبك بالبكاء.
- وهل يخيل لك أني أرضى بزعلك؟!

ابتسمت وقالت:

- أعرف أني لا أهون عليك.

قطع حديثهما باسل:

- أمي!!

ردت عليه:

- هل شربت الحليب يا بني؟
- نعم.
- هل أخذت معك الكتب والدفاتر؟
- نعم.

دس الأب يده في جيبه وأخرج قطعة نقود ومدها لابنه:

- هذه لك اشتري بها حلوى.
- أبي سأشتري ثلاث قطع حلوى.
- ألا تكفيك قطعة واحدة؟!
- ليست لي وحدي.
- إذا لمن؟!!!
- لي، ولسعاد، وتامر.
- ضحك الأبوين ولم يبخل الأب باحتضان ابنه وتقبيله قائلا:
- الولد صنو أبيه.
- نعم. وقديما قالوا: "هذا الشبل من ذاك الأسد". وها هو يشبهك خُلُقا وخلْقا، لم يأخذ مني شيئاً يذكر.
- وماذا كنت تريدين أن يأخذ منك مثلا؟! "قالها مازحا".
- جمالي الذي كنت تشيد به قبل لحظات.

قهقه ضاحكا ووضع ابنه ودس يده في جيبه مجددا وأخرج قطعتين من النقود وسلمهما لباسل وقال له:

- اشتري ما تريد لك ولصديقيك.

***

توالت عليهم الأيام والقرية تشهد، ولا تزال، تلك الصراعات التي لا يخلو منها أي مجتمع بشري كان. وهو هنا يختزل في صراع الإرادات، يتفرع من أصل الصراع الأزلي بين الخير والشر. يقف على طرفي الصراع السيد نذير الرجل الذي تسكنه أطماعه وأحقاده دائما ويضم إلى ذلك أراضي زراعية شاسعة تجعلهُ في سعة ورغد من العيش يقف إلى جانبه دائما عمدة القرية

المأسور ببريق الحال وينجذب إليه كما ينجذب كلب لاهث عطشا لمرْأى الماء. وفي الجانب الآخر نجد نبيل الرجل الشريف الذي يقف صلباً وعائقاً أمام اللذين يمارسون الإقطاع بوجهه الجديد على الفلاحين المقهورين.

أما الأطفال الثلاثة، فبعيدون كل البعد عما يدور من عداوات بين الآباء. سعاد هي ابنة الإقطاعي السيد نذير، وباسل ابن مناهض الإقطاع نبيل. يقضيان مع تامر أوقات نورانية بعيدا عن قضايا الكبار سوداء الحال، وكما هو معتاد يغادرون ضفة النهر في آخر النهار حتى يسقوا تربة قطعة العملة المعدنية. حتى أن سعاد تساءلت يائسة:

- لماذا لم تنبت العملة؟!

أجاب باسل:

- لو طمرناها بشكل أعمق.

فند تامر:

- أظن أن المكان ليس مناسباً لتنمو شجرة العملة.

قالت سعاد:

- لنصبر عليها.

أقترح تامر:

- ما رأيكما أن نحضر أغصان شجرة الزيتون ونزرعها هنا إلى جانب قطعة العملة النقدية فتثمر بدلا عن الزيتون قطع عملة كثيرة.

قال باسل:

- فكرة جيدة. سأنزل إلى الوادي وأحضر أغصان أشجار الزيتون.

قالت سعاد:

- توجد أشجار الزيتون في حديقتنا، سأذهب وأحضر منها.

قال تامر:

- لنذهب جميعا معك ونساعدك على حمل الأغصان.

ذهب الأصدقاء إلى حديقة منزل سعاد وحاولوا جاهدين سلخ أغصان فلم يستطيعوا بسبب ارتفاع الأشجار. دخلت سعاد إلى والدتها وطلبت منها المساعدة فسألتها الأم:

- ماذا تصنعين بالأغصان؟
- نريدها كي نزرعها على ضفة النهر.
- ولماذا تزرعونها؟
- أتني بالأغصان يا أمي وسأخبرك لاحقا لماذا.

ضحكت الأم وخرجت إلى حديقة المنزل وقبلت باسل وتامر ومن ثم تناولت المنجل وسلخت الأغصان واعطت لكل واحد منهم غصناً وقالت:

- خذوا حذركم من النهر، إياكم أن تقتربوا من الماء.

قالت سعاد:

- نحن نلعب بعيدا عن ماء النهر يا أمي.

استدارت نحو باسل ومن ثم تامر وسألتهما:

- هل هذا الكلام صحيح يا باسل أنت وتامر؟

أجاب الاثنان بصوت واحد:

- نعم... نعم.. نحن نلعب بعيدا عن ضفة النهر.

ابتسمت وظلت مبتسمة وهي تراقب فرحة ابنتها مع صديقيها وهم يخرجون من الحديقة وبيدهم الأغصان التي غرسوها، وسقوها بالماء ثم عادوا إلى منازلهم.

***

دارت عجلة السنين والأطفال ينمون شيئاً فشيئاً. وبعد انتهائهم من آداء اختبار المرحلة السادسة والأخيرة في مدرسة القرية، خرجت سعاد بصحبة باسل وتامر في طريقهم إلى النهر. وفي ذلك اليوم، كان السيد نذير قد اتخذ قرار إرسال ابنته إلى المدينة لإكمال تعليمها الإعدادي والثانوي. أتى المنزل لإخبار زوجته بقراره بعد سماعه من مدير المدرسة أن سعاد نجحت في الاختبارات. طلب من زوجته أن تنادي سعاد ليخبرها بالنبأين

نجاحها وقرار إرسالها إلى المدينة. أخبرته أنها خرجت برفقة باسل وتامر إلى النهر، تَنَقَّطَ وخرج على عجلة متوجها نحو النهر، وعندما وصل فوجئ الأصدقاء بقدومه على غير عادة. نادى سعاد بصوت مرتفع وما إن تقدمت نحوه شدها من يدها بقوة وقال موجها حديثه لباسل وتامر بوجه عابس:

- لا أريد أن أركما تلعبان مع ابنتي بعد الآن... هل فهمتما؟

سأله تامر:

- لماذا يا عماه؟! ولماذا أنت غاضب هكذا؟!
- وجودكما مع ابنتي يغضبني.
- ولماذا يغضبك يا عمي؟ "هكذا سأله باسل"

هنا ازداد هيجان السيد نذير، حيث اقترب بخطوات من باسل وأمسك بأذنه وشدها نحوه حتى صرخ متألما وقال له:

- لا أريد أن أراك مع ابنتي يا ابن الـــ.....

ثم ترك باسلاً واصطحب ابنته إلى منزله. شعر باسل بالقهر والغضب، صب غضبه بقذف الأحجار إلى النهر وتامر يراقبه عن قرب ولا يدري ماذا يقول له. عاد الاثنان يتساءلان عن سبب اشتاطة نذير غضباً، ولماذا عاملهما بقساوة حتى أن باسلاً تساءل عن سبب شد أذنه لوحده، أجابه صديقه بأنه لا يستطيع تفسير ما حدث وعاد كلٌ منهما إلى منزله كاظمين غيضهما في قلبيهما حتى أن السيدة هديل حاولت أن تعرف سبب تغير وجه باسل ولكن دون جدوى. كان القهر أمام جبروت ظالم أكبر من أن يفصح بما حدث مكتفيا بالانعزال والإجابة عن أسئلة أبويه بإشارة من رأسه رافضا الكلام معهما.

***

عند الصباح، هرع تامر إلى منزل باسل، رحبت به هديل وأدخلته إلى حجرة الاستقبال المتواضعة وقالت له:

- باسل مازال نائما على غير عادته، هل تريدني أن أوقظه أو تدخل أنت وتوقظه؟

- سأدخل أنا عليه.

دخل ووجد باسلاً مندسا تحت الأغطية غاطا في نوم عميق، سحب الغطاء من على رأسه وحرك كتفه وهو يناديه باسمه حتى ابتعثه وهو يقول:

- استيقظ يا باسل ... هيا بسرعة....

فتح نصف عينيه ورد على تامر بخمول:

- ماذا؟! ماذا هناك؟!
- سعاد ستسافر في الغد إلى المدينة.
- وهل هذه أول مرة تسافر فيها إلى المدينة؟!
- هذه المرة ليست ككل مرة.

ثار باسل من فراشه مستغربا:

- ماذا تقصد؟!
- قالت لي أمي إنها سمعت بأن سعاد ستنتقل إلى المدينة لإكمال دراستها. وستعيش هناك في كنف خالتها.

بان عليه أثر الصدمة:

- ماذا قلت؟ سعاد تترك القرية وترحل إلى المدينة؟!
- نعم، ستغادر إلى المدينة لإكمال دراستها.
- أأنت متأكد من هذا؟!
- قلت لك أن الخالة كريمة قد أخبرت أمي بذلك.

بدا باسل واجماً، ونظراته مستمر على وجه تامر ثم تمتم قائلا كمن يحدث نفسه:

- يا الله... كيف سنعيش بدون سعاد؟!
- لو تعرف كم أنا حزين لسماعي هذا الخبر.
- متى سترحل؟
- في الغد.

توجها إلى منزل سعاد وطرقا الباب، رحبت بهما أم سعاد ونادت ابنتها، خرجت على صديقيها بوجه حزين يدل على عدم الرضى عن قرار والدها، جلس الثلاثة في حجرة الاستقبال بينما ذهبت الأم لتجهيز طعام لابنتها وضيفيها.

ظل الأصدقاء يناقشون قرار الرحيل. عبرت سعاد عن حزنها وقالت لهما أنها حاولت إقناع والدها بأنها لا تريد الانتقال إلى المدينة، لكنه صرخ في وجهها. قال لها باسل أن الدراسة في المدينة لا تبدأ إلا بعد ثلاثة أشهر. أجابت بأن والدها أصر على أن تلتحق بمعهد صيفي خاص بتدريس الرياضيات والكيمياء بغرض تأهيل الطلاب قبل الدراسة. كان ثلاثتهم على مستوى واحد من الحزن والرفض لمغادرة سعاد القرية وأن هذا على كل حال لن يؤثر على قرار الرحيل الذي اتخذه السيد نذير بكل حدة وإصرار. تناول الجميع وجبة الإفطار، وكانت هذه آخر وجبة يتناولونها على مائدة واحدة.

بعد أن انتهوا من الطعام، همس تامر في أذن صديقه قائلا بصوت منخفض كي لا تسمع سعاد:

- لنغادر قبل أن يأتي نذير ويغضب علينا.

اهتز باسل ثم وقف وتبعه تامر وقال:

- استودعك الله يا سعاد.

قال تامر:

- كان الله في عونك يا سعاد.

بدموع حزينة وقفت، شعرت بمرارة وهي تودعهما:

- وداعا، سنلتقي دائما عند نهاية العام الدراسي.

قال باسل:

- سنحضر غدا لوداعك أيضا.

قالت:

- وأنا أنتظركما.

سحب تامر باسلاً من يده وأخرجه من الباب ووجهه مصوب نحو سعاد. وما إن وصلا إلى باب الحديقة وهمّا بالخروج، وجدا السيد نذير واقفا عن بعد يتحدث مع العمدة. عادا إلى البستان واختبآ بين الأشجار حتى دخل المنزل ومن ثم ركضا مسرعين نحو النهر. ظلا طوال النهار يتبادلان النظرات حتى وقت المغيب وعاد كلٌ منهما إلى منزله ليقاسما فراشيهما حزنهما. وما

إن انبلج الصبح حتى وقف الإثنان على مدخل القرية بانتظار مرور سعاد. انتظراها حتى أديم الضحى، فوجدا السيد نذير يمشي ومعه ابنته وقفا وابتعدا قليلا عن الطريق حتى لا يراهما، كانت سعاد تتلفت يمينا ويسارا علها تلمحهما. اقتربت برفقة والدها من نهاية الطريق المؤدي إلى القرية فلمحتهما ولوحت لهما بيدها وكذلك فعلا.

***

مع الأيام، بدأ تامر يساعد أمه على بيع الجبن في سوق القرية. أما باسل فقد كان يوصل الطعام إلى والده في الحقل الذي يعمل فيه، أراد مساعدته، ولكنه رفض أن يعمل ابنه فلاحاً فقال له ذات يوم:

- يا بني، أريدك أن تصبح محاميا لا فلاحا. أصبر عليّ بضعة أشهر حتى أحاول جمع ما أستطيع من المال لكي أرسلك إلى المدينة.
- ابتي! لا تجهد نفسك، أريد حمل العناء عنك.
- مازلت صغيرا يا بني! أنت طفل موهوب في الرسم، طور موهبتك لعل الله يجعل منك إنسانا عظيما أفتخر به.

تدخلت الأم قائلة لزوجها:

- أنا لا أوافقك يا عزيزي على هذا الأمر. فمن الأفضل تعليمه حرفة تعينه على نوائب الدهر بدلا من مكوثه في دار تراوده أحلام السفر إلى المدينة لإكمال دراسته، ألا تعلم أي خيبة أمل وإحباط سيصيبه إذا لم تتوفق في تحقيق هذا الحلم.
- لا أنكر بأنك محقة إلى حد كبير. ومع ذلك إذا لم أستطع إرساله إلى المدينة فيكفي أن أراه رساما بارعا أو أستاذا للرسم، أراه أي شيء آخر غير أن يكون فلاحا مثلي (يزداد حماسه وهو يقول...)، ثم ألا ترين أي أنامل سحرية لديه، تلك الرسومات الرائعة التي يبدعها وتكاد من روعتها أن تنبض واقعية.

- لكن الرسم لا يسد رمق جائع يا عزيزي.
- أنت مخطئة هذه المرة. (توجه نحو ابنه وقال بحماس...) طور موهبتك بالرسم وأنا سأشتري لك كل ما يلزم.

***

كان باسل قد تجاوز الثانية عشرة وبضعة أشهر، وذات يوم رجع والده إلى المنزل وهو منهمك القوى بعد مشاجرة مع العمدة وابن عمه نذير، أراد من خلالها كسر سطوته وصلابته. دافع أحدهم، وهو السيد نذير، حقد قديم يقارب عمره الخمسة عشر عاما بينما دافع الأخر نفعيته بانحيازه إلى الطرف الأقوى ماديا دائما، ولكن هذا ما كان يفاجئه، وإنما ما فاجأه إلى حدة الصدمة، هو ذلك الالتفاف من قبل الفلاحين الذين قضى ما مضى من عمره في مساندتهم والانتصار لحقوقهم ضد الجشع والإقطاع. هاله ما رأى منهم ما بين مؤيد لنذير والعمدة ويرى بأنهم على حق وما بين لائم له وبأنه قد أخطأ في حق ابن عمه نذير والعمدة. غير أنه ظل صلبا كعهده، يرمقهم بنظرات مشمئزة قائلا بثبات وهدوء:

- أف، كلكم يا أشباه رجال، ولا الرجال، ثم بصق على الأرض وانصرف مغادرا المكان.

كانت أنباء الشجار تواردت إلى مسامع السيدة هديل عن طريق طفل أتى راكضا يخبرها بذلك.

- هل كان باسل هناك يا بني؟ هل رأيته؟ "تساءلت".
- لا. لم أره!

هذا ما قاله وركض بعدها مغادرا. لا تعلم لماذا مخاوفها لا تحوم إلا حول باسل، ربما لأنها على ثقة تامة بأن لا نذير وثلاثة منهم يمكنهم إيذاء شعرة في جسد نبيل، وبأنه في مقدوره صرع ذلك اللعين كما يقصم المنجل عود الذرة اليابسة دون عناء يذكر. وبينما كانت تعتزم المغادرة، ظهر نبيل قادما إلى المنزل، استقبلته على عجل وهي تتحسس بيدها على صدره قائلة:

- ما الذي حدث؟ كنت متأكدة بأنهم أضعف وأجبن من أن ينالوا منك.
- أبهذه السرعة وصلتك أنباء ذلك الشجار.
- نعم. المهم قل لي ما أسباب ذلك الشجار؟

لم يجيبها ومضى نحو عتبة الدار التي اتخذها مجلسا مرسلا نظرات بعيدة نحو الأفق... جلست هي الأخرى إلى جانبه، قائلة وهي تمسح جبينه ورأسه وتكاد تجهش بالبكاء ويعتصرها الإشفاق وهي تراه منكسرا على هذا النحو:

- ماذا؟! هل غدروا بك ونالوا منك؟
- هم أعجز من أن ينالوا مني حتى غدرا.
- إذا قل لي ما بك؟ "قالتها وقد بدأت تجهش في البكاء بالفعل (مردفة بصوت متثاقل)" لم أرك منكسرا هكذا أبدا. هؤلاء الأوغاد قد نالوا منك بطريقة ما.
- نعم، هذا ما حدث يا هديل، أخيرا نال هؤلاء الجبناء مني، واثخنوا روحي بالجراح. قالها وهو يمضي مردفا:
- أريد أخذ قسطا من الراحة.
- لك ذلك يا عزيزي.

همت أن تسأله عن باسل. هل رآه ولكنها انصرفت عن هذا الأمر حتى لا تثقل عليه. أطلت من النافذة، رأت باسلاً وهو يركض بحدة وعنف باتجاه المنزل. وبخوف الأمهات المعهود. خرجت تستقبله. قبل أن يلتقط أنفاسه بادرها بالسؤال:

- أين أبي؟
- في الداخل... نائم.

هم بالدخول فاستوقفته:

- اهدأ! أبوك يريد أن ينام.
- أرجوك دعيني أدخل لأراه فقط ولن أثير أي ضجة.
- لقد علمت إذا بالشجار.
- نعم! وأريد أن أرى أبي وأطمئن عليه.
- اطمئن! هو بخير، ولا يوجد في جسده أدنى خدش.

قالتها، وهي تأخذ بيده وتسحبه إلى الداخل. ثم قالت وهي تمسح رأسه مداعبة:

- لم أكن أعلم أنك تحب أباك إلى هذه الدرجة، ربما أكثر مني؟
- أحبكما أنتما الإثنين. ولكن قولي لي، لماذا أبي نائم وهو لا ينام في مثل هذا الوقت؟!
- أنا أعرفك عنيدا، أدخل لتتأكد بنفسك بأنه بخير.

فتح باب الغرفة بهدوء، كانت مظلمة بعض الشيء، هو بحاجة للاقتراب أكثر من والده الممدد على الفراش، شعر به الأب، وبنبرات الحنان دعاه للاقتراب منه، اقترب وجلس جانبا على طرف السرير:

- أبي أنت بخير؟
- نعم يا بني! أنا بخير ماذا كنت تتوقع؟
- لا شيء أبي، ولكني كنت خائفا أن يكون أولئك الأشرار قد أصابوك بشرهم.

هنا أخذ الأب يد ابنه كمن يصافحه ووضعها على صدره وقال:

- أريد منك أن تحفظ ما سأقوله جيدا، وأن تعدني أن تتذكره دائما.
- أعدك أبي...
- الخير ينتصر دائما في النهاية. وإن تعاضدت الشرور عليك، فليكن الخير طريقك مهما حدث!!! يابني، كن كالنحلة فإنها تأكل طيباً، وتضع طيباً، وإذا وقفت على عودٍ لا تكسره، وعلى زهرة لا تخدشها، وإذا عملت تعمل بأخلاص وضمير... قالها ثم مسح على رأس ابنه وجذبه إليه وطبع قبلة على جبهته، قبل باسل رأس أبيه وظهر كفه، وانصرف وادعا بعد أن تأكد بأن الشر لم يطل والده.

أضيئت المصابيح حين زحفت عتمة الغسق وهبط الظلام... جهزت الأم طعام العشاء وقدمته على المائدة، وقالت لابنها:

- اترك الرسم الآن واغسل يديك لتتناول العشاء وأنا سأذهب لإيقاظ والدك.

دخلت الأم الغرفة، كان صمت موحش يلف المكان، أشعلت المصباح الغازي واقتربت منادية:

- نبيل!! نبيل!! هيا قم لتناول العشاء يا عزيزي.

وضعت يدها على صدره تحركه كي يستيقظ، ازدادت حركتها عنفا وهي تهزه على غير لاوعي منها، وقلبها منقبض، بدأت تتحسس جبهته فبدت لها باردة كزجاج نافذة في صباح يوم شتوي، بدأ صوتها يعلو وأوصالها ترتجف:

- نبيل... نبيل... استيقظ، نبيل... نبيل....

وهنا شقت المكان بصرخة مدوية، ظل صداها يجلجل في أذن باسل حتى هذه اللحظة التي تحمل فيها عبء الأسرة الصغيرة بعد وفاة والده. ترك موت والده أثراً من الحزن في قلبه، أجهض حلم والده الذي لطالما حلم أن يرى ابنه محام أو أستاذ، لأن العوز أجبره على إعالة أمه والعمل في مرحلة مبكرة كفلاح بسيط يبحث عن توفير أبسط الأشياء له وأمه.

***

1

في قرية ريفية حبلى بكثير من المفاجآت، وفي فصل الربيع الذي ألبست السماء فيه الأرض المعطف الأخضر، بدأت الزهور تشرق بألوانها الزاهية على الأغصان العارية. تستيقظ الشمس من نومها كل صباح، مرسلة أشعتها على الجبال والوديان فتكسوها حلة رائعة من الحسن والجمال. قرية جميلة تنام على نغمات مختلفة بين أحضان الجبل، والوادي والنهر. يسمع فيها لحن طنين النحل، وهو مكب على أزهاره، وتغريد الطيور،

وطرب خرير الماء من شلالات الجبل، وصهيل الخيول، وخوار الأبقار في المراعي، وجلاجل الدواب وخشخشة أوراق الأشجار الناتجة عن مداعبة العصافير، والأناشيد الشعبية التي يرددها الفلاحون في الحقول بقصد التسْلية، وقتل الوقت، ونسيان التعب. قرية "التوليب" تطل على النهر الغزير، جداولها تمتد إلى جميع القرى المجاورة والبعيدة. خيراتها لا تنقطع طوال العام بفضل النهر الذي تسقى منه الحقول والبساتين. ورغم كثرة خيراتها إلا أن الفقراء والبؤساء يزدادون يوماً بعد يوم بسبب الإقطاع وما ينجر عنه من مظاهر اجتماعية سيئة كالقهر الطبقي، وتحكم أسياد القرية وأغنيائها باقتصادها وعيشهم فيها فسادا لأنهم ملاك الأراضي. صحيح قامت حملات ثورية لإنهاء الإقطاع في العقود الماضية، إلا أنه عاد بقوة الشيطان، وبقناع جديد لنفس الصورة القديمة، رأس مال يدور، بيع، وشراء، تملك، وطبقة مسحوقة يغلبها الجهل كونها قابلة للانبطاح اللاإرادي بسلاسة تامة. لذا، يصف ويُعرف الناس الغول المالي الجديد بالإقطاع بسبب التشابه الشديد ، فمهما أختلفت التسميات فالنتيجة واحدة بأن المال والأرض للأثرياء المحتالين وأصحاب النفوذ حصرا لأن لديهم قدرات رهيبة على إعادة التملك.. هذه القرية البعيدة عن مواكبة التقدم لكون منازلها غير موصولة بالكهرباء وبالمياه، إنها ذات طابع معماري فريد، ليس له مثيل. فمن أبرز عادات السكان أن يبنوا مساكنهم على الصخور وليس على التربة الخصبة احتراماً لها ولعطائها، ومن يخالف ذلك ينبذ من المجتمع وكأنه ارتكب ذنباً لا يغفر بحق الأرض. يعتقد الكثيرون أن البناء على التربة الخصبة يغضب الأرض وتحل لعنة العجاف على كل مخالف. لهذا، نادراً ما تتقارب البيوت، حتى أن القرية أصبحت تأخذ مساحة كبيرة وكأنها عقد متناثرة درره على بساط أخضر، يحملون أحجار البناء من الجبل على ظهور الحمير، يبنون بيوتهم من الطين والأحجار السوداء التي يتم تربيعها من قبل عمال متخصصين في هذا المجال. من الداخل تملأ الفراغات

بين الأحجار بالطين المخلوط بالقش لتصبح مادة متماسكة عازلاً للتسربات المائية ومانعاً لتسلل الحشرات. أما الأسطح فمسقوفة بجذوع الأشجار من فوقها خشب مربع يرص بعضها بجانب بعض بطريقة حرفية، ثم تصب بالطين الصافي وبعد جفافه توضع طبقة أخيرة ورقيقة من الطين المخلوط بالقش ليقاوم الأمطار. أعلى البيوت بثلاثة طوابق محاطة ببساتين مزروعة بأشجار الفاكهة المختلفة، إضافة إلى الأعشاب العطرية، يمتلكها الأثرياء الذين يتباهون بتزيين البيوت من الداخل بالأواني الفخارية القديمة والحديثة والمرايا والتحف، وجلود الحيوانات النادرة، والطيور المحنطة. يحرصون دوماً على تعليق السيوف والأسلحة القديمة على جدران مجالس الاستقبال. أما الفقراء، فلا يملكون سوى طابق واحد يحيط به سياج خشبي بداخله برج للحمام أو قُنّ، الأغنياء يعتبرون التدجين أعانة للفقراء ولا يهتمون بهذا الموروث القروي معتبرين ذلك إهانة لمستواهم الاجتماعي مفضلين زراعة الأزهار العطرية في بساتينهم على رائحة روث الدجاج أو المواشي. فمواشيهم تربى عند الفقراء مقابل أجر معين مما تجود به لقاء الاعتناء بها. على مدخل القرية مسجد، ومدرسة صغيرة للتعليم الابتدائي فقط، لأن كلاً من أبناء الفقراء والأغنياء لا يكملون تعليمهم، ويكتفون باكتساب القدرة على القراءة والكتابة. أبناء الفقراء يعملون لمساعدة أسرهم بعد إكمال الابتدائية، وأبناء الأغنياء يجبرون على مزاولة عمل آبائهم ليحافظوا على هذا النشاط الموروث عن الأجداد. لا مركز صحي ولا مركز للشرطة. إذ تكتفي القيادة العامة للأمن بتنصيب عمدة على كل قرية. العمدة مسؤول عن كل أمر فيها، جمع الضرائب، وحل مشاكل الناس. وإذا استعصت قضية، يتم إرسالها إلى القيادة العامة في المدينة. الريف بعيداً عن النمو والتطور. هذا هو عام 1980 والذي مازالت القرية منطقة معزولة تماماً، ومازال الابراق خيط التواصل الوحيد بين سلطة القرية المتمثلة بعمدتها وبين القيادة في المدينة.

****

في الصباح الباكر من كل يوم، يستيقظ الجميع ليتناولوا وجبة الفطور الخاصة بأبناء الريف، والتي غالباً ما تكون خبزاً وحليباً وجبناً. إثرها، يتوجهون إلى أعمالهم أفواجا وكأنهم ذاهبون إلى يوم الحشر. ومن بين هؤلاء باسل الذي وإن كان يحظى بحب الجميع تقريبا، يعمل في حقل الحاج حسين في القرية المجاورة، تجده هادئ الطباع، رزيناً متقناً للعمل. أكسبته الأيام طبيعة الحياة التي كان يعيشها على نحو هستيري يبدو التعب على كل جزيئات رقبته. ملابسه الممزقة والمدعكة في أكثر من مكان تذكر بعمال مناجم الفحم. تربى يتيماً بعد وفاة والده، وهو في الثانية عشرة. ومنذ ذلك الحين وهو يعيل أمه التي تجاوزت الخامسة والأربعين. لم تستطع التجاعيد البارزة على جبينها أن تخفي ما كانت تتسم به من حسن وبهاء. الصبر والصلابة من أبرز سماتها، هذه المرأة التي كانت في يوم ما حلم جميع شباب القرية، الكل يخطب ودها ويتوه في لفتة صغيرة منها... وما كانت لتلتفت سوى لشخص واحد فقط. هو من تركها وحيدة مع هذا الصبي الذي بلغ الثانية عشر ربيعا. إلا أنه بهمه وعزم الرجال الناضجين الذين عركتهم السنون بدا أكبر من سنه الحالي، أو هكذا ما يقوله من يراه أو يتعامل معه. ولذا، كان يكلل بثقة مرؤوسيه من ذوي الأعمال الخاصة خارج القرية.

تجاوز الثامنة عشرة وهو من يعول أمه التي هي كل أهله في هذه الدنيا التي خلت سوى من صديقه تامر الذي لا يزال جسر من الود يربطهُ به ليعبره كل مساء لزيارته والاطمئنان عليه ولا يلبث أن يغادر في الثلث الأول من الليل. فلديهما عمل ينتظرهما عند الصباح. كان في بعض أحاديثهم أحيانا استحضار لتلك الصور الطفولية العذبة التي كانت محور ثلاثي هما وسعاد التي لابد أن تكون كبرت الآن وتقف هي الأخرى على ظلال تلك الصورة الدافئة الجميلة المعلقة على جدران الماضي. هذا ما قاله

باسل لتامر حين دار الحديث حول مراتع الطفولية وكان لباسل أسبابهُ التي تجعله يحجم عن الخوض في هذا الموضوع.... وفي أثناء ذكرهما هذا الأمر الذي كان حاظرا في الحديث، أشار تامر إلى عودة سعاد من المدينة للمكوث في القرية وبشكل مستمر. تساءل باسل بنوع من اللامبالاة:

- أأنت متأكد مما تقول؟!
- هذا ما تحدثت به أمي نقلاً عن أم سعاد.
- أتقصد أنها لن تكمل دراستها الجامعية؟
- لا أدري تحديداً، إنما هذا ما يتحدثون به.

رفع باسل كتفيه بعدم اكتراث:

- وليكن. المهم هل يمكنك التفرغ غداً لقضاء وقت ممتع عند ضفاف النهر، علنا نستعيد بعضاً من تلك الذكريات الأثيرة؟
- أتقصد أن ليس لديك عمل غداً؟
- في الحقيقة نعم، منحني الحاج حسين أجازة مدفوعة الأجر ليوم واحد نظير المجهود الذي بذلته أثناء الحصاد.
- آه...لو كنت أستطيع الذهاب معك إلى ذلك المكان الذي أشتاق إليه كثيراً رغم أني أمّر به كل صباح ومساء عند الذهاب إلى السوق وعند العودة منه.
- لمَ لا تستطيع؟!
- الحقيقة يا صديقي إن هناك التزام قطعته لزبون من قرية "الشهب" بإحضار كمية كبيرة من الشاي لي فيها عائد كبير. ربما لأول مرة أحصل على مثل هذا العائد. ولعلها فرصة اذهب إلى هناك أسلم كمية الشاي وأزور أختي لبنى، لم أرها منذ عرسها.
- ألم تزرها حتى الآن؟!
- منعتني أمي.
- ولمَ؟!
- العرف يا صديقي، لا يجوز زيارة العروس إلا بعد انقضاء شهرين من عمر العرس، وكأن العرف أصبح مقدساً!!

بدا باسل مستهجننا:

- عادات بالية!!!

***

بَكَّرَ باسل من بَيْتِهِ ليستمتع بالمناظر الخلابة، تفاجأ بفتاة في مقتبل العمر، تمشي وتتلفت نحو الجبل والنهر. نظر إليها بدهشة واسترسل: "يا إلهي ما أجملها! من هي؟!" وبدون أن يشعر، تبعها إلى النهر ووقف بعيدا عنها لا يحيد بنظره عنها. جلست على صخرة مطلة على ضفة النهر تراقب الصراع القائم بين زرقة السماء وخضرة الأشجار التي أظهرت اللون اللازوردي. ظل يراقبها عن بعد لفترة طويلة حتى وقفت وتهيأت للذهاب إلى مقصدها. لحقها... سمعت الفتاة الحسناء وقع أقدام، استدارت لترى من ذا الذي يتبع خطاها. استطاع أن يخفي نفسه في الوقت المناسب حتى لا تراه وهو يراقب خطواتها وحركاتها. واصلت مشيها إلى أن وصلت إلى منزل السيدة إسمهان.

في اليوم التالي، تناول فطوره وخرج إلى عمله. جال في خاطره هاجس، لعله يرى الفتاة للمرة الثانية، فوجد نفسه، ومن دون أي وعي، يسلك ذات الطريق التي التقته فيها. كانت نظراته حينها تمشط المكان لعله يلمح فيه شلال الحسن وربيع الانبهار الذي سكن عينيه، كانت الأقدار وقتها قد حنت عليه، لمح الفتاة عن بعد. ضرب باسل في الأرض، كان يسمع إيقاع قلبه ووقعه على الأرض، وكأنه تحول في تلك اللحظة إلى مجرد قلب فحسب. صوب ناظريه إلى شعرها الأسود المسترسل من تحت غطاء رأسها. أسرع الخطى كي تتضح له الرؤية. تسارعت دقات قلبه وكأنه فوهة بركان على وشك قذف حممه. في تلك اللحظة، قرر التجرؤ والتحدث إليها. اقترب منها فسمعت الفتاة أثراً لحركة بشر يطاردها. استدارت فرأت شابا يتبعها ويختلس النظر إليها، ابتسمت، دنا منها. ظل صامتا وهو يحدق في ملامح وجهها.

حدقت هي الأخرى به مليا، تحركت شفتاها بتمتمات أقرب إلى الهمس:

- باسل!!!
- من؟ سعاد!!!

نظرت باستحياء، لم تعد ترمقه بتلك النظرات الطفولية العميقة، فقالت له:

- لم أرك منذ فترة طويلة... أتذكر آخر لحظة التقينا بها.
- وهل يخيل لك أني أنسى أباك الذي نهرني وصرخ في وجهي عندما كنا نلعب؟!
- كان ذلك قبل زمن بعيد.
- أكثر من ست سنوات.
- أين كنت طيلة هذه الفترة؟ "تسألت"
- علقت في عجلة الظروف المعيشية التي لا ترحم الفقراء أمثالي ودرت معها كل هذه السنين، وهي ظروف لا تعرفينها على كل حال. ولكن ماذا عنكِ أنتِ؟
- سلبت مني الدراسة كل هذه السنين كما تعلم.
- إذا كانت الدراسة قد سلبت منك كل هذه السنين فقد وهبتك هذه السنون ذاتها حسنا وسحراً، فكم أنا ممتن لها بذلك!

ابتسمت باستحياء شديد وقد كسى وجهها حمرة الخجل، وبخطوات متسارعة مرتبكة، حاولت الابتعاد. استوقفها قائلا:

- هل أراكِ مرة أخرى؟

ردت عليه وهي مطرقة إلى الأرض بشيء من الاستحياء:

- ربما...

عاد باسل إلى منزله دون أن يذهب إلى عمله. ادعى أنه منهك القوى، ويحتاج إلى قسط من الراحة. الحقيقة أن ماضي الطفولة كان حاضرا ولكن جمال سعاد في هذا السن جعله في حالة ميول إلى العشق والإعجاب بجمالها وقوامها.

***

في اليوم التالي، خرج باسل من غرفته، وقد ارتدى أجمل ما يملك من الملابس، وكأنه ذاهب إلى عرس وليس إلى عمله. سألته أمه عما إذا كان هناك شيء ما يشغله عن عمله، فأجابها بأنه يحاول الاستمتاع بالدنيا لأنها هدية الله للبشر. توجه نحو ضفة النهر وأجنحة الجذل ترفرف في قلبه، والسعادة تغمر وجهه. لم يفكر حينها بعمله. جلس على إحدى الصخور المطلة على ضفاف لأزيد من ساعة يسبح في خيال مترامي الأطراف حتى جاء صوت:

- لماذا تأخرت؟ هيا أسرعي! أمك في انتظارك.

استدار إلى اليمين فوجد سعاد يرافقها والدها السيد نذير. انهار حزناً وإحباطاً وكأن السماء نضحت عليه صخورا ونارا. عادد إلى المنزل مبكرا، سألته أمه عن سر رجوعه في مثل هذا الوقت على غير عادته. جلس إلى جانبها في غرفة الجلوس على حصيرة، انتهت أمه للتو من كنس فتات التراب الذي تساقط من سقف المنزل بعد صعودها إليه لنشر أوراق وسيقان الذرة لتيبس تحت أشعة الشمس بغرض استخدامها في إشعال الحطب. بعد تلعثمه وتردده للحظات، قص عليها قصته، فقالت له:

- أتمنى أن تكون فرحتنا الأولى يا بني، ولكني أخاف عليك من غدر الزمان، نحن فقراء جدا بينما سعاد من أسرة حالها أفضل من حالنا بكثير. فهم أغنياء، والدها نزيد سيئ السلوك يا بني. لا تنسى، فليس لدينا سوى قوت اليوم وربما الغد. أنت لم تعمل منذ يومين، وإذا بقيت على هذه الحال، حتما سنعاني كثيرا.

***

بَكَّرَ باسل إلى عمله وهو يحدث نفسه عما إذا كان سيأتي يوم يعيش فيه غنيا، ولا يذهب إلى العمل في الحقل الذي أصبح كالكابوس، ولكنه على كل حال يبقى المصدر الوحيد الذي يحصل منه على رزقه. قطع المسافة ببطئ وعندما وصل إلى

الحقل، علت الدهشة وجهه، إذ به تفاجأ بشخص عوضه في عمله. حرك رأسه قليلاً نحو مالك الحقل، دب الارتباك في جوفه وكاد أن يسمع خفقان قلبه وكأن مداً بحرياً يلتهم الأرض ويلتهمه. باشره مالك الحق بصوت مرتفع:

- اسمعني جيدا، أعطيتك يوما واحدا إجازة مدفوعة الأجر، لكنك سخرت مني وتغيّبت يومين متتاليين إلى جانب الاجازة، فماذا تظن أني فاعل؟! هل استقبلك بالورود؟! هل تريدني أن أوقف العمل في الحقل من أجلك؟! لقد اضطررت إلى أن أستدعي عاملاً آخر بدلاً عنك.
- هل أستطيع أن أعود غداً لمزاولة عملي؟

حرك مالك الحقل رأسه يمينا، وقال:

- أنا آسف! ليس لك مكان هنا بعد اليوم، فهذا العامل الجديد يتقاضى أجراً أقل منك بكثير.

احمر وجهه وبأن عليه الارتباك وهو يقول:

- أنا على استعداد للعمل وتقاضي الأجر الذي تريده أنت يا سيدي.

ابتسم مالك الحقل ابتسام أسد متخم وهو يقول:

- لا أستطيع. لقد وعدت هذا العامل أن يعمل معي باستمرار، إمض في سبيلك وابحث عن مكان آخر.

قال محتجاً:

أنا أعمل معك منذ بداية الموسم.
ولكنك سخرت مني في نهايته.
ليس عدلاً أن.....

قاطعه بانفعال:

- ما العدل برأيك؟ أمن العدل أن يبقى المحصول في الحقل معرضاً للسرقة وأنت في نزهة؟!

رد معتذراً:

- أسف سيدي، لقد كنت.....

قاطعه:

- من الأفضل أن لا تضيع وقتك معي.

وصل إلى المنزل ووجهه محمر. حاولت أمه أن تهون عليه:

- لا تحزن يا بني! لقد عرفت ما حدث لك في الحقل، نعم قرأت ذلك من عينيك. طردك مالك الحقل، أليس كذلك؟ (لم يستطع أن يرد عليها. فتابعت...) اسمع يا بني، أنا لست غاضبة منك، لأني أحس بما تحس به من ألم، من حقك أن تحب. أنت بشر وليس هناك شيء أجمل من الحب في هذه الدنيا. الحب والموت هو ما يتساوى به الفقراء مع الأغنياء. ولكن الظروف التي تمر بها صعبة جداً وعليك أن تنسى الحب في الوقت الراهن ريثما تجد عملاً أفضل من عمل الحقل. كفقراء، الخبز مقدم على الحب كما أن الدواء مقدم على المال لدى الأغنياء. غداً يجب عليك أن تبحث عن عمل... وتحل بالصبر والكفاح، فلكل يوم شمس وريح.

تناول يد أمه وقبلها ثم قال:

- كم أنت رائعة يا أمي! صحيح أني فقير لم أستطع أن أوفر لك قوت أكثر من يوم، ولكني أستطيع أن أوفر لك حبي طوال حياتي.

ابتسمت أمه وربتت على كتفه الأيمن وهي تدعوا له بالرزق والبركة. انطلق للبحث عن عمل. طرق كل الأبواب ولم يجرؤ أحد على استخدامه، ذهب إلى كل حقول القرية لكن دون جدوى. في آخر النهار كانت الشمس قد عادت إلى مخدعها، وكل النفوس آوت إلى مستقرها. مضى لسبيله نحو المنزل والبؤس يغطي قلبه فالحاجة تجعل البطل جباناً والشجاع خائفاً وضعيفاً. همٌّ يثقل عاتقه وكأنه يحمل على ظهره الجبال. ضرب جبهته بيده ومن ثم اختلجت يده وأنشأ يقول بصوت خافت يغلفه الغضب:

- الصبر فاكهة الفقراء، بل لولاه لما عاش فقير ولا مظلوم في الأرض.

دفع باب المنزل المثخن بالحطب بقوة شديدة لثقله وصاحبه صريف مزعج عند الفتح والغلق، توجهت الأم لملاقاته لدى

سماعها الصريف، حاول أخفاء الأسى الذي اعتراه وشق طريقه إلى الداخل، جلس على الحصيرة ولم يجد وسيلة لتعبير عما يشعر به سوى الصمت. عرفت أنه لم يجد عملاً. جلست بجانبه وراحت تحاول أن تخفف من حزنه:

- لا تقلق يا بني، إن الغد يأتي بما فيه، وسيكون جميلا، ولعل الرحمة تفتح جناحيها فتظللنا من أي لفيح.

رد عليها بإحباط:

- أني تعس الحظ مع أني أحاول أن أركض وراءهُ دون أن أدركه عكس بعض الناس يركض وراءهم بكل خيراته.
- لا تيأس من رحمة الله. إن الله لا يخلق مخلوقاً وينساه، ولا يقدر له رزقه. يا بني لا أريد أن أراك يائسا، فأنا لا أشعر بالجوع عندما أراك متفائلاً، فكن كذلك.
- أعدك أن أكون كما تريدين، ولن أقف عند هذه النقطة، سأحاول مليون مرة قبل أن أسلم نفسي لأسوأ مصير.

***

اليوم التالي، وقبل أن تبهر الشمس الأرض، بَكَّرَ باسل للبحث عن عمل. لم يدع باباً إلا وطرقه مجدداُ، ولا حقلاً دون أن يسأل عما إن كان هناك عمل حتى ولو بنصف الأجر. لم يجد من يمد له يد العون ويوفر له مبتغاه. غيرت الشمس وجهها الثالث وعاد إلى منزله وهو متعب. دخل على أمه فوجدها جالسة في إحدى زوايا غرفة الجلوس والابتسامة مرسومة على محياها. هذه هي هديل، باهية الوجه في الأمس واليوم، النور يشع بياضاً من صفحات وجهها، بهذا النور تستقوي على تكالب الزمان عليها رافضة الاستسلام لقساوة الظروف المعيشية، الفقر، هي لا تخشاه، المرض،، تتحداه بصبرها، الأوضاع المعيشية القاتلة لن تكسر ظهرها. فبعد وفاة زوجها لم تعد تكترث لهكذا ظروف ولا تعير الظلام ادنى أتهام.

قبل أن ينجلي الليل بساعة، استيقظ وضل مستلقيا حتى بان النهار. خرج باحثاً عن عمل. لم يتوقف لحظة عن المشي حتى جحرت الشمس للغروب، فقرر اللجوء إلى تامر. شاءت الأقدار أن يلتقيه وهو راجع من عمله إلى منزله، قص عليه قصته. فاقترح عليه:

- ما رأيك أن تبيع معي البن والشاي؟ صحيح أنها ليس بالتجارة المربحة. ولكن عليهما إقبال في سوق القرية.

فرح باسل وأخذ نفساً عميقا:

- أنا موافق يا صديقي.
- إذا، غدا وبعد الفجر، سأكون في انتظارك عند المدخل الأمامي للسوق لتباشر العمل.

عاد باسل إلى المنزل وقلبه يرقص طرباً وفرحاً. وبعد أن طرق، فتحت أمه الباب، محيا ابنها ينبئ بشيء من البهجة وفرحة الفرج. احتضنها وقبلها:

- لقد وجدت عملاً يا أمي.
- هذا خبر يشرح القلب يا بني.
- عانينا بما فيه الكفاية.
- لا يهم يا بني. الأهم من ذلك أنك وجدت عملاً.
- سأبيع البن والشاي مع تامر.

مسحت على رأس ابنها وهي تقول: "أعرف أنك تعبت اليوم. جبت القرية والحقول والوادي باحثاً عن عمل. والآن، آن لك أن تنام نوماً هنيئا، إجلس وتناول ما سلقت لك من البيض الذي جادت به الدجاج اليوم"... بعد هذه الوجبة الخفيفة، دخل إلى مخدعه واستلقى على ظهره. في الحقيقة الشرود مازال حاضرا لأيام طوال. للتو زاد من حدته أكثر فأكثر، وما هي إلا لحظات حتى طارت به أجنحة المنام محلقة في سماء داخله بواقع من أرض وروح وجسد ليجد سعاد واقفة أمامه تحاوره قائلة: هل يجوع المقاتل في المعركة؟

- أليس المقاتل بشراً؟!

- بلا، ولكنه يتحمل كل صعب بما في ذلك الجوع.
- ها أنا مثل لرجل صبور، جسور، يصارع كل شيء من حوله كي ينجو...

قالت (مقاطعة):

- لا تكمل... الجميع يعرف ذلك من ملابسك المدعكة في كل مكان، ومن معطفك الذي مزقه القدم، وقدميك المنتفختين اللتين تذكراني بأقدام الاستوائيين.

رد عليها بنبرة ملؤها العناد:

- أنا لست كذلك، أنت تقصدين أني فقير أو... بخيل..... لا...... أنا غني النفس،... هل الفقر جريمة أحاسب عليها؟ لست أنا السبب في فقر حالي. هذا هو قدري. لا أحد في هذا العالم يستطيع رزق نفسه، ذلك شيء مُقدر.

قهقهت عاليا وتابعت:

- ولكني أحبك بفقرك، وتعاستك ومعاناتك، وآلامك وأحزانك.

تنفس الصعداء وابتسم ابتسامة مصحوبة بالأمل وقال:

- على النقيض مما توقعت. كنت أظن أنك ستكرهينني ولا ترغبين بالحديث إلى فقير معدم مثلي.

ثقل لسانها واقتربت منه قليلاً:

- فقرك أطهر من المال الحرام.

حاول أن يمسك يدها وإذا بها تتلاشى، ليفيق من نومه وقد نال منه البرد بعد إن أزاح الغطاء دون وعي، أعاد الغطاء ليلحف جسده ويستأنف نومه.

***

في الصباح، استيقظ باسل على صياح الديكة وقد ظن أنه تأخر عن موعده مع تامر، فخرج مسرعاً نحو السوق وهو يكلم نفسه: "هل هناك شخص أحمق مثلي؟! لقد تأخرت عن العمل في أول يوم". سمع صوتاً من خلفه ينادي باسمه. استدار نحو

الخلف، فإذا بتامر يناديه. اقترب منه وتصـــافحا ودخلا إلى السوق معاً، شرعا يبيعان البن والشاي. كان صوته يضيع بين أصوات الباعة، الذين يروجون لسلعهم أو منتجاتهم. يتواجد في هذا المكان تجار من المدينة أنشـــأوا مكاتب خاصـــة بهم للاستيراد. هذا السوق ليس لهذه القرية فحسب، بل لكل القرى المجاورة، فهو ســـوق تجاري كبير به جميع طبقات المجتمع. تســـوّق فيه جميع المنتجات الزراعية والحيوانية وأحيانا المصنعة.

وصلت الشمس إلى كبد السماء وباسلا واقفاً يصيح بصوت عال: الشـــاي..... البن.... وفجأة تســـمر وماتت الكلمات في مخارج الحروف وكأن الصاعقة سقطت على رأسه عندما رأى سـعاد تشـتري بعض الأشـياء. كانت قد رأته ولكنها تظاهرت بعكس ذلك، دنت منه لشـــراء الشـــاي، بدأ العرق يتصـــبب من جبينه من شـــدة الخجل... تامر واقفاً بعيدا عن صـــديقه يروج بضــاعته، حاول باسل أن يلمســه بيده ليعلمه بقدوم سـعاد وهو مازال ينظر إليها ولكن يده لم تصل إليه بسبب تحركه المستمر نحو الزبائن. اقتربت منهما وقد كســـت الابتســـامة محياها، وضـــعت المشـــتريات على الأرض، وبرغم إن تامر مازال مشغولا بالبيع ولم يدرك قدومها، إلا أنها بادرت باسل قائله:

- بكم الشاي يا سيدي؟

ابتلع ريقه ورد عليها قائلاً:

- لا أدري ماذا تقصدين؟ أتريدين شراء الشاي أم انك تسخرين مني؟
- السخرية... ممن! ولماذا؟ فأنا لا أرى أمامي سوى شاب نبيل يكسب قوته بشرف وهو فوق هذا صديق طفولة.

انتزع شبه ابتسامه وقال:

- دهشت لرؤيتك.
- أنت شاب عظيم وتستحق الاحترام.

أدرك تامر أن سعاد تتحدث إلى باسل فاترك البيع واقترب منها وحياها.

- جميل أن أراكما معا. "عبرت عن ارتياحها"
- لقد جمعنا العمل. "رد عليها باسل"

قالت مازحه:

- أنا من هي الدخيلة عليكما.

قال تامر:

- على العكس، أنت حاضرة دائما في قلوبنا.
- ولكني مازلت أعتب على تامر...
- تعتبين عليّ!! يعلم الله أني لم أخطئ في حقك يوما ياسعاد.
- نعم أعتب عليك. أولاً، أنا هنا في القرية منذُ أسبوع ولم أرك وأنت جاري. والثانية، بعثت معك رسائل كلامية لا عدد لها لباسل في كل صيف أقضيه في القرية. حتى لا يظن أني قد نسيته (وهي تشير بسبابته نحو باسل) وكان فحوى تلك الرسائل أني أريد أن أراك يا باسل ولست أدري ما إذا أوصلها لك تامر أم لا؟

أجاب باسل:

- أخبرني بكل شيء.

سألته معاتبة:

- ولماذا لم تلب نداءاتي؟!
- لأني لا أتواجد في القرية، أعمل في القرى المجاورة وغالبا أبيت هناك في عرازيل الحقول بغرض الحراسة.

قال تامر مقاطعاً:

- تتحدثان وأنا لم أدافع عن نفسي (صوب ناظريه نحو سعاد وهو يقول) منذ أسبوع وأنا مشغول بالتزامات نحو زبون هام وكنت انوي أن أسأل عنك اليوم. أما بشأن عتابك الثاني، فقد كنت أبلغ باسلاً بكل ما تقولينه لي، لكنه كان مشغولاً حتى أني لا أراه ألا عند المساء حين يعود من عمله.
- أذا كان الأمر كذلك، فلم يعد لدي عتب عليك.

تقدم زبون لشراء، انشغل تامر بالبيع وشعرت سعاد أنها شغلت صديقيها عن تجارتهما، فقالت لباسل:

- أعطني من فضلك كيلو من الشاي .
- بكل سرور (وهو يناولها الشاي) تفضلي!

عاد باسل إلى المنزل وقد اشترى بعض الطعام له ولأمه. ببهجة ملؤها السماء والأرض لا يدري إذا كانت ستستمر إلى الأبد، قال لنفسه: "ها أنا قد ولدت من جديد. آن للعذاب أن يرحل بعيدا عني، لقد وجدت القلب الذي سينبض في جسمي. أين كنت من هذا كله؟ سأعيش كل حياتي في سعادة لا مثيل لها". واصل مشيه وهو يسرع الخطى ليشاطر أمه السعادة. وبعد أن طرق الباب وفتحته كانت السعادة تشع من وجهه، وكأنه توج ملكا، فبادرته:

- أكل هذه السعادة من أجل العمل؟! لم يسبق لي وأن رأيتك على هذه الحال.

أخذ يد أمه وخبأها بين يديه مثل الجوهرة الثمينة وقال:

- أنا اليوم أسعد مخلوق على ظهر الأرض يا أمي.
- وما سر هذه السعادة؟!
- التقيت سعاد صدفة في السوق بينما كنت أبيع الشاي. والأهم من ذلك أنها ابتسمت وعبرت لي عن سعادتها ما دمت أكسب قوتي بعرق جبيني دون خجل. تبادلنا الحديث، وبدأت أحس بأني شخص مميز وكأنني دخلت إلى قلبها كما يدخل السيف الغمد.
- أكمل الله فرحتك يا بني، ولكن كن حذراً لأن والدها كما تعلم......

قطع كلامها قائلاً:

- لا تكملي يا أمي، إني أعرف كل شيء، أنا مستعد له.

نزلت دموع الخوف من مقلتيها، فموت زوجها بث الذعر في حياتها على ابنها الوحيد، فقالت بحزن:

- كل أملي يا بني أن لا أخسرك، لأنك كل ما تبقى لي في هذه الدنيا بعد والدك.

رسم ابتسامة على محياه وطمأنها:

- لا تخافي. أنا الآن رجل أعرف ما أصنع.

***

عند الغروب يُعيد الرعاة البهائم إلى مستقرها، تقوم النساء والأطفال بملاحقة الدجاج واعادتها إلى أقنانها، كل أسرة تربي الدواجن تحرص على عدها كما تحرص على متابعة بيضها في محيط قنها. جاءت "صيفية" زوجها تعلمه فقدانها أثر الديك، عاتبها لعدم اهتمامها بالدجاج. فهذة المرة الثانية التي تخفق في لم الدجاجة خلال شهر، بحث عنه في بقاع تواجد الدجاج في مناطق عدة من القرية، سأل جيرانه عنه، تحدث يقينا أن ديكه سُرق متوعدا الفاعل. في منتصف الليل سمع صياح ديكه، إنه صوت مميز، هو يعرف هذا الصوت، أخذ عصاه وخرج في عتمة الظلام ليتبع شكه حول مصدر الصوت، تفحص المنطقة وأكد جازما أن "رفيع" هو من سرق ديكه. كشف امرك يارفيع، سأفضحك. "هذا ما قاله رضا وهو يمضي في طريقة نحو منزل العمدة".

- طرق باب العمدة طرقات عديدة، ايقظ عماد ابن العمدة، ظهر من النافذة، تساءل من الطارق والناس نيام؟
- سيدي عماد، أريد التحدث إلى العمدة.
- هل من طامة حدثت حتى تأتي في مثل هذا الوقت؟
- اكتشفت سارقا.
- أهو من أهل القرية، أو دخيل؟
- بل من أهل القرية؟
- يا أحمق، لمَ لم تنتظر حتى الصباح؟! أو تذهب إلى حراس القرية الليليين؟!
- أخشى ضياع الدليل.

صوت العمدة الأجش يصل من نافذة أخرى بعد سماعه الحديث الدائر بينهما:

- من هو السارق؟
- أنه رفيع يا سيدي.
- وماذا سرق؟
- سرق ديكي.
- وكيف عرفت أنه السارق؟
- سمعت صياح الديك من منزله.
- متى سمعت صياح الديك؟
- قبل قليل.

نظر العمدة إلى القمر وعاد ليرد على رضا:

- ويحك أيها الحمار، أتوقظ سيدك في منتصف الليل من أجل كلب؟!
- أنه ديك ياسيدي وليس كلباً.
- نحن نعرف أن الكلب ينبح في منتصف الليل وليس الديك، فكيف أصبح ديكك كلباً؟
- أنا سمعته ياسيدي.
- أناداك بأسمك؟
- أتسخر مني سيدي؟!

بغضب وصوت مرتفع رد عليه العمدة:

- ألا لعنة الله على وجهك أيها البغل. إذهب وتعال إلي في الصباح.

عض قلبي ولا تعض رغيفي، هذا مبدأ رضا. لذا قضى باقي الليل يراقب منزل رفيع. جاء الصباح، خرج رفيع، ألقى رضا عليه القبض بعد مشاجرة بسيطة لحظات توثيقه، أخذه إلى مقر العمدة. المقر مازال مغلقاً وعنيد مرافق العمدة واقف بانتظار سيده، بادر عنيد رضا بسؤله عن سبب تكبيل رفيع، أجابه بأنه سارق، دافع رفيع عن نفسه وكال الشتائم لرضا. ومن أمرك بتكبيله؟ سؤال طرحه عنيد على رضا، فأجابه أن العمده أمره بذلك. استيقظ العمدة من نومه متأخرا، وكالعادة تناول فطوره. ارتدى معطفه، تعمم. نقط العطر على ثيابه ويديه، ثم تخلل

شــاربه. فرقع أصــابعه ومن ثم أخذ عصــاه وخرج. في طريقه يلقي عليه الناس تحية الصــــباح بحفاوة بالغة، يرد عليهم بيده. بلغ المقر، تساءل باضطراب:

- من وثق رفيع؟
- رد رضا مفتخرا:
- إنه السارق؟
- قلت، من وثقه؟

اجاب رضا:

- أنا.
- ومن أمرك بذلك؟
- أنت.
- ســـخم الله وجه أبيك، أمرتك بالحضـــور إلى مقري لأعاقبك على إيقاظ سيدك في منتصف الليل. فك وثاقه.

فعل ما أمُر، فتح عنيد المقر، اســـتمع العمدة لرضـــا، ثم وجه سؤاله لرفيع:

- هل ديك هذا البغل معك؟
- ياســيدي أنا لســت ســارقاً، ولم يســبق لأحد واتهمني بالســرقة، لقد أخطأ رضـــا في حقي، ولم يجعل حرمة للجار. من الآن هذا الرجل ليس جاري ولا أتشـــرف بجيرة من يشكك بكرامتي.
- أقترح يا ســيدي بأن أذهب لتفتيش قن رفيع. "هكذا اقحم عنيد نفسه"
- ضرب العمدة على طاولته بغضب موجها كلامه لعنيد:
- أنا العمدة، وأنا من يقرر أيها الأرعن.
- آسف سيدي.
- هل الدجاج مازال في القن؟ "وجه العمدة سؤاله لرفيع"
- لقد أخرجتها زوجتي لتقتات.

- من أجل ديك، العمدة يقتل نفسـه هماً. "قالها العمدة بغضـب، ثم أمر عنيد..." إذهب إلى مكان تواجد دجاج رفيع وفتش عن الديك.
- تـحت أمرك سيدي.
- رضا ورفيع يبقيان هنا.
- وكيف سأعرف مكان تواجد دجاج رفيع؟ "هكذا تساءل عنيد"
- ضربه العمدة على قفاه وهو يصرخ:
- لوكان مسـاعدي حماراً لذهب إلى زوجة رفيع وحقق معها وعرف مكان تواجد دجاجها.

بعد ساعة من الزمن جاء عنيد وبيديه الديك، صاح رضا مجددا اتهامه:

- هذا ديكي، ألم أقل لك يا سيدي إن رفيع هو السارق؟!

رد رفيع مبرئاً نفسه:

- والله لم اسـرق الديك، ربما دخل مع دجاجي إلى القن دون معرفتي، ومثـل هـذا يحـدث دائمـا، خطـأ غير مقصود.
- ولماذ لم تقل منذ البداية أن الديك في قنك؟ "سـأله العمدة"
- وما أدراني أن ديكه ارتكب حماقة وتسـلل إلى قن دجاجي، إني اطالب سـيدي العمدة بمعاقبة رضـا لأن ديكه انتهك حرمة دجاجي ودخل دون اسـتأذان إلى فناء منزلي.
- أنت مدافع فاشل، كيف أسلط عليه العقاب بسبب ديك لا عقل له.
- وكيف تسلط العقاب عليّ بسبب ديك لا عقل له؟ لو كنتُ السارق لذبحت الديك وماجعلته يصيح ويُعلم الجميع أنه بين دجاجي، (يوجه سؤاله لعنيد...) أين وجدت الديك؟
- أجاب عنيد:

- بين دجاجك في ساحة القرية.
- إذا، عنيد لم يجد الديك في فنائي، وهذا يعني ان الديك بات في مكان ما وعند الصباح التحق بموكب دجاجي.
- أصبح لدجاجك موكب!!! همم... أفاض الله روحك، كنت سـأبرئك ولكنك جنيت على نفسـك "بموكب" من اللعن. "قالها العمدة بغضب"

رضـا صـامت منتظر حكم العمدة واستلامه الديك الذي مازال في عهدة عنيد، أمرهما العمدة بالبقاء خارج المقر حتى يصـدر حكمه. دقائق ونادهما وشرع بأصدار حكمه:

- حكمتُ على الديك بالأعدام ورميه للجوارح لأنه سـبب هذة الضجة، (قاطعه رضـا باندفاع...) وما دخل الديك؟ (صـاح العمدة في وجهه...) إذا قاطعت سيدك مرة ثانية سـآمر عنيد بجلدك أمام الناس جميعاً، ثم أودعك سـجن القرية لأسبوع.
- أسف سيدي.

أكمل العمدة...)

- وحكمت على رضـا ورفيع بمسـح الطريق المؤدية إلى القرية.
- هما بالأعتراض، كشـر عنيد في وجهيهما وأخرجهما بدفعات يديه ليشـرعا في ترميم الطريق المؤدية إلى مخازن العمدة التي يجمع فيها منتوجاته الزراعية.

***

بعد الفطور الريفي، انطلق باسل نحو عمله. وما هي إلا سويعات من بدء البيع، وما أن غيرت الشمس وجهها الثاني، حتى أتت سعاد. لَمَّا دخلت قابلتْهُ في وجهه وكأنها زهرة تعانق الشمس. استقام ثم صمت واجما. ابتسمت حتى ظهرت أسنانها، وكأنه البرد قد غطى الأرض الشَهْباء، ظلا صامتين للحظات وتامر يراقب نظراتهما المتبادلة. تأكد له، حينها، الهاجس الذي شغل

بالهُ. ابتلع ريقه بصعوبة وأحس حينها، أنهُ يقف عائقا بين ابني العمومة، انسحب قليلاً ليفسح المجال لصديقه مباركاً إياه باختياره، نطقت سعاد بعبارات ملؤها العذوبة والرقة:

- صباح الخير يا سيدي... أو أقول يا باسل؟

- صباح الخير يا سعاد، ناديني كما أناديك.

نظرت إلى عينيه وقالت:

- لك ذلك.

لزما الصمت مجدداً وكلاهما يحدق في وجه الآخر ويتصفح ما جذبه من ملامح الحسن والوسامة. إعجاب يتسلل خلسةً من بين حنايا الروح ليدمج الروح بالروح، رغبة بالوقوف أمام السواقي المقدسة. ثوان معدودة تعبر مسافة تذكرت نفسها بأنها محيط من الصمت، ينطق ببعض الكلمات المتقطعة محاولاً تشكيل عبارة غزلية:

- إ...إ...إن...إن الكلمات تـ...تـ...تتعثر، إن الكلمات تتعثر وأنا أنظر إلى إشراقة شمس..... من بني البشر.

تضحك باستحياء وراحة يدها اليمنى على فمها وأنفها وهي تقول:

- أتتغزل بي في السوق... ما هذه الجرأة؟!

بدا عليه الارتباك والتلعثم، وقال بصوت هادئ:

- عذرا...

قالت وهي تلعب بخاتمها:

- تجرأ كما تشاء... لن أطيل عليك، أراك لاحقاً.

بدا له كلامها إشارة خضراء، فأنشأ يقول بصوت خافت:

- هل أراك قبل عصر اليوم؟

وما أن نطق بهذه الكلمات حتى نبا عن محياه شيء من الأسف خشية إحراجها، فهي اليوم بالغة والانفراد مع فتاة يعد جريمة في نظر هذا المجتمع حتى ولو كان متسماً بالعفة والنبل، فهذا لا يكفي. الألسن كالمطاط تطول تحت أشعة الشمس.

ابتسمت وقالت بهدوء:

- لا مانع من ذلك، ولكن أين؟
أدرك أن المجال مفتوح للتواصل معها، فقال مقترحاً المكان:
- عند ضفة النهر، أو في قمة الجبل القريب من الشلال.
- نلتقي في الجبل.
أنساها التغزل ألقاء الوداع على تامر، نظر باسل إلى محل بيع الأعشاب الطبية القابع أمامه، وانتابه شعور غريب وكأن شيئاً ما يجول بداخل شريانه يجعله يريد مغادرة المكان إلى مدخل السوق والصراخ بصوت عال وكأنه أصبح مجرد صوت وبهجة خلقت للتو. غزت الهواجس ذهنه وأحدثت فيه فوضى من التفكير حتى أنه وقف وأراد أن يذهب إلى قمة الجبل والانتظار هناك حتى يحين موعد اللقاء. لم يتحمل فارق الوقت. بعد أن تيقن شك تامر، منعهُ وحثه على تحمل الوقت المتبقي والانشغال بالبيع. شرد ذهن تامر وكأنه بدأ يتحسس شيئاً من الحب أو الإعجاب في صدره تجاه سعاد. وكأن شيطان العشق بداء ينفذ خططه للإيقاع بين الصديقين، ولكن هيهات، برغم من إعجاب تامر بسعاد حتى هذه ألحظة، إلا أنهُ تخلى عن طموحه من أجل صديقه لحظة تأكده من ميول كليهما نحو الآخر. شعر بنوع من الإحباط ولكنه استبدله بالمباركة في نفسه لهما تقديساً وإجلالا للصداقة، مجسداً المعنى الحقيقي للمروؤة والإخلاص من اجلهما. أني أبارك لكما فأنتما أجمل وأغلى من نفسي ولو كنت أستطيع لزكيتكما. هذا ما كان يحدث به نفسه قبل أن يستدير نحو باسل الذي شرع بالبيع ليسألهُ:

- أأحببتها؟
- بصراحة... نعم.
- وماذا عنها؟
- يبدو لي أن لديها نفس الشعور؟
- أبارك لك يا صديقي! بأرق فتاة، وأبارك لها بفارس القرية.
- هذا ما كنت أتوقعه منك يا تامر.

- رغم أني أبارك لك، إلا أني أخشى عليك من بطش السيد نذير. فهو، كما تعلم، حاد الطباع.
- ربما يعود إلى رشده ذات يوم. خاصة ونحن من ابناء العم.

***

بعد الظهر، انطلق إلى قمة الجبل بسعادة بالغة تكاد تمكنه من الطيران فهو عاجز عن تفسير سبب تموج جسده وبلوغ نشوته أقصى مبلغ وهو يصعد المرتفع. وصل قبلها، وما لبث إلا لحظات حتى وصلت وهي تلهث من شدة التعب، وقف يحييها، مدت يدها له وقالت مرحبة:

- مرحباً باسل.
- مرحباً...

على نحو مفاجئ وهما واقفان يحدق كلا منهما في وجه الآخر، اندلعت ثورة العشق في قلبيهما ضد الحب الطفولي العذب. توردت اللحظات بعد عمر من شتاء، وأشرقت الأرض ابتسامات بعد بحور من تجهّم، تريشت أجنحة الحزن لتطير سعادة، أنفاسه تناجي المسافة بينهما بنجاء يختصر آناء الليل وأطْراف النهار. ذهب منْ السعادة إلى أبْعَد مذاهبه حتى نال من الشقاء، فلمَ البؤس والحزن؟ إنهُ في لحظة سكرت بكأس من نشوة.. تعشبت صحراء قلبها بالسهد وتورقت بجنون الغمرات، وأشرقت على أغصانها الشجون وأينعتْ فاكهة الود في موسم العشق. تتصفح أنجم وجهه، وكأن مرآتها السماء، تنظر إلى وجهٍ جميلٍ كوجهها، وحسنٍ بهيج كحسنها. هاهي تتمرد فرحاً على أحزان وتحول الوجود إلى أناشيد حياة. راح الحياء يثير فيها فتنة لم تعهدها من قبل، (تعود أنفاسها الطبيعية تدريجياً، تراخت مفاصلها) كان بالأمس صديقها وها هي اليوم تصير حبيبته. إلى أين أنتِ ذاهبة؟! أتنفين نفسك إلى صدر رجل بهذه السهولة؟ "هذا ما قالته لها نفسها وربما الحياء من قال ذلك"، لم تستطع التفريق بينهما، إلا أن ذكراه طيلة عُمر مضى كانت أسرع بقذف كلمات زادت

من ذوبان جليد القلب وكأن ما يحيط بها حرارة وليست كلمات عشق أو حب، كان كالوهم في الماضي وصاحبها الى ما قبل هذه اللحظة. "ماذا أصنع؟ الأمر ليس بيدي، أشعر باندفاع نحوه، (قالت لنفسها)، اصمدي أو تراجعي (قالت لها نفسها)، لكني أكن له مالا أكنه لأحد. (ردت على نفسها جازمة)." وجدت نفسها تخرج من دهاليزها بصوت باسل طالبا أيها الجلوس على نفس الصخرة التي كان جالسا عليها، جلست وكذلك هو، أصبحت لديه طاقة من الشجاعة لكسر باقي الحاجز الجليدي حين لاحظ عدم ممانعتها التقرب إليه. فقال لها مبادرا بأن الماضي زادها جمالا وأخذ منه قلبه، وراح يتساءل "ماذا سيزيدها المستقبل؟ وهل سيُلغى القمر وتكون هي البديل؟ (ردت عليه بشيء من الخجل والتعجب) أخذت السنون قلبك منك، ماذا تبقى لرفيقة طفولتك؟ (رد على تعجبها بما حرث في حقول قلبها وأذاب جليد دمها لتسمع خريرهُ في جداوله) تبقى لكِ باقي عمري."لحظات وبدا الموسم الأخضر وتَكَلَّلَ الشجر بالزهر في جسدها، لترد عليه بربيع مبهر خاطف للأبصار وبأرض تحمل في رحمها ما تنتظره المخلوقات عقب غيثٍ بعث فيها الروح:

- أنت الشخص الوحيد الذي أحس أمامه بأني حرة طليقة.

تناولت يده وشدتها بلهفة دون وعي شاخصة البصر وهو يرد عليها:

- وأنا لا أعرف ما الذي يشدني نحوك، أهو القدر، أم الجنون؟!

سحبت يدها من يده بسرعة وغطت عينيها، فانهمرت على خديها متلألئة دموع الحب الأولى التي سرقت الكحل من عينيها لتشق جدولين أسودان في وجنتيها وهي تقول:

- أخشى أن يخوننا الزمن وأخاف التعلق بك.... و... وأخاف من غدر المشاعر، إنها لا ترحم.

وقفت، سلبت الريح غطاء شعرها، وقف، دنا من الغطاء وتناوله ثم مسح به دموعها وراحت الريح تعبث بشعرها المكتسي بسواد

الليل، فتفرش خصلة على وجهها، وتحاول جاهدة اقتلاع ما تبقى. ومضت الرياح ترقص مع طيات فستانها على عزف خشخشة أوراق الشجر وألحان الطيور العابرة إلى مقاصدها. جمع باسل خصلة الشعر الذي غطى رياض وجهها ودسه خلف أذنها ليصفو ذلك الوجه البديع. هذا المنظر الشادي للروح زاد دم باسل تدفقاً، إذْ وقف عاجزا أمام ملكوت حسنها، فاحتضنت يداه وجنتيها وراح يطمئنها:

- أنا صادق بمشاعري، وأعي تماماً ما أقول. لقائي بك، مؤخراً، جعلني أعيش في حالة سكر، ولم أفق من نشوتي حتى الآن.

نظرت في عينيه، وقالت:

- كانت نظراتك سحرا، وعاصفة أخذتني إلى مكان مجهول، وهذا ما كنت أخشى أن يحدث في يوم من الأيام! وها قد حدث وها أنا واقعة في شباكك.

تناول يدها وبدأ يمسحها، عساها تشعر بالأمان، وقال معترفاً:

- بل أنا من وقع في شباكك، أحسُ أنك خلقت كي تكوني لي. فلا تخافي، لن أتخلى عنك حتى لو تخلت السماء عن الشمس.
- نفس الإحساس الذي غزا قلبي عندما لقيْتك بعد رجوعي من المدينة. لقد غادرت المكان، وأنا أردد عبارات الخوف من الوقوع في مصيدة الحب، وها أنا ذا أحب.

عاد ليجلس على إحدى الصخور فجلست بجانبه، ثم رفع رأسه وهو يستعرض تارة ذرى الجبال السامقة وتارة الأعشاب الطبية التي تنمو في الجبل وقال:

- مشاعرك الصادقة تجعلني أكثر تشدداً نحوك.

وفجأة، تنتبه وترتعد وتقول:

- يا إلهي، إن الوقت قد سرقنا، ويجب علي أن أرحل.

نهضت في عجلة. نهض معها وحاول تطمينها بأن الوقت مازال مبكراً.

عبرت عن خشيتها من عودة أبيها إلى المنزل وهي في الخارج. أراد لقاءها غداً. قالت له بأنها ستكون في زيارة عائلية مقترحة منتصف نهار بعد الغد حيث يكون والدها في المدينة. بادرها بأن يكون اللقاء في هذا المكان. قالت له بأن ضفة النهر أقرب من قمة الجبل، استحسن الفكرة ليكون لديهما متسع من الوقت للحديث.

***

اختلت سعاد بأمها، وبعد أن جلست إلى جانب والدتها السيدة كريمة الكريمة بمشاعرها وعطاء قلبها الطيب من حب للآخرين وعطف على الضعفاء، وقالت لها:

- لقد التقيت يا أمي باسلاً إنهُ شهم وشاب عظيم يعول عليه عند الحاجة، انهُ جميل ولطيف وشاعري أيضاً، التقيت به أول مرة على ضفة النهر، ولم يتسلل إلى قلبي غيره، والتقيت به مرة أخرى في السوق، كان يبيع البن، حقاً إنه مكافح ورائع ولا أخفيك يا أمي. لقد التقيت به اليوم في الجبل أيضاً، وكم أسعدتْني لقياه.

وقفت الأم وأنشأت تقول بصوت خافت:

- اسمعيني جيداً يا ابنتي، باسل له سمعة طيبة في القرية. وهو من بني عمكِ. لكن ينبغي عليك توخي الحذر، ولا تخبري أحداً بما حدث معك. يجب أن تكتمي الأمر وتخفيه عن والدك كي لا يغضب ويعاقبك، وعليك أن تدركي معنى اختلائك بشاب غريب. حتى وإن كان من بني عمك، فهو يظل غريباً وألسنة الناس لا ترحم. جهنم الأرض هي الألسن. وسيكون لنا حديث مع أبيك في حالة ما إذا تقدم لكِ، (وراحت تسأل أبنتها بشغف وكأنها راضية عن هكذا لقاء مع باسل الذي تكن له الاحترام والتقدير لأخلاقه العالية، أو أنها تشعر بما تشعر به ابنتها

من حب حرمت منه مع شريك حياتها ذلك الرجل الجاف الحاد الطباع السيد نذير) هل قال لك أنه يحبكِ؟
صمتت سعاد ملياً وأحمر وجهها خجلاً ثم، قالت:
- هذا واضح من طريقة كلامه، تواعدنا باللقاء بعد غد عند ضفة النهر.
أردفت الأم:
- عليك توخي الحذر، الزمان يغدر أحياناً، فنحن ملك الظروف وليس العكس. هو شاب رائع وقد تربى معنا. أنتِ سعيدة الحظ إن كان من نصيبك. (تقول هذا حبا بضمان حياة ابنتها مع من تحب بالتراضي وليس بالإكراه، ولكنها تخرج عن السياق لتحذرها أكثر من مرة من العواقب وتتابع نصحها لها...) كوني حذرة لا أريدك فريسة على موائد اللئم.

***

في صباح اليوم الموالي، استيقظ باسل وبَرِحَ المنزل إلى عمله وبدأ البيع كعادته. لاحظ هو وتامر أن كثيراً من الشباب العاطلين عن العمل في القرية شرعوا في بيع البن والشاي ولم يتقدم أي زبون نحوهما حتى زبائن تامر الأوفياء طيلة مشواره التجاري المتواضع. وكأن في الأمر سراً بدأ تتضح لهما معالمه عندما وقف أمامهما العمدة برأسه الجاثم على رقبته العريضة، رفع حاجبيه المتصلين ليرمقهما بنظرات حادة منبثقة من عينين محمرتين، ضرب عصاهُ على الأرض وتحرك وهو يرسل إليهما ابتسامات خبيثة من فمه الواسع، تابع مشيه إلى محل أبو حميد القصاب. مسح على كرشه المتورم شحما، وألقى التحية بصوته الأجش المعهود، ثم قال:
- خمسة كيلو من اللحم.
ارتبك القصاب وحاول إخفاء بعض اللحم الصافي وإظهار العظم والشحم وهو يقول بتوتر:

- خمسة كيلو، أليس بالكثير يا عمدة؟!
- تريد أن تحاسبني على كل ما اشتري؟!
- ما عاذ الله، ولكن... ولكن كما تعلم، لم اذبح اليوم سـ.. سوى خروف واحد ومن المستحيل تلبية طلبك، خـ...خـ...خـ...خمسة كيلو... آسف يا عمدة.
- رفع العمدة صوته قائلاً:
- ماذا؟! ماذا قلت؟ أعد ما قلت؟ (يقرب أذنه نحو فم القصاب بأسلوب هزلي)
- كل يوم تشتري مني ثلاثة كيلو من اللحم الصافي من دون عظم أو شحم، بنفس السعر، وهذا فوق طاقتي... إن أردت اللحم بشحمه وعظمه سألبي طلبك.
- أتقول هذا الكلام لعمدة القرية؟!
- لا... أقول هذا الكلام لزبون... مثله مثل غيره من الزبائن.

همهم... وهو يهز رأسه:

- العمدة أصبح في رأيك مجرد زبون لا أكثر... شيء جميل.

بحدة ودودة:

- سيدي العمدة! أنت تأخذ مني اللحم وأنا آكل الفول مع أولادي. والله لولا أني مصاب في العمود الفقري، لعملت فلاحاً بدلا من قصاب، أنا لا اكسب الكثير، أنظر (يشير نحو معاونه) لدي عامل هنا يساعدني على ذبح خروف واحد ويتقاضى مني راتبا معتبراً لقاء يومه، نعم، وكأنه يعمل طوال اليوم برغم من عمله معي من الصباح حتى الظهيرة.... (وتابع أبو أحمد القصاب تباكيا على أطلال العمدة الذي رد عليه موضحاً نواياه المسبقة):
- أنا أحميك وأحمي أهالي القرية..

هنا خرج القصاب عن طبيعته المعهودة بالتودد والاستجداء وقال بصراحة غير متوقعة من شخص مثله:

- وإذا قلت لك بأني في غنى عن هذه الحماية التي تزعم توفيرها لنا... (والله، نحن لا نحتاج إلا للحماية منك أيها الذئب الضاري!) هذا ما قاله القصاب في سره.

"أنت لا تستحق الحماية أيها الوقح" قالها العمدة ثم رفع عصاه وضرب القصاب على رأسه. هنا ترك باسل كل ما في يده واندفع بقوة للدفاع عن القصاب، اصطدم مع رجال العمدة الثلاثة، انسحب العمدة وترك رجاله لخوض المعركة. توقف على أثرها البيع والشراء ونشبت جلبةُ في السوق، بدأت تتشكل حلقة دائرية كبيرة حول المتعاركين. وإن كان تامر قد وضع نفسه في أهبة الاستعداد لمؤازرة باسل، إلا أنه لم يتدخل لأنه على ثقة بأن صديقه يتمتع بقوة تمكنه من سحق رجال العمدة حتى لو كانوا أكثر منه عددا. ضربهم ضرباً مبرحاً فلم يستطع الأهالي أن يكتموا فرحتهم وقد سرهم وهم يرون بأم أعينهم شوكة العمدة وهي تتكسر أجزاء صغيرة في ساحة السوق. فعل باسل ما يود كل واحد منهم صنعه. احتضنه تامر وقال له: أنا لم أتدخل لأني واثق من قدراتك، ولو بدأت تضعف لوجدتني أقاتل معك. أجابه بأنه على ثقة من ذلك. بارك له تامر، وشقا طريقهما من بين اللَّمَّة ليجمعا ما تبقى من البضائع مقررين عدم العودة للعمل في السوق والبحث عن عمل آخر.

كانت أخبار المعركة قد انتشرت في جميع أرجاء القرية. وقبل وصول باسل إلى منزله، وجد أمه وقد استبد بها القلق عليه، تمشي دون وعي باتجاه السوق للبحث عنه. فهو مازال صغيرا بناظريها مهما كبر، أمسكت بيده وهي تقول له: "ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه؟" وراحت تتحسس يديه ووجهه وهو يطمئنها أن مكروها لم يصبه، مؤكدا لها أنه سحقهم جميعا. بالرغم من خوفها الشديد عليه، إلا أنها شعرت بأن نبيلاً ما زال على قيد الحياة، فقالت في سرها: "كأنه نبيل، بل إنه هو". رجعا إلى المنزل وهو يحكي لها تفاصيل المعركة، ظلت تسمعه حتى النهاية فعبرت له عن قلقها عليه، ورددت عبارة قالتها ذات يوم لزوجها لتزيد من

شجاعته بل هي على ثقة برجولته وقوته على قهر الظلم "متأكدة بأنهم أضعف وأجبن من أن ينالوا منك".

***

وكالعادة يمشي السيد نذير بخطوات متثاقلة ملؤها الكبرياء، ياله من رجل شديد حتى في حركاته التي تكاد تكون محسوبة، رأسه مأخوذ إلى مافوق رؤوس الناس من طوله المتناسق مع جسده، شعره الأبيض يزيده جاذبية الوقار لمن لا يعرفه. شاربه الخفيف أبيض متشح بالسواد يزيد من حسن طلعته بملامحه الجميلة. ملابسه الأنيقة تدل على سعة الحال، لا أحد يظاهي السيد نذير في القرية أو ما حولها في أناقته وعطوره. دخل على العمدة الجالس بتوتر في مقر عمله وهو يوبخ رجاله، سأله عن سبب المشاجرة وعبر له عن تضامنه معه. قال له العمدة إنه يرى ميلاد نبيل آخر، تطاير الغضب شرراً من عيني نذير. دب الخوف من ظهور نبيل آخر ينغص عليهما حياتهما. غاص العمدة في مستنقع التفكير العفن بالانتقام الكريه وتبادل الأفكار مع نذير حتى استقر على كيفية تكريس الخوف في أوساط الأهالي، بارك له نذير فكرته. أخذ العمدة معه رجلين شديدين وغادر القرية متوجها نحو قرية "الحراب". قابل عمدتها الذي رحب به ترحيباً يليق بعمدة وصديق وحليف. قص له قصة قرية "التوليب"، وقال له ماذا يريد أن يفعل؟ رحب عمدة "الحراب" بالفكرة كونها تخدم في جميع الأحوال مصلحتهما الشخصية وقال:

- تكريس الخوف في نفوس الأهالي فكرة جهنمية. من خلالها نستطيع السيطرة على الأوضاع ونتغلب على أصحاب العقول المتنورة، متى تريد التنفيذ؟
- اليوم عند المساء.
- جيد، رجالي سيكونون في قرية "التوليب" عند العشاء، ورجالك يكونون في قريتي بعد غد في نفس الوقت.

- اتفقنا.
- أخبر رجالك أن يهاجموا رجالي بعد إحراق جزء كبير من المحلات ويخوضوا معركة معهم لفترة وجيزة فقط. وسأنبه رجالي أن ينسحبوا بعد لحظات من بدء المعركة.

***

عند المساء، تعالت أصوات أهالي قرية "التوليب" منادين بعضهم البعض للدفاع عن قريتهم، دب الرعب في قلوب النساء والأطفال. خرج الأهالي يركضون نحو السوق المتأجج نار، انصب اهتمام البعض على إخمادها، والآخر شارك رجال العمدة المعركة. النساء يتمتمن بأدعية لعودت أهاليهن سالمين، فاحتمال الأصابة أو القتل لكلا الطرفين أمر وارد في أي لحظة. لذا، اختلطت الأدعية بشهقات وسكرات المجهول القادم. هذا أثر على أطفال مصعوقين بكاء ورعباً ورعشات حول كل أم. جلجلة المعركة والمعمعة التي يطلقها المعاركين بقصد زيادة الهمة القتالية ورعب العدو تخترق شقوق نوافذ المنازل القريبة وتذهب بالأطفال إلى ما وراء أسوأ مذهب. بعد دقائق من الأشتباك، فر المعتدون وظهر العمدة ونذير وبيديهما العصي وقد أصبح العمدة رمزا لحامي القرية. أنه بطل... رجل يعتمد عليه... دافع رجاله عنا ببسالة... حامي الديار... صاين العرض.... "هذا ما كان يردده الأهالي بعد فرار الغزاة وإلحاق الهزيمة بهم". أوقد الأهالي النيران في ساحة مخصصة للحفلات، واحتفلوا بهذا الانتصار على شرف بطلهم العمدة ورجاله. عاد باسل وتامر بعد المعركة التي شاركوا فيها غاضبين من حماقة الأهالي الذين جعلوا من العمدة المعروف بتاريخه الإجرامي بطلا ورمزاً لا مجرد خبيث يُسربله الجُبن حتى أذنيه.

في اليوم التالي، تأكد لعدة أشخاص ميول ذلك النصاب الغاصب للأرض ورجاله حين فرض رسوم حماية على الأهالي ضد أي عدوان مستقبلي. ادعى العمدة إن هذه الرسوم مجرد معاشات

للرجال الذين يدافعون عن ممتلكات الأهالي. رحب الجميع بهذا الأمر خوفا من تكرار ما حدث، وكان أولهم أبو حميد القصاب الذي قدم اعتذاره للعمدة وذبح شاة أمام مقر عمله ووهبها هدية له ولرجاله.

***

في منتصف النهار، ذهب باسل إلى ضفة النهر وانتظر لوقت من الزمن، قضا الوقت في محيط قلب من نبضات، واندفاعات ارتجالية. الإعصار أمامه لا شيء، الفرار من المجهول عودة نحو المعلوم، ها هو على حافة درب الأمس المتوشح بالغد. تظهر سعاد، وقف يحييها:

- طاب يومك عزيزتي.
- ظلت صامتة لبرهة حتى استرجعت أنفاسها، وردت عليه:
- طاب يومك أيها البطل!
- هل علمت بتلك المعركة؟ "وكأنه يتباهى أمام مملكة أنتِ"
- علمتُ أنك هزمت رجال العمدة.
- هذا شئ بديهي، هل عندكِ شك في ذلك؟! "يزداد طولا وعرضا وكأنه فارس من ريح".
- أنا على ثقة بأنك لهم بالمرصاد.

فرشت وشاحها على الأرض وجلست قربه وأرجلهما تتدلى في الماء وقد خيم عليهما الصمت لدقائق ليموتا هياما بالطبيعة التى هي في الواقع مرآة لوجهيهما. تبصر وجهها في مرآة الحياة نهراً مخدراً بالسكون، ويبصر وجهه في مرآة العمر رياضاً في حالة تتداخل مع نهرها. الصمت يُحييهما تحديق تارة إلى النهر المنساب بسكينة وهدوء، وتتدلى نحو الماء أعشاش العصافير التي تنسجها من الأعشاب الخضراء على الأغصان المعلقة، وتارة إلى الجبل الذي تفجرت من بين طيات معطفه الأخضر

عيون من المياه العذبة المتساقط بعضها فوق بعض لتفصل الجبل من النصف بشلال تذهب مياهه إلى ما وراء سلسلة الجبال. فجأة، توقف عن التحديق وغارت نفسايهما منهما، ليرحلا إلى دنيا الهيام، ويحطا في عيني بعضيهما، من وراء الابتسامات تمرد على النار بنار، ثورة عشق عارمة على العشق، روح تخرج مع كل نفس وتعود ارواحاً. أوشك الهواء على توحيدهما، ارتجف ردة ليدنو نحو ماء النهر، كتب بالسبابة اسم سعاد، ولكن سرعان ما كان يتلاشى فتمحوه صفحة الماء، يقول بقلق:

- أخاف أن يغدر بحبنا الزمان ويحرمنا من بعضنا.

مسحت على رأسه وقالت بنبرة فيها الكثير من الجدية:

- أترى ذاك الجبل يا باسل؟ حتى وإن وقف أمام حبنا لنقبت فيه طريقا للقياك. تأكد ياتوأم الروح بأن القدر سيمد لنا يد العون مادمنا مخلصين، ونستمد قوتنا منه. يجب علينا (تتفاعل في كلامها...) أن نتذكر دائماً أن الكون مبني على أسس لا يمكن تغييرها ومن ضمنها الحب، فلولاهُ ما عاش بشر على ظهر الأرض.

رفع عينيه إلى السماء وتمتم:

- "يا رب، اجعل هذه الفتاة قدري الأول والأخير. (ثم التفت إليها مبتسماً وتابع...) لم تقولي لي يا وردتي، منذ متى كانت الورود تعمل في نقب الجبال؟!

بادلته الابتسامة قائلة:

- منذ أن رأيتك أيها الجبل...

صمت للحظات، ووجه ناظريه إلى شجرة التين على يمينه وهو يتأمل عصافير تقتات على الثمار، ثم أزاح ناظريه قليلا ليرى طيور الطنان تمتص الرحيق بمناقيرها الطويلة من على الأزهار الأنبوبية، أدار وجهه إلى وجهها وقال:

- سبحان الله، إن لك وجهاً لا مثيل له، وكأنكِ خلقت لتكوني أجمل ما في حياتي.

مد يده نحو شعرها، وهي تحدق في عينيه شاخصةً حباً واعجاباً، وأخذ خصلة منهُ وبدأ يداعبها، فقالت بصوت خافت:

- سبحان الله، بالأمس كنا أطفالا يجمعنا الحب الفطري ولا نعرف شيئا عن معاني الحب سوى أننا نشعر به دون معرفته.
- حبنا امتداد لبراءة الطفولة.
- هو القدر أيضا، كتب عليْنا أن نكون حبيبين ومن ثم عشيقين (وضع خصلة شعرها على شق وجهها الأيمن، وهي تتابع ...) والدليل إني أحب تامر كأخ وصديق وأكن له الاحترام ونحن كنا على مركب واحد، و......

كلامها جعله يقاطعها ليسْألها:

- أذا، لمَ فضلتني وكنا جميعا رفقاء طفولة؟
- لا أدري، وجدت نفسي بين يديك، وأرى كل شيء فيك جميلاً... ولو عدت لصغري وعرفت معنى العشق لقلت لك من يومها "أني أعشقك".

ابتسم في وجهها وبدا مقتنعا بما قالت، ثم انتقل لما هو أهم:

- لم نتبادل حتى الآن عطر الحب؟!

قالت باستغراب:

- ماذا تقصد؟!
- كلمة "أحبك".
- وماذا تنتظر إذن؟

حاول تعطير مسامعها بكلمات من سَّدَم. يغمض عينيه ويزداد حماسة، استشعر أنه زود بطاقة لا يدري من أين اندفعت إلى فمه. أسمعها ما استطاع...... يصمت لبرهة من الزمن، يجمع ما يقدر على جمعه ونضمه من كلمات عشق ثم يستأنف تلوها حتى ارتبك وتلكأ... فتح عينيه بعد عجزه عن مواصلة ما بدأهُ، فوجد سعاد تضع يدها على خدها وكأن قولهُ رفعها إلى عالم غير معلوم، لتبتسم إعجابا. بادرها ليخرجها من ذلك العالم:

- حاولت أن أكون شاعرا للتعبير عن حبي لك.
- أنت كذلك... أنت كذلك..
- أهذه مجاملة؟
- كلا. كلامك العادي معزوفة بالنسبة لي.
- لا أجيد نظم الشعر، لكن حبي أجبرني على الاجتهاد، وهذا ما أستطيع نظمه.
- لمَ تقول هذا؟ لقد قلت لي ما أذاب حنايا قلبي.

ضحك وراح يبرر عجزه، لكنه وجد نفسه يضحك بصورة جدية:

- لو القي شعري على مسامع الشعراء...(يسرف بالضحك) لقذفوني بأقلامهم، وربما يطلقون علي لقب "أفشل شاعر على الإطلاق".

قابلته بابتسامة تريد بها إصلاح ما قال:

- إذا كنت أفشل شاعر، فأنت أعظم عاشق على الإطلاق.
- صدقت، أفخر بكوني أعظم عاشق لأعظم فتاة.
- يا سيدي الشاعر الذي ادعى أنه فاشل، ماذا تقول عني لو علمت أني أتخيل حوارنا طيلة الليل وأحاول نظم كلام يليق بحبي لك واخفق. يا باسل، الحب مشاعر وليس كلمات شاعرية منظومة، فكم من شاعر متمكن هو عاشق فاشل لأنه يكتب لغيره ولا يأخذ الحكمة من شعره.
- أنتِ محقة، ولله إن في كلامك لحكمة.

تابعت:

- تخرج كلماتك من صميم قلبك باسمى أنا، وكلماتك الجميلة من أجلي، ماذا أصنع بشاعر كتب لعامة الناس وليس لي وحدي...
- آه يا سعاد... جعلتني أرى كل شيء من حولي جميلاً، حتى عملي الشاق أصبح كالمعزوفة، كصدى الناي، استمتع بكل ما حولي...(يرتبك في إنشاء الجمل ثم يتابع...) طاقة في جسدي، لا أدري ما هي؟ لا، بل رغبة

جامحة أو دفع يمدني بنشاط غير عادي ويقطع عني التنفس بين اللحظة والأخرى وأشرق على نشوة تأخذني مع هبات النسيم.

- إن كان الحب قد صنع بك كل هذا، فماذا عني أنا التي لا تملك مايتمتع به غيرها من قدرة على التعبير.
- لا أملك أي شيء ولست سوى فلاح فقير يعيل أمه، وإن كنت بعد حبك أحس بأنني الغني بك. الحب أنْساني مأساتي ومعاناتي، هذه أول مرة أذوق فيها السعادة الحقيقية لأن الحب علمني أنه لا فرق بين غني وفقير، وماذا عنك هل توافقينني الرأي؟
- بكل تأكيد أنت محق، ولكن هناك مشكلة أظن أني بدأت أعاني منها؟

سأل بدهشة، وقد تغير لون وجهه:

- ما هي؟! "توقع شراً ما"
- المشكلة تكمن في كلامك الجميل الذي زرع في صدري شجرة الصمت. إن كلامك هذا يجعلني أمتنع عن الكلام، أو بالأصح لا أقدر على الكلام، هناك ما يمنعني عن الحديث ويأمرني بالاستماع، فليس هناك أروع من صمتي واستماعي إليك.

تنفس الصعداء، وقال وهو منشرح الصدر:

- أنا أحب سماع صوتك العذب، إنك تطربين قلبي بكلامك الحلو. ولكنك لم تجيبيني على سؤالي، هل تشعرين بأن الحب قد غير مشاعرك، مشاعر امرأة هي ابنة أغنى رجل في القرية؟ وهل سبق لك وأن فكرت في فارق المادي بين الناس؟
- لستُ أنا من يفكر بذلك يا باسل، لقد أصبحت أكثر هدوءا، وأكثر حناناً من الأيام السابقة، أصبحت أحب كل شيء أمامي وكل شيء من حولي. تحولت إلى امرأة متعاطفة مع كل من حولي، وبشكل خاص أمي. هل

تتصور أني أحدثها بتغزل وأقبل يديْها كلما رأيتها. هناك شيء ما بداخل قلبي لا أستطيع أن أقوله أو أعبر عنه. إنه إحساس غريب لم يسبق لي وأن شعرت به، وكل ما أفكر فيه هو كيف أرضيك وأحافظ عليك، وكيف أمد يد العون لك. فأنت....(صمتت ولم تكمل للحظة ثم تابعت...) ولا يهون علي أن أراك في أزمة ولا أساعدك.

عرض مساعدتها أزعج باسل وما كان يتمنى أن تعرض عليه العون، رد على عرضها بعتاب المحب:

- لماذا لم تكملي؟! أنا ماذا...؟ ثم ما كنت لأستحق الحياة، وما كنت أستحقك لو مددت يدي لكِ أو لغيركِ، عزت نفسي هي العون عند الحاجة، اذا فقدتها ماذا يتبقى لي لأرفع هامتي إلى الأعالي عند التباهي؟

أرسلت شعرها بيديها ليستقر على ظهرها وقالت:

- هون عليك، فكل ما أردته هو محاولة إسعادك، لا إغضابك، لم أقصد.....

قال مقاطعاً:

- انسي هذا الكلام، وحدثيني عما تحلمين به. (قال ذلك ليجنبها الحديث الذي يجرح مشاعره ويخدش عزته)

أسندت ذراعها على كتفه لعلها تمحو ما أغضبه وأجابته:

- أعيش معك في هذا المكان على ضفة النهر ونبني لنا بيتا متواضعا من جذوع الأشجار.
- لمَ هذا المكان بالذات؟ هناك أماكن أكثر جمالا.
- لنا هنا ذكريات طفولية عذبة. كلما أجلس هنا أرى نفسي في سن السادسة.
- كما ابتسم لي القدر بك سيبتسم لي بتحقيق حلمك. "قال ذلك بيأس دخيل"

سحبت ذراعها وقالت له وكلها تفاؤل:

- أنت شهم ومكافح ولن تظلم في الحياة، تركض وراء رزقك باذلا جهدا جبارا والله يصطفي هذا النوع من البشر، أنت لست شابا اتكالياً. نعم، أنت مكافح في الحياة والمكافح في مرتبة المجاهد. "اعمل" أمرنا الله أن نعمل ووعدنا بتحقيق الهدف، الست مؤمناً بوعد الله؟!

أشعرته بقيمته ووضعته في مستوى عال. هذا زاد من تفاؤله في تحسين مستواهُ المادي الذي نزل إلى ما دون الصفر مرات عديدة. بكلامها هذا تشحن عزيمتهُ وأرادته أن يبذل جهداً أكبر وأن يسعى سعيا دؤوباً وراء بقعة ضوء تنير له دربه لعله يجد ضالته في زاوية من زوايا حياته.

أخذ نفساً عميقاً فتح كل شريانه، وبنظرات نحو السماء وكأنه يناجي ربه:

- ونعم بالله، إنه الحق، "لو اجتمع العالم على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك" يارب لا تردني فارغ اليدين من خزائن ملكك.

صمت باسل وعيناه مازالتا تمشطان وجه السماء، أطلق لِعَبْرتهِ سبيلها من شدة الخشوع في ذكر ربه. هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها باسلاً بهذا الخشوع وعيناه تتوقان بالدموع. اجتاح فكرها دهشة عابرة، دموع باسل!!! "هكذا قالت لنفسها"، عاشت طفولتها معه والآن تعيش العشق السرمدي بنظرها ولكنها لم تتوقع أن ترى ذلك الصلب المقدام المعروف برباطة جأشه عند كل طامة يدمع، تعرف أنه رقيق القلب لكنه كتوم وكاظم الغيظ، لم تعتد أن تراه منكسرا هكذا وكأنه شخص عادي، ترى فيه صفات الرجل القوي الذي لا يتأثر بمؤثرات دنيوية، بل يقاوم ولا يضعف. حتى في صغره كان يبغض البكاء، ما يحدث الآن لا يؤثر على علاقتهما إلا أن سعاد في حالة استغراب. فهي لا تريد أن تراه مكسور الظهر بسبب الفقر، وبالفعل هذا ما طرحته عليه:

- لا أحب رأيتك مكسور الظهر بسبب الفقر!!! أريدك أن تتخذ من الفقر متكأ لتصل إلى نهاية الطريق.

وجه ناظريه نحوها وهو يمسح ما أسبل من مقلتيه من دمع ورد عليها بصوت هادئ:

- لا تسيئي الظن بدموعي...
- لم أرى لك دمعة قط، حتى عندما كنت صغيرا، لا أذكر أنك بكيت يوما، يحمر وجهك عند الشدة وتكتم همك في قلبك وكنت ومازلت أقول "مسكين ذلك القلب كم يتحمل من عناء".
- أنت محقة، لم أضعف يوما، بل أقاوم وأصبر، صحيح أنك لم تري لي دمعة قط، ولكني جمعت بكاء عمري لأبكيكِ عندما رحلتِ إلى المدينة، أذكر أني بكيت حتى شعرت أن جسدي قد جف، وبكيت عندما مات أبي، وأبكي دائما عندما أذكر ربي بخشوع، ألا يجب على الإنسان أن يقف أمام ملكوت ربه باكيا؟
- بلا والله، ليت الناس جميعا يعرفون حقيقتك ويدركون حسك.

أستمر حديثهما عن مواضيع عدة لفترة من الزمن، وجاء وقت الذهاب. سألها، متى سيلقاها. ردت عليه، في الغد أو بعد الغد حسب الظروف. طلب منها كتابة الموعد في ورقة ووضعها تحت الحجر القريب منهما.

***

حقل ســـعد.... يحدهُ من الغرب حقل محمود...، حدود الحقول مرسـمة بعلامات حجرية فوق سـطح التربة كي لا يتجاوز أحد حدود الآخر أثناء الحرث والحصـــاد. قبل عام ونيف، تهاوت العلامات الحجرية لتحيد عن مكانها بســبب تمدد التربة الطينية لأن حقل ســعد منحدر نوعا ما. إدعى ســعد أن أرض محمود تمددت بأكثر من ذراع إلى أرضــه، رفض محمود أدعاهُ مؤكدا

أن التربة فقدت تماسكها بفعل التجمع المائي حول الأحجار الحدودية مما أدى إلى تهاويها. أما الأرض، فلم تتمدد. أحضر سعد عاملين وقام بترسيم حدود حقله كما يرى، تقدم ذراعاً في أرض جاره، جن محمود غضبا لهذا الانتهاك وخاض معركة مع سعد. ولم تنْته الأمور عند هذا الحد، بل تعدتهُ لتطال زوجتيهما فتعاركتا. في لحظة، تحول الجاران الحميدان إلى عدوين لدودين. كل واحد منهما يريد الفتك بالآخر. وكالعادة، تقف الغريزة البشرية بين الحق والشر والنفاق، كلٌ حسب مايمليه عليه فهمه الضيق للحياة. منهم من رأى أن لسعد الحق في الترسيم من بداية أثر الانهيار، ومنهم من يرى أن يذُرع الحقلين وحسب الوثائق ينال كل ذي حق حقه. ومنهم من يؤيد كل طرف عند لقياه على حدة. كان العمدة حاضرا من بعد المعركة، حيث أمر بغرامة مالية بسبب معركة الزوجتين استهجانا منه تدخلهما. عاين الموقع واجتمع بالخصمين وأمرهما بالتوقيع على وثيقة التفويض ليصدر حكمه بعد دراسة القضية والاطلاع على وثائقها، ومن ثم يُصادق على الحكم في محكمة المدينة ليصبح حكماً قضائياً نافذاً. وقعا على وثيقة التفويض... عند المساء، ذهب سعد إلى منزل العمدة وأهداهُ عنزة ليتقرب إليه لعلهُ يؤيد ما قام به، وكذلك فعل محمود، فقد أهدى العمدة كبشاً لنفس الغرض. مرّت أيام لا تخلو من المناوشات بينهما والعمدة يحّرر الحكم. وكلما أشتدت حدة المواجهة يذهب كل منهما على انفراد إلى العمدة ويقدم له الهدايا، مرة بيض ودجاجة، مرة لبن وسمن، وأخرى لحم أو عسل. على هذه الحال تمرّ الأسابيع وهما يزاولان عمليهما في الحقلين ماعدا ثمانية أذرع من كلا الحقلين حددها العمدة كخط تماس ممنوع الاقتراب منهُ أو زراعة تلك البقعة التي تفصل بينهما. كلما ذهب أحدهما إلى العمدة لاستيضاح نتيجة الحكم، يقول لهُ أن الحكم لدى المحكمة ولم تصادق عليه حتى الساعة لأن دورهما لم يحن بعد وعليهما الانتظار حتى يقوم القاضي

بعمله. بعد فترة زمنية طويلة قاربت الثلاثة أشهر، ضاقا ذرعا من الانتظار، لا يعرفان الحكم لصالح من، منطقة حدودية بينهما لا تزرع، هبات للعمدة لا تنقطع، تكاليف هذا الخصام فاقتْ التوقعات والمكابرة بينهما أدخلهما في دوامة العمدة، شهرا بعد شهر ولا حل لقضيتهما. مل الخصمان الذهاب إلى مقر العمدة. لجأ محمود إلى أمام المسجد الذي ذكره بحق الجار على جاره ومكانة الصلح والتسامح في الدين، وصار الأمام وسيطاً لحل الخلاف بينهما، اصطحب معهُ أستاذ المدرسة ليكون شاهدا ومساعدا لترتيب صلح بعد معارك ومناوشات وكره مقيت توغل في قلبين متجاورين. الصراع وصل إلى ذروته، فكل واحد منهما يسلك طريقا لا يسلكه الآخر كي لا يتلاقيا ويتعاركا. ولولا الغرامة المفروضة على من يتعدى خط التماس لتقاتلا على أرض النزاع. كلٌ يعمل في أرضه دون حديث مع الآخر. هذه الأمور جعلت الإمام يعتقد أن سعداً لن يتنازل عن مطلبه لما عُرف من تطرف طباعه. عندما ذهب إليه بصحبة الأستاذ وبعد محاظرة في الدين والأخلاق وجدا سعداً مقبلاً على الصلح. فقد مل هو الآخر حكم العمدة الذي لم يولد حتى الساعة. هذا ما كشف عنه بعد معرفته أن عدوه يرغب هو أيضاً بالصلح وعودة المياه إلى مجاريها. بترتيب مسبق، اجتمع الإمام والأستاذ مع الخصمين في المسجد بعد صلاة العشاء، القى الإمام على مسامعهما موعظة وكرر ما قاله لهما سابقا وجاء دور الأستاذ ليذكرهما بالقيم الأصيلة لأبناء المنطقة وما يتسمون به من روح التسامح وسرد لهما معانتهما جراء ما حدث وخسارتهما التي فاقت ثمن الثمانية أذرع، وأنهما لو قبلا بالحل الوسط منذ البداية وتسامحا لما خسرا الكثير. بان الندم عليهما ونطق محمود بما سر غريمه إنه مستعد بالقبول بما أراد جاره وترسيم الأرض في أرضه بذراع كما أراد سعد في البداية. رد عليه سعد "ما دمت كريما فلن تكون أكرم مني، أنا من يتنازل عن الذراع".

دعا لهما الإمام وأصدر حكمه بأن يُقسم الذراع بينهما حيث لا يتضرر أيٌ منهما ولا يظهر أحدهما باوجه المهزوم أو المسلوب امام الأهالي. حكمُ مرضيٍ للطرفين، تصافحا ولعنا الشيطان رأس الفتنة. في الصباح، ذهبوا جميعا إلى مقر العمدة ليبلغوه بالصلح. تفجر العمدة غضبا وسب الخصمين، وقال إن الحكم في المحكمة وهي الطرف المخول بقول كلمة الفصل، ثم أتهمهما بإحداث الفوضى وإقلاق مضجعه. في نهاية حديثه قال "لن يطبق إلا حكم المحكمة وتصالحكما لن يغير من الحكم حرفا واحدا". اعترضا، صرخ في وجههيهما، تدخل الإمام، نال مالم يحب أحد سماعهُ من العمدة، وكذلك الأستاذ، ثم أمرهما بعدم التدخل والانصراف من المقر. وفي سره، توعد الأستاذ والإمام. بعد أيام، اتفق سعد ومحمود على دفع ثمن بقرة للعمدة ليتركهما وشأنهما ويلغي الحكم الذي يعد مصدر ابتزاز لأموالهما. إجتهدا في جمع المبلغ وذهبا إلى العمدة، قدما له المبلغ على أنه هبة لقاضي محكمة المدينة المفترض مقابل إلغاء الحكم. قال العمدة بأن الأمر ليس بيده ولوكان كذلك لما أخذ منهما المال، إلا أن القاضي لن يلغي الحكم إلا بمقابل، فله تجربة مسبقة في التعامل معه... هكذا هو الفساد الذي يقوده فرد وأتباعه في مجتمع قليل العدد ومحدود النظرة. اجتمع فساد حاكم القرية وعادات سلبية منها مكابرة الأهالي لتكون النتيجة أموال مهدرة على مائدة العمدة الفاسد..

***

ذهب باسل للبحث عن عمل فاقترح عليه تامر أن يذهبا إلى الجبل لجمع الحطب وتسويقه إلى بيوت القرية. وإذا لزم الأمر يسوقه إلى القرية المجاورة حيث لا يصل نفوذ نذير، فوافق. انطلقا مباشرة نحو الجبل بعد أن اشتريا فأسين وحبلين. عمل الصديقان طوال اليوم في قطع الحطب، وجمعه وحمله إلى القرية وترويجه أمام كل بيت، لم يجرؤ أحد على الشراء منهما فانطلقا محملين

به إلى القرية المجاورة وباعا ما لديهما، وقبل مغيب الشمس ذهب باسل إلى ضفة النهر للتأكد من الموعد المحدد سلفاً. أزاح الحجر فوجد ورقة كتب عليها موعد اللقاء، وكان في منتصف نهار الخميس.عاد إلى المنزل، فوجد أمه قد أصيبت بحمى شديدة أوصلتها إلى الهذيان، وأصبحت لا تشعر بما حولها، نقلها إلى المركز الصحي الذي يبعد عن القرية بضع عشرة كيلومترات. وظل هناك معها حتى زالت عنها الحمى وعادت إلى صوابها، وغادرها هذيان المحموم، قفل بها راجعا إلى المنزل عند بزوق الشمس.

***

للكثير من النسـاء دور في مآزرة الرجال في الأعمال الفلاحية، كل زوجة تأخذ الطعام إلى مكان عمل زوجها عند الغداء، ولا يقتصــر الأمر عند ذلك بل يسـاعدن الرجال في بداية الموسـم الزراعي عند الحرث، ونقل أوراق سـيقان الذرة وجني بعض المحاصـيل الخفيفة أثناء الحصـاد. رجعت رومية من حقل زوجها، دخلت فناء منزلها فوجدت بقرة قد حطمت جزءاً من السور الخشبي وراحت ترعى من زرع الفناء. فار دم رومية، فهذة تعد من المحظورات ويجب على الآخرين مراقبة المواشي والبقر ومنعها من أكل زرع الأهالي، تناولت قطعة خشـب من الجزء المهدم للسـور وراحت تضـرب البقرة، ركضـت البقرة، تبعتها إلى خارج الفناء، تناولت الأحجار وراحت تقذفها. إبنة صفاء شهدت ضرب بقرة أمها، هرعت إلى أمها وأخبرتها بما رأت، غضبت الأم وذهبت إلى منزل رومية لتحتج:

- لمَ ضربت البقرة؟
- هدمت سـور الفناء، وأكلت الزرع. "قالت هذا وهي تشـير بيدها إلى السور والزرع"
- أتضعين عقلك بعقل بهيمة؟!
- كان يجب عليك ربط بقرتك، أو اقتيادها إلى المرعى.

- كان يجب عليك أخراجها لا ضربها.
- ظننتك أتيت لتري حجم الضرر.

تطور النقاش بينهما إلى ملاسنة ورفع الصوت، تهيأتا لخوض معركة، برمشة عين أنقضت صفاء على رومية، منظر مقرف ومثير للاشـــمئزاز، امرأتان تتعاركان!!! حدث هذا قبل زمن واستهجن الناس هكذا نوع من المعارك. فمن العيب في المجتمع الريفي أن تتعارك النساء، طولة اللسان أمر طبيعي، إثارة الفتن ممكن، القيل والقال فرض واجب على أغلبهن، أما أن تتعارك النسـوة فهذا فعل مستهجن. خرجت السيدة إحسـان من منزلها القريب من منزل رومية، أســـرعت إلى المكـان، وجدتهما يتعاركان، صـــرخت في وجهيهما لتكفا عن العراك، لم تعيراها اهتمام. ينظر إلى الســـيدة إحســـان بعين الأحترام والتقدير من جميع النساء. لذا، اضطرت لتناول عصا سقطت من يد صفاء خلال المعركـة وراحـت تظربهمـا حتى أنفصـــلتـا، رمقتهمـا بنظرات قد تكون استحياء مما بدر منهما، أمرتهما بادخول إلى منزلها قبل حضـــور الجمع. وفي المنزل وبختهما وعاتبتهما، وامرتهما باحتضـان بعضهما وأن تقبل وكل واحدة الأخرى، ثم طلبت منهما الخروج مبتســـمتين وهما تتحدثان أمام اللمة التى توافـدت على المكـان كي يموت خبر نشـــوب معركـة بين امراتيين، وحذرتهما أن العيب ســـيطاردهما إذا لم تدفن الفتنة. بعد العتاب واللوم أدركتا أنهن ارتكبتا خطأ لا يسمح به زوجهما فما بـالـك الأهـالي. خرجتـا وهمـا تتحـدثـان، الجميع يرمقهمـا بنظرات استغراب. تقدمت عليمة منهما وطرحت سؤالا حاضراً لدى الحضور:

- هل تعاركتا؟

ردت صفاء وقد وزعت ابتسامات جما:

- ولما نتعارك، ومن قال لكي ذلك؟
- الأطفال.

ردت رومية باستغراب مصطنع:

- إذا ناقشـــنا أمر دخول البقرة إلى فنائي نكون قد تعاركنا؟!
وهل يعقل أن نتعارك على خطأ بقرة؟!
شـــقتا طريقهما باتجاه الحقول وتركتا الجمع خلفهن بين شـــك المعركة واليقين.

***

زاول باسل عمله لساعات إلى ما قبل منتصف النهار بساعة، ثم انطلق مسرعا في اتجاه النهر للقاء سعاد. وبينما كان مارًا من أمام بستان الورود القريب من النهر، خطرت له فكرة بائسة بأن يتسلل إلى البستان خلسة ويقطف وردة كي يهديها للحبيبة. جل همه سعاد وكيفية إسعادها وإدخال البهجة والسرور إلى قلبها. لم يفكر أن الوسيلة غلط، لم يعد يعي تصرفه هذا اللامسؤول، إنه شاب مشهود له بالنبل ولم يسبق له وأن تسلل إلى أملاك غيره، أنه مؤتمن من قبل مرؤوسيه في العمل، يتسلق السور وكأنه المالك الشرعي غير مبال بعواقب ما هو مقدم عليه، دخل إلى طرف البستان فوجد كثيراً من الورود مختلفة الألوان. لم يستقر على رأي، أياً من الورود يقطف؟ وأياً من الألوان يختار؟ توغل في البستان وبلغ قلبه، وهو يبحث عن أجمل وردة يقطفها. قطف وردة حمراء كانت بضعة فراشات تحوم حولها. استدار نحو السور الأمامي وانطلق للخروج، وما أن تهيأ للتسلق حتى سمع صوتاً يناديه:

- انتظر أيها السارق، وإياك أن تلوذ بالفرار، لقد عرفتك.

إلتفت باتجاه الصوت وقد تجمد الدم في عروقه. استدار فإذا بالبستاني وابنه يرفعان عصيْين في وجهه. خفق قلبه وارتعدت فرائصه، وتصبب العرق من جبينه واحمر وجهه، ولم يستطع الكلام، وكأن الكلمات احترقت في جحيم لسانه.

بدت ملامح الدهشة على البستاني وابنه، بادر البستاني:

- تسلقت السور أم دخلت من باب البستان يا من كنت أعتقده أشرف شاب في هذه القرية؟ وقد خاب ظني فيك.

انطلق السؤال مثل صرخة وكأنه هزيم الرعد. لزم الصمت، ابتلع ريقه، قائلا في سره: "يا ويلي ماذا صنعت؟" بدا عليه الارتباك والتلعثم... قال ابن البستاني باحتقار:

- أيعقل أن يكون الفقر قد دفعك لمثل هذا التصرف المشين، يا من كان مشهود له بأنبل الخلال لصفات والكرم؟!

أجاب باسل وعيناه شاخصتان إلى وجهيهما متعللاً بأوهى الأسباب:

- أمي مريضة وقد أردت أن أهديها وردة ولم أكن....(يصمت ولم يعد لديه شيء ليقوله).
- ولماذا لم تطلبها مني إذا كان هذا بالفعل ما قصدته؟ (ثم تابع البستاني...) يمكنني الآن أن أحضر حبلا وأربطك ثم أسلمك إلى العمدة، ولكن لن أفعل إكراما لذكرى أبيك الطيب.

شعر باسل في تلك اللحظات بأقسى مشاعر الانكسار، وراح يمضغ على نحو اضطراري مشاعر ملؤها الذل ويبكي كرامة اندثرت على أرضية ذلك البستان ومازال الكلام لصاحب البستان بخشونة قائلا:

- يمكنك الآن مغادرة البستان، وهذه المرة من الباب، دون أن تتكبد عناء تسلق السور. ولا تنس أن تطمئنني لاحقا على صحة والدتك التي اعتلت لغياب الورد عن ناظريها.

بَرِحَ المكان وهو يتحسس ما بقي له من كرامة. بدا له بأنه قد فقدها من اللحظة التي ودّ فيها تسلق السور ومضى مثخن الجرح ينزف ندما وأسى.

على ضفة النهر كانت سعاد جالسة على وشاحها تنتظره، باردة الأطراف تحرك رأسها ذات اليمين وذات الشمال عساه يظهر بعد أن فقدت الأمل في مجيئه. زاد شعورها بالقلق والتوتر. وقفت وأخذت وشاحها من على الصخرة وبدأت تنفض الغبار عنه متهيئة للعودة من حيث أتت، وهي تحدث نفسها:

- لماذا لم يأت حتى الآن؟ مع أن الورقة قد أخذت من تحت الحجر، وهذا يدل على أنهُ على علم بالموعد. هل يعقل أنه

قد نسي موعدنا ؟!...لا...لا أظن ذلك... يبدو أنه تأخر في عمله. يجب علي أن أعذره إن كان تأخره لأمر كان مقضيا.
استدارت إلى الخلف، فإذا بها ترى شخصاً مقبلاً، لم تستطع أن تتعرف عليه لبعد المسافة بينهما. شيئا فشيئا اقترب باسل منها فاطمأن قلبها، وقال بصوت مضطرب محاولاً رفع رأسه المطأطأة:

- أعتذر لك على تأخري.
- لا تهتم المهم أنك حضرت، وأنت الآن معي، ولكن اشعر بأن هناك ما ينغص عليك حالك؟!
- أنا بخير، لا تقلقي بشأني.

أخرج الوردة من جيبه وسلمها إيّاها:

- تفضلي، خذي هذه الوردة.

قالت بغضب:

- هذا كل ما يهمك. أن تهديني وردة، وأنا أرى كل بؤس العالم يرتسم على وجهك. ما الذي حدث؟ أرجوك لا تخف عليّ، ألم نتعاهد على تقاسم الأسى قبل الأفراح.

تنهد بانكسار معترفاً:

- آه ... إنه البستاني.

بدهشة علت وجهها كالغمامة السوداء، سألت:

- وما شأنك والبستاني؟!
- تسللت خلسة إلى البستان لأقطف لك هذه الوردة، وقبل أن أتسلق السور سمعت صوتاً يناديني بأن لا ألوذ بالفرار. تسمرت في مكاني، وكأنني وتد مغروز، ثم سمعت وقع خطوات مع نداء أحدهم بأنه قد عرفني، (يحاول بلع ريقه لكنه يُخفق) ثم أنه ناداني باسمي، فاستدرت إلى الخلف فإذا بهما أمامي. قد أصابني في عمق العزة التي كانت تغمرني (يبعث زفرة انكسار تقطع أوصاله ثم يتابع...) في أوج عوزي وفقري وكانت سلاحي الذي ألوذ به من قهر الظروف وتعاقب الشدائد.

قالت بغضب:

- ومن قال لك أني أحب أن أراك بائسا مقابل وردة؟!

أجاب بندم:

- أردت أن أهديك وردة لأثبت لكي حبي.

أرسلت دموع الحزن من محاجرها وهي تقول:

- ألهذه الدرجة تحب المغامرة بنفسك من أجلي، وما كنت لأتمنى أن تجرح كرامتك من أجل الحصول على هذه الوردة. على أي حال، سأحتفظ بها كي تذكرني بهذا اليوم المشؤوم.

رفع يده يمسح بأكمامه دموعها التي كانت تذرفها عيناها وهو يقول ليخفف عنها وعن نفسه "على كل حال، تبقى هذه الورة أغلى وردة في هذا الكون".

قالت بحزن شديد:

- عليك أن تعدني قبل أن تجف دموعي بأن لا تعرض نفسك لمثل هذه المواقف الحرجة من أجلي. لا أريد أن يحدث لك مكروه.

قال بعد أن رسم ابتسامة مصطنعة:

- أعدك بأن أفعل أي شيء لإرضائك. أخبريني هل لديك الوقت الكافي لنتنزه حول النهر؟
- لا، لقد أتيت إليك خلسة لأراك وأرحل، ولكن الوقت قد سرقني وأخشى أن يكون أبي قد عاد إلى المنزل فيعاقبني.
- هل سنلتقي غداً؟
- إذا سمحت الظروف سأكتب لك.

استدار وصوب نظره إلى وجهها البديع قائلا:

- أنا سعيد الحظ لأني وجدت ظالتي بك. يعلم الله كم أحبك ولو خيروني لمت في الحال من أجلك.

برقة اليمام، ورأفة العصافير، وهدوء الرذاذ، وسكون الليل، وبراءة الرضّع، وضعت يديها على خديه وقالت:

- ما كنت لأتمنى أن تموت من أجلي، وأبقى وحيدة أكابد ما يخفيه القدر.

قال بانشراح:

- سأعيش لك يا قمري. هيا عودي إلى دارك، فإني أخشى أن توبخي.

سحبت يديها من على خده، ورجعت خطوات إلى الخلف، وناظراها في عيني حبيبها، تعثرت بحجارة فوقعت على ظهرها. فتح فمه لكي يصيح فإذا بالكلمات وقعت معها. قفز وجثا على ركبتيه ورفع رأسها وهي تتظاهر بأنها بخير. ولكن الألم في ظهرها ورأسها أكبر من كتمانها. تبسمت لعلها تخفي وجعها، أغمضت عينيها حتى تقضّب جبينها. تجعدات على وجهها الزبدي من شدة الألم وكأنها أمواج ساكنة على بحر صيفي يداعب نفسه، إدراكه لذلك أوشك على شل حركة جسده تدريجيا، لا يحبذ رؤيتها على هذه الحال الأليمة حتى وإن كانت بين أحضانه لأول مرة وكأن بين يديه مملكة فردوسية عاجزاً عن عمل شيء، لولا ألم السقوط لكن ذلك أجمل ما رأت عيناه فيها بتلك الوضعية الأشبه بلوحة رسم. هو جاثٍ على ركبتيه وهي بين أحضانه، موقف ليس بسْهل على أي كان من أبناء ذلك المجتمع، فتاة بين أحضان رجل. هي المرة الأولى التي يتسنى له حضن فتاته الأولى حتى وإن كان ذلك من باب الصدفة، حتماً الموقف صعب عليه، صحيح هو لم يخن مبادئه التي عرف عنها، ولكن يبقى الأمر غريبا ومثيراً لصدمة. لذا، فقدت الكثير من أعضائه الحيوية وظائفها، مثل الكلام والتفكير مسلما نفسه لما بداخله، هذا ينطبق أيضا عليها هي، نفس الشعور والذهول، لقد أصبحت اثنتين، فتاة تتألم وتتوجع بفعل السقوط، والأخرى مندهشة كاندهاشه، وما ينطبق عليه ينطبق عليها. لم تصل الأمور إلى هذا الحد بشكل مفاجىء بأن تكون بين أحضانه دون سابق إنذار أو ترتيب فكري وحسي لهكذا حدث، هي تجرأت على المصافحة وكذلك هو فعل، مسح دموعها أكثر من مرة،

وضعت ساعدها على كتفه. يعتبران نفسيهما قد تجاوزا حد العرف المعمول به، صحيح أنهما من بني العم إلا أن العرف يظل عائقا بينهما والمصافحة شيء مكروه وهي أقل ما يذكر.

***

2

عاد كل منهما إلى منزله. لم يكن أحدهما يعرف ما ينتظره. عندما كانا جالسين يتحدثان عند النهر، رآهما عماد ابن عمدة القرية. هو معجب بسعاد مثل غيره ويبقى إعجابه بها محدود وتتغلب عليه المصالح والتوجيهات التي يتلقاها من والده العمدة. هو شاب يبحث عن إشباع رغباته الداخلية والمادية معاً ولا يختلف كثيراً عن والده. كلاهما يتجه في نفس الاتجاه والفرق بينهما السنون

التي أكسبت الأب خبرة في القانون الشيطاني. وها هو اليوم يصب جل خبراته وأفكاره في رأس ابنه آمرا إياه بالتقرب من حليفه مستغلا المكانة التي يحظيان بها عند السيد نذير، وسبق لهما وأن اتفقا على المصاهرة ومزج دم الأسرتين. لم تكن الفتاة تعرف بأن أباها قد وافق على طلب العمدة وابنه، لهذا انطلق مهرولا إلى متجر المنتوجات الزراعية الذي يمتلكه والد سعاد وحدثه بما رأت عيناه بلهجة احتجاج. تَأَجَّمَ والدها، وكاد يفقد صوابه. ركض نحو المنزل وكأنه برق خاطف جاء ليفتك بكل من صادفه. دخل المنزل والشرر يتطاير من عينيه اللتين لا يعرف لهما لون. في تلك اللحظة، سألته زوجته عن سبب تغيّر لونه. دفعها دفعة قوية حتى سقطت وكأنها شاة هيئت للذبح. ركل باب مخدع ابنته، وبيده السوط. دنا منها، وقفت تحييه في ذعر، فرد عليها التحية بجلدات السوط، على كتفيها، وظهرها، ورجليها، عانقت السجاد تئن وتقول:

- ماذا.....ماذا صنعت يا أبي حتى تجلدني؟!

وجه سؤاله كنعيق الغراب:

- من ذلك الشاب الذي كان يجلس بجانبك على ضفة النهر؟

هنا وقفت منتصبة وبثقة قالت:

- أبي، لقد عودتني على قول الصدق (تحاول السيطرة على ألمها وكتم أنينها) كنت أريد أن أحدثك بالأمر (تصمت للحظة، بصعوبة ابتلعت ريقها الممزوج بدموعها المتسللة عبر شفتيها، تمسك بنفسها لتزيد من ثبات قدميها ثم تستأنف....) ولكني لم أجد فرصة للحديث معك.

سألها بغضب شديد وهو ينهال عليها بالسوط:

- ومن هذا الشاب الذي تجرأ وجلس معك؟ هيا تكلمي.

الضربات تزداد حدة، ردت عليه بكلمات متقطعة وهي تغطي وجهها بيديها:

- إنـ....إنه....إنهُ باسل.
- تجلسين مع باسل بائع حطب؟!

بحروف متقطعة كأنها تعتصر، ترد عليه:

- أبي...(تصمت وتتحسس مواقع قصف السوط...). إ .... إ .... إني .... إني أحبه.

صرخ كالوحش الكاسر:

- تلتقين الحقير بائع حطب، وتجلسين معه، وتقولين بأنك تحبينه؟

أسقطها أرضا ليستأنف جلدها، حاولت الاحتماء من جنون سياط العذاب، وكأن جروحها الطاهرة تسخر، تطايرت دموعها الكثيفة مع حركتها المصاحبة للجلد. وبما أن جو هذا اليوم دافئ، فإنها ارتدت ملابس منزلية عادية. وهذا ما زاد من شدة الإحساس بالألم.

- ياللعار!!! كيف سأواجه الناس وقد أهرقت كرامتي؟!

هنا بدأت السياط تمشط جميع جسدها أكثر وأكثر. جاثية على ركبتيها أمام أبيها، لا حيلة لها ولا سلاح سوى التوسل والدموع التي لا تجدي أمام جبروت القسوة وتوحش العنف:

- أبي أتوسل إليك أن ترحمني.

بصوت مشحون بالغضب الذي فجر مقلتي عينيه احمراراً:

- لا تلتقي به مجدداً.

تدافع عنه:

- إنه شاب لطيف، وطيب القلب، عزيز النفس، فيه شموخ الرجولة التي يعوّل عليها من غدر الزمن حين..(تمسك بقدميه، وبثوبه مرة، وأخرى تحاول فيها أن تغطي بيديها الناعمتين وجهها من لطمات وركلات الأب الباطشة، متوسلة مجددا:
- ألا ترحمني يا أبي؟!

يرد عليها بهذيان الثمل وهو يلهث من جهود الجلد:

- وهل رحمتني عندما أهرقت كرامتي في ساحات القرية مع ذلك الحطاب.

نجحت في الوقوف والهروب نحو زاوية بالغرفة، لحق بها، استنجدت بالوسادة لعلها تحميها مما أَلَمَّ بها وهي تقول مدافعة عن باسل:

- إنهُ من بني عمومتنا.
- لكنهُ تافه مثله مثل أبيه.

الأم مضطهدة ومقموعة، اليوم دفعها بقوة الرجل الخشن على الأرض، تعاني ألما شديدا من هول الدفعة المفاجئة، لذا، تدخلها تأخر نوعاً ما، السيد نذير متعود على استخدام العنف ضد زوجته. فكم من مرة سبق له أن خان رجولته واستقوى على امرأة لا أهل لها في هذه القرية. الاعتداء على النساء خيانة واضحة للعادات والتقاليد. فليس برجل من يمد يده على زوجته. أما السيد نذير الذي خرق المحظور ورأى أن الناس جميعاً عبيداً، ولو كان للسيدة كريمة أهل يعتمد عليهم ربما خفف ذلك من الاستخفاف بها. تدخلت الأم بإمساك يد زوجها التي تمسك السوط وقالت بذعر والعرق المتصبب من جبينه يمتزج بدموع عينيها من الخوف على ابنتها وعلى نفسها محاولة امتصاص غضبه:

- عزيزي، أرجوك أن تتفهم الوضع. هذه ابنتك الوحيدة وعليك أن تعاملها برفق ونصح. (يبدو أنها لم تحسن انتقاء العبارات التي تهدئ من ثورانه)

قال بصوت عال دوى في أرجاء المنزل:

- كيف أعاملها بالحسنى وقد أخطأت خطأ لا يغتفر؟!
- إهدأ يا عزيزي. لن يكون إلا ما تريد، دع الأمر لي.
- اسمعيني جيداً. لا لقاء بعد اليوم به، وإن خالفتِ أوامري فسينالك مني عذاب شديد، هل فهمتِ؟ "هكذا هدّدها"

ردت عليه بنبرة تحد:

- أبي... لا أستطيع أن أقطع علاقتي به، فهي بريئة لا تنغص عيش أي كان، (تشير لها أمها، تضع راحة يدها

على فمها لعل سعاد تفهم وتصمت، لكنها لم تبال وراحت تكمل ما بدأت...) ولا تخدش شرف أي منا، إنها مبنية على الطهر، ولا ينبغي سواه. فأنا أحبه، ("أنها الطامة، اصمتي" هكذا قالت الأم في سرها وهي تشير بيدها لابنتها لتصمت، وما زال الكلام لسعاد...) كحبي لك ولأمي لما يتسم به من حسن الخلق والمروءة.

صفعها وقد اغتاظ أكثر حتى كادت شحمة أذنيه أن تنفجر لما في نفسه من غيض وحقد موبخاً:

- أتعصين أوامري؟! أنا السيد نذير الذي لا يجرؤ أحد في هذه القرية أن يقول لهُ لا، تقولينها أنت؟! أيتها الوقحة....أنت لست ابنتي...نعم أنت وقحة...

ثم اقترب منها كالوحش وأنشب أظافره في خديها وركلها، فهوت على الأرض، نحو قدميه:

- لن أتوسل حتى لا تضربني كالمرة السابقة، بل أتوسل إليك بأن تتركني أركض خلف قدري، خلف وما رسمته لحياتي. "قالت سعاد"

توسلت الأم مجدداً لبعلها وهي تبكي لتضع حدا لعذاب ابنتها. انصرف الأب الغاضب وتوجه إلى المتجر.

***

جلس السيد نذير وقد أنساه غضبه كل شيء وأخرج من جيبه سيجارته ثم أشعلها وبدأ يدخن في صمت غير شاعر إطلاقا بمن حوله، وقد نزلت سحابة سوداء عليه غضبا لحاله وأضحى يسبح في بحر لجي لا قدرة له على تخطي أمواجه. وحين أوشكت سيجارته على أن تنفد، قال لعماد وهو يطقطق أسنانه:

- يجب أن نتخلص من باسل. تصور! لقد سيطر على ابنتي، ولكن ليس أنا من يقع في مؤامرة دنيئة. الكل هنا يكرهني لأني من أكبر أغنياء القرية، ولأنني أعود إلى سلالة كريمة، لا أحد هنا يحب لي الخير، كلهم حسدة،

والكل يتمنى أن تصل إليه أسوأ أخباري من هنا وهناك على طبق من ذهب. لا.... لن يحدث هذا، أقسم أني سألحقه بأبيه كي يكون عبرة لأهالي القرية جميعا.

بشحنة متوعدة، راح يشحذ خنجره. أمسك به عماد قائلاً:

- لا تقتله أنت، دع الأمر لي. عليك بإقناعه بالعدول عنها يا سيدي، وأنا بدوري سأبلغ الجيش بأنه لم يتقدم للخدمة الإلزامية وسيؤخذ إجباريا للواجب الوطني، ونكون بهذا قد تخلصنا منه ولو مؤقتا حتى ننهي ما بدأنا به.

ابتسم أول ابتسامة منذ سماعه نبأ الاختلاء، وقال مستحْسناً:

- فكرة هائلة. إذهب إلى أبيك، وأخبره بالأمر كي يرسل برقية للجيش بشأن الأحمق بائع الحطب، وأنا سأذهب للتفاهم وإقناعه بالعدول والابتعاد عن ابنتي، وتلقينه درساً بسيطاً جداً لكي يعلم أن الأمر ليس لعب أطفال.

***

خرج السيد نذير باحثاً عن باسل. فتش عنه ولم يجده، فقرر أن يبحث عنه في منزله. هرول نحوه كمن يريد أن يستبق الأحداث أو يسبق الزمن، ولم يتمكن من كبح جماح نفسه والتحكم في غيظه، أو أن يتريث ريثما يقبل الصباح، لم يعط لا للزمان حرمته ولا للمكان. كان يريد أن يصله في لمح البصر. و لَمَّا بلغه، بدل أن ينادي على أهله كما يقتضيه العرف أو يطرق عليه الباب، ركله أكثر من مرة وهو يصيح كالناقة عند ذبحها:

- أخرج أيها المنحط.... أخرج وواجهني إن كنت رجلاً.

فزعت الأم، وشعرت بالرعب لحظة ركله الباب وكأن عاصفة تعصف بكل شيء من حولها، وبارتباك دخلت إلى مخدع ابنها وسألته:

- من ذا الذي يطرق الباب بكل وحشية؟! يبدو لي أنك لم تخبرني بالحقيقة الكاملة عن سبب هذا البؤس الذي يغزو ملامح وجهك وحالك المتغير، لقد اختلقت لي قصة

الوردة والبستاني، والأمر أعظم من ذلك بكثير. ماذا صنعت اليوم يا ولدي؟ هيا أخبرني؟ لماذا لا ترد عليّ؟ إني أخاف عليك من بطش السيد نذير.

عض على شفتيه بشيء من الإحراج من أمه وقال:

- لا يا أمي، أظن أن سعاد قد أخبرت أباها لأنها تأخرت عندما كنا معاً عند ضفة النهر.

يزداد عنف الركلات على الباب، وكأنه يحاول كسرها.

- إذا، إنه نذير، سأخرج لهذا الجبان، بأي حق يتهجم على بيت له حرمته؟! "هكذا قالت الأم"

وقف باسل وهو يشتط غضباً من تصرفات حمقاء:

- لا تخرجي له يا أمي، أنا من سيواجهه. فوالله لو لم يكن ابن عم أبي لجعلته أضحوكة لمن لا يضحك.
- إياك أن تهرق كرامة رجل في سن أبيك وإن كان سفيهاً، فأنت ذو أخلاق رفيعة. "هكذا حذرته"
- إذا، لمَ كنت ستخرجين له؟
- أنا أعرف كيف أتصرف بعقلانية وأجرح بالعتاب وليس بمد اليد.

انطلق لفتح الباب:

- من الطارق بكل هذا العنف؟

فتح الباب، فوجد أمامه وحشاً هائجاً وجه له صفعة وأمسك برقبته وكاد أن يقضي عليه فقال:

- ألا تعرف من أنا؟!

كظم غيظه وقال بصوت مبحوح من شدة الحنق:

- بلا، أعرف من أنت جيدا.

بتكشيرة سأل:

- وإذا كنت تعرف، لماذا لا تبتعد عن ابنتي؟ أترغب في أن أقتلك؟ أيها الصعلوك المتشرد كأبيه. هل تظن أنك تنتقم مني بإغراء ابنتي؟

وجد باسل نفسه بين يدي نذير ولا حل لتخليص نفسه سوى استخدام قوة متواضعة لإزاحة يد خانقه. أمسك بمعصمي نذير وشدهما، شعر نذير أن قوة تكاد تخشخش معصميه، الألم بلغ أشده، أدرك باسل ذلك وخفف من قبضته، استدرك نذير موقف الهزيمة لشعوره أنه يقف أمام وحش، فقال بسره (كأنه نبيل، بل إنه هو) أزاح يديه من رقبة باسل، ثم وضع أحجيته:

- كيف تجرؤ وتقابل ابنتي، وتلعب بمشاعرها؟!

رد عليه وهو يكح محاولاً إقناعه:

- لم ألعب بمشاعرها. إن مشاعرنا صادقة، وكنت على وشك طلب يدها منك.

بغضب ولهجة توعد:

- وتقولها في وجهي؟!

هز باسل رأسه وقال:

هذه هي الحقيقة.

عض الأب على شفته قائلاً:

- سأريك ما لم يخطر على بالك يوما، وأحذرك إذا حاولت مرة أخرى لقاء ابنتي أو الحديث إليها فسيكون حسابك عسيراً، عليك نسيانها والابتعاد عن طريقها.
- قال بنبرة تحد:
- لن يفرق بيننا أي شيء سوى الموت.

استدار الأب إلى الخلف وهو يقول:

يبدو لي بأنك لست ممن يستمع للنصيحة، سأريك إذن.

صوت اخترق مسامع السيد نذير من الداخل:

- ماذا ستصنع بابني يا نذير؟ "أنها السيدة هديل تواجه من تتهمه بقتل زوجها"

تلعثم ووجد صعوبة بالرد وهو يحدق في عينيها، ثم تابعت:

- أهذه هي الأخلاق يا ابن الحسب والنسب بالتهجم على بيت ابن عمك؟! أوصلت إلى هذا المستوى؟!
- هديل، ابنك تعدى على شرفي. "هذا ما استطاع قوله"

- ابني أحرص على ابنتك من نفسه ولا أرضى له مخالفة الشريعة. وإن كان لك مطلب، عليك طرق الباب بما يقتضيه العرف.

صوتها إيقاع على أوتار شريان قلبه، لم يحسب حساب ظهورها ومحاججته، تذكر أحداثاً ما كان يريد تذكرها في مثل هذا الظرف، اسْتصغر نفسهُ أمامها. (يا لها من امرأة وعرة! يا الهي، كيف تهزم؟!) قال هذا سراً ثم عاد خطوات إلى الوراء وهو يقول لها جهراً:

- أفضل الموت على أن تمسح كرامتي با لتراب.
- نحن لعرضك صائنون، ابنتك ابنتي.

(ليتها كانت،...قالها نذير في سره،..) ثم انسحب بحرارة تجتاح جسده جراء ما قالته هديل. شق طريقه نحو متجره. وترك باسل في حيرة مما حدث:

تساؤله جعله يلتفت نحو أمه:

- ماذا حدث؟!

وكأن هديل أرادت التملص من تساؤل ابنها:

- أسئل نفسك، كم قلت لك بأن لا تقع في موقف محرج.
- أنا لم أفهم شيئاً!

حاولت التملص بجدية:

- أتصطنع الغباء؟!
- كان نذير يشتط غضباً، وعندما واجهته تحول إلى حمل وديع، ما السر في ذلك يا أمي؟!

أمرته بالدخول ومن ثم ردت عليه:

- رجل يقف أمام امرأة، ماذا تريده أن يفعل؟! حتماً يخفض صوته، هو لا يريد أن يقول الناس عنهُ جبان تهجم على امرأة، يريد أن يظهر بصورة صاين العرض وليس العكس، يجب أن يكن لي الاحترام شاء أم أبى لأني زوجة ابن عمه. أفهمت؟
- الآن فهمت.

ثم وجهت ناظريها إلى وجهه المصفر تارة والمحمر تارة أخرى، ونصحتهُ بحزن مدركة معنى خوفها وقلقها عليه، فهي تعرف مالا يعرفه:

- أرجوك يا بني! ابتعد عنها، فليس لي في هذه الدنيا سواك.
- لقد نعتني بالصعلوك والمتشرد مثل أبي، ماذا يقصد بذلك؟!
- سأحكي لك واقعة حدثت ذات يوم ربما تكون أحد أسباب الحقد الدفين.

جلس على الأرض في منتصف الحجرة تحت المصباح الزيتي المدلى من السقف. جلست أمه أمامه وأغمضت عينيها، وكانت عيناها قد تدفقت ينابيعها دمعاً حبسته لسنين فانهمر كوابل لا طاقة لأحد على توقيفه، وراحت تحكي له بعض الحقائق وتخفي عنه البعض الآخر:

- بعد أن خطبني أباك بشهر واحد، اشتدت حدت الصراع بينه وبين نذير ابن عمه الذي تحالف معهُ العمدة شقاقاً ونفاقاً من أجل مصلحته الخاصة المتمثلة في مساندة نذير لهُ بالعمودية وبقائه عمدة على القرية إلى الأبد. كان الحقد المتراكم والصراع المتواصل قد وصل ذروته، وأدى ذلك إلى شجار ونشبت معركة حامية الوطيس بين أبيك المقدام البطل ونذير الذي أحضر معه ثلاثة رجال أشداء مستأجرين من المدينة لمساندته وخوض المعركة معهُ، استظهر أبيك عليهم جميعاً وجعلهم مدرجين بدماء حتى ركضوا فارين كالقطط. وقد كنت حينها أشاهد الأفعال البطولية وأفخر بها حتى اني لم أستطع التحكم بفرحتي وزغردت لانتصاره على الظالم. في ذلك اليوم، لم يتدخل العمدة خوفاً من أن يضرب وتداس كرامته ويفقد هيبتهُ. كانت، وما تزال قدمه إلا تطأ آلا المكان الذي يعرف أن فيه مصلحة أو تأييداً لبقائه في منصبه....

قاطعها مستفسراً:

- ما سبب ذلك الصراع؟
- صراع شخصي بينهما أدى إلى تنامي الأحقاد.
- ما نوع الصراع؟

فتحت عينيها وقالت:

- الإستغلال والتنمر على المستضعفين، ثم... لا أدري كيف ... (ارتبكت..) هذا أمر لا يفيدك بشيء، أريدك أن تبقى بعيداً، (محاولة تمويهه بعجز...) يعد السبب الرئيسي للصراع وقوف أبيك رحمة الله، إلى جانب المستضعفين. لا أريدك أن تتصادم مع أمثال هؤلاء، أنهم مجرمون ينالون من الآخرين غدراً.

***

خيم الظلام بأجنحته على الكون، وعم الهدوء إلا من نباح الكلاب وهزيج صرار الليل، وعواء الذئاب أحيانا، كان نذير متواجد في متجره، دخل عليه عماد فبادره ببلج:

- أبشرك، لقد بعث أبي برقية إلى مندوب الخدمة العسكرية في المدينة، ووافاه بالمعلومات كاملة، بعدها وصلنا الرد من الضابط المناوب بأمر إرسال مجموعة من الجنود لأخذ هذا الوغد بالقوة لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية.

قال السيد نذير بسرور غامر:

- إذا، لقد قربت ساعته، هل أخبرهم أبوك بأنه متمرد، ورافض الانضمام إلى المعسكر؟

أجاب عماد مقهقها:

- نعم، لقد ذكر كل ذلك في البرقية، وقريبا تشهد ترحيله. ونكون بذلك تخلصنا من بائع الحطب بكل سهولة.

جلس نذير على كرسيه وضرب بيده على الطاولة وهو يقهقه كالقرد الذي به مس:

- لقد كفيتني عناء الانتقام.

قال مجاملاً:

- من أجلك أفعل المستحيل.

وضع نذير رجلا على رجل وأشعل سيجارة، وضرب الطاولة بقداحته، وهو يقول:

- لن يكون إلا ما أريد. الآن تستطيع أن تعود إلى منزلك يا عماد ونم قرير العين فلن ينغص على حياتنا وَغْد بعد اليوم.

***

هاهو الغد قد أتى، واستيقظت فيه الشمس، وخيوط أشعتها تنسج قميصا من الضوء، تلبسه الطبيعة الماسية الخضراء، فيشتد لمعان بريقها بفعل الندى. دخل عنيد على العمدة، وهو أحد رجاله المخلصين. كان العمدة جالسا وبيده المذياع الذي يعمل على البطاريات، كان يريدُ ضبطه على موجة الإذاعة المحلية، تحدث إلى سيده، أبلغه أن جميع الأهالي دفعوا رسوم الحماية سوى باسل الذي أوشك بالأمس أن يضرب من ذهب إليه، وأمر تامر بعصيان أوامر العمدة. هز العمدة رأسه ووضع عمامته على الطاوله، وقال بهدوء:

- إن باسلاً بالذات بحاجة إلى طولة بال، لأنه شديد، والشدة لا تجدي نفعا معه.

دخل نذير ملقيا التحية وجلس إلى جانب العمدة، أمر العمدة أتباعه بانتظاره في الخارج، بادره نذير وهو متوتر:

- ماذا عن باسل؟
- ألم يبلغك ابني عماد؟
- بلى.
- أذا ما وراءك؟
- أنا قلق بعض الشيء.
- لا شيء يدعو للقلق.
- مارأيك في أن تبعث بمذكرة إلى مديرية أمن المدينة تبلغهم فيها أن باسلاً من جماعة المخربين.

- إرساله إلى المعسكر أفضل من حجة انتمائه الى جماعة المخربين.
- لماذا؟
- باسل شاب ذكي وقوي ولا يمكن تمرير كذبة كهذه عليه. أشعر أنه الوحيد الذي يعلم أمرنا، ويدرك كل شيء من حوله.
- باسل شاب ذكي وقوي، همم، كم أنا أحمق... ذهبت إلى منزله وأنا غاضب وأوشكت على ضربه ولكنه لم يبد أية مقاومة سوى أنه أمسك بمعصمي بقوة، (تحسس معصميه وهو يتابع قوله...) حينها سمعت خشخشة وكأن عظامي تسحق، آه...(تنهد غيضاً) لا أخفيك يا عمدة لقد لازمني ألم وصرير طيلة الليل حتى تناولت شراب مخلب الشيطان، ولففتُ حول يدي كمادات الحُلبة، أنا أحمق، ماذا لو استخدم قوة مفرطة ضدي؟ ما كان ينبغي عليّ الذهاب لمواجهته.
- باسل لا يجرؤ على مواجهتك.
- ماذا تقصد؟
- أنت تعرف قصدي جيدا. أنت الوحيد الذي يخشاه، لأنك من بني عمه، ولأنه يخشى غضب ابنتك منه.
- أنت محق. "يهز رأسه مقتنعا بما طرحه العمدة"
- هذه نقطة يجب علينا استغلالها.
- كيف ذلك؟!
- أنت من يجابهه وتستغل فرصة احترامه لبنتك وصلة القرابة بينكما. أما أنا فعليّ التصرف من خلف الستائر.

***

دخل العمدة السوق يتبعه رجاله حاملين السلاح بعنجهيتة وهمجيته المعهودة، مرّ من أمام أبو حميد القصاب. لم يخف اللحم

عن العمدة، بل ترك الزبائن وهرع لترحيب به وهو يشير إلى اللحم قائلا:

- الخروف بأكمله تحت أمرك.
- أعط عنيد ستة كيلو من اللحم الصافي.
- تحت أمرك.

واصل العمدة مشيه بضع خطوات وتوقف أمام الحاج توفيق الخضري، ألقى نظرة على الخضار وقال بتسلط:

- هل كل ما لديك طازج؟

لم يرد على سأله، بل قال مرحبا:

- أنا والمحل تحت أمرك يا سيد القرية.
- كالعادة وزد عليها التفاح.
- أنت تأمر يا حامي الديار.

تقدم وأمر أحد أتباعه لأخذ الخضار والفواكه. أما هو، فدخل محل عتيق الحلاق. وكباقي أصحاب المحلات والبسطات رحب بالعمدة وأمر أحد زبائنه أن يترجل من كرسي الحلاقة والانتظار حتى ينتهي من تلبية طلب العمدة برغم أنه لم ينته من حلاقة رأس زبونه. جلس العمدة على كرسي الحلاقة، وضع عمامته على ركبته، أخرج الحلاق مقصه الخاص وأقسم للعمدة أن ذلك المقص خاص به وبأنه مصنوع في اليابان، هذا من أجل نيل رضاه. هز العمدة رأسه مستحسنا وقال في سره (منافقون، آه...ما أجمل العمودية على أناس أغبياء وجبناء يؤلهون من يدوسهم بنعليه وينقلبون على من يحب لهم الخير، كلكم عبيد، لو ضعفت أمامكم قليلاً لنهشتم لحمي كالكواسر على الجيف، همم...مقص صنع من أجلي في اليابان!! منافق... شكرا لك وكل من هو مثلك، نفاقك يبقيني سيدك!!!) شرع الحلاق بعمله وهو يتودد له بقصص ومغامرات حتى ولو لم تكن حقيقية بقصد إمتاعه وكسب رضاه ومودته.

***

تطاولت الألسنة، وضخمت الأشياء، عندما رأتْ امرأة سعاداً تمشي بصحبة باسل، استودعت الخبر عند صديقتها، والأخيرة استأمنت امرأة على الخبر مضيفة البهارات عليه، تطورت الإشاعات إلى حد الحديث عن الاختلاء والنوم. ليس مستغربا في هذا المجتمع مثله مثل غيره، سوى في قرية أخرى، أو في المدن. تطوير الإشاعات ووضع المساحيق التشكيلية. حتى أن هناك قصة خرافية قريبة من الواقع يتداولها الأهالي منذ القدم. قصة تتوارثها الأجيال كحكايات للأطفال. اصبحت مثلا يضرب عندما تتوسع دائرة إشاعة ما. "يقال إن والياً، أراد اختبار لسان زوجته. بعد تفكير معمق، اهتدى إلى فكرة البيضة. قبل أن تصحو زوجته من نومها، تسلل خلسةً إلى خارج الغرفة وطلب من مستشاره إحضار بيضة، عاد إلى غرفته وتظاهر بأنه نائم. عندما صحت زوجته، أفاق مندهشا وقد ادعى أنه باض بيضة. شككت، لكنه أكد لها ذلك. في نفس اليوم جلست زوجته إلى زوجة المستشار وأكدت لها أن الوالي باض بيضتين. بعد أيام جاء المستشار يعلم الوالي بأن الإشاعة تجاوزت حدها. طلب الوالي الإيضاح، فقال المستشار "الناس يقولون بأن الوالي باض ست مائة واربعة وتسعين بيضة"، هز الوالي رأسه متعجبا: قلت لزوجتي بأني بضت بيضة واحدة، فكيف تطورت إلى هذا العدد الكبير من البيض؟!!!" ها هي الخرافة تعيد نفسها. سعاد اختلت ووقعت فريسة من يفترض أنه سورها المنيع للقرابة الأسرية بينهما. هذة الإشاعة المطورة وليدة الساعة في منزل عليمة، فردت جورية مدافعة عن سعاد بلهجة حادة على جليستيها، عليمة وغادة:

- إخجلي يا عليمة من نفسك! أين ستذهبين من الله؟ وكيف ستواجهين ضميرك بعد خدشك شرف فتاة عرفت بالعفة والطهارة؟!

ردت عليمة مدافعة عن نفسها:

- هذا ما سمعته يا جورية.

- كذبت، أنت وراء كلام نجس لا يرضاه الله.
- لمَ تتهمينني، هذا مايقال، إسألي غادة.

ردت غادة مؤكدة:

- سعاد أخطأت ووضعت نفسها في فوهت البركان.

أنتفضت جورية في وجة عليمة:

- أقسم عليك برأس ابنك زيد، أن تقولي الحقيقة، من قالت إن سعاد مارست الرذيلة؟

طأطأت رأسها، انقضت عليها وكررت قسمها عليها، وبعد محاولة عليمة بالتهرب نطقت:

- هذا واضح من طريقة علاقتهما.
- إذا، لا أحد قال هذا غيركِ.

ظلت صامتة، فتابعت جورية كلامها القاسي:

- حتى وإن زعلت مني، لسانك سبب طلاقك، أبو زيد لم يطق هذا اللسان اللعين.
- أنت تهينيني في منزلي.
- بؤس منزلك، وبؤست الصداقة مع أمراة لا تخجل من نفسها، (ثم توجه كلامها لغادة..) وأنت، هل نسيت عندما أغمى عليك قبل الغروب في الوادي، وأفقت من الغيبوبة بعد حلول الظلام؟ ماذا قال عنك الأهالي؟ ألم يتهموك بما جعلك تفضلين الموت؟ ولولا العطار، لكنت في عداد الموتى، إذْ أكد للجميع بأنك كنت في حالة أغماء بسبب مرض ألم بك.
- ردت غادة بغضب:
- لمَ أنت حادة الطباع؟! هكذا أنت تنبشين في الماضي دوماً.
- ماذا لو أطلقت إشاعة بأنك كنت حينها على علاقة مع العطار الذي برأك؟

ثارت من مكانها رعبا:

- اتق الله يا جورية، لم أقصد ما فهمت، لا تقتليني بكلامك هذا.

- من منكن لا تتمنى أن يحبها رجل حتى الموت (تزيد من انفعالها في الكلام في لحظات صـــمت..) أنتن تحســـدن ســـعاد لأنها وجدت من أحبها وباح بحبه أمام الملأ. وما من رجـل يتجرأ ويجهر بحبـه في هـذة القريـة الجـافـة المشـــاعر. لذا، الجميع مســـتغربون، أتدرين لماذا؟ لأن المرأة تعـامـل وكـأنهـا مخلوق لإنتـاج الأجيـال والعمـل كخـادمـة فقط. لا تُعـامل على أنهـا مخلوق حســـاس لـه مشاعر، والنساء لا يُتستحقين إلا جفاف القلوب. باسل من أنبل الرجال. والله ما من امرأة إلا وتتمنى لو كان يحبها، وما من امرأة إلا وتتمنى أن يبادلها زوجها المشــاعر كما يبادل بـاســـل ســـعاد. ليت الجميع يتعلم منهما المعاني الحقيقية للإنسانية.

همت جورية بالخروج وهي تقول:

- لا أتشرف بصداقة من لا تصون عرض فتاة. غدا ستقع أحداكن في حفرة. حينها، لن يرحمها أحد.

***

ها هو باسل في انتظار تامر للاحتطاب إلا أن الانتظار طال وطال: "ما دهى هذا الشقي. أمازال نائما كل هذا الوقت". هذا ما كان يتمتم به بنزق ثم خرج يجول في الدار وخطوات عصبية ذهابا وإيابا والضحى تميل صوب وسط السماء، مل هذا الوضع وقرر أن يذهب إلى منزل تامر على غير العادة إذ يقتضي العمل أن يمر تامر عليه ويمضيان سويا للاحتطاب. وفي هذه اللحظة عادت الأم بعد مشوار إلى سوق القرية، سألت باستغراب عن سبب تأخره عن الذهاب إلى العمل كعادته:

- إنه تامر من أضاع عليّ هذا اليوم.
- لعله خير يا بني. فهذه فرصة لتأخذ راحة، فكم من وقت عصيب قد مرّ عليك هذه الأيام.

- أستأذنك بالذهاب للاطمئنان عليه، فأنا أخشى أن يكون قد أصابه مكروه يمنعه من العمل هذا اليوم.

وما أن تهيأ للخروج، طرق أذنيه دوي خبط على الباب. إنه دق غير عادي، فتح الباب بسرعة، ففوجئ بجنود، صاح أحدهم بصوت خشن:

- أنت باسل نبيل؟

أجاب وتساءل مستغرباً:

- نعم أنا هو. ماذا تريدون؟!

رد عليه أحدهم:

- لدينا أمر بأخذك إجبارياً لرفضك الالتحاق بالخدمة العسكرية، هيا تعال معنا.

قال باستغراب:

- ولكني وحيد أمي، ومن حقي الإعفاء من الخدمة العسكرية.
- هذا الكلام لا ينفعك في شيء ويمكنك قولهُ في المعسكر.

تذكر أمه وراحت صورتها تجول في خلده، فار الدم في وقال:

- ألا يمكن السماح أسبوعاً حتى أحضر نفسي؟

قال أحد الجنود بعناد:

- ولا لحظة واحدة. كما قلت الأمر إجباري وإذا لم تأت معنا طوعاً. سيتم أخذك كرهاً.

ابتلع ريقه بعسر وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- هل تسمحون لي بتوديع أمي؟

أجاب أحدهم:

- لك ذلك، وبسرعة.

شكرهم وعاد إلى أمه، بادرته هي. فقد كانت تتسمع للحديث الدائر من وراء ستار والدمع يسيل جارفاً:

- ألم أقل لك أنك ستدفع الثمن. (ثم حشرجت بكل انكسار وهي تقول...) الرحمة يارب، هل أرادت الأقدار أن أفقد ابني بعد أن خسرت زوجي.

ودع أمه، وخرج للذين ينتظرونه. وقف أمام الجنود:

- أتسمحون لي أيضا بزيارة صديقي حتى أوصيه بأمي خيرا.

أجاب أحدهم:

- إذا كان الطلب الأخير، فلا مانع من ذلك.

ذهب برفقتهم إلى تامر، فوجده مشغولاً بضيوفه، أوصاه بأمه وناوله رسالة خطية لسعاد. وعدهُ تامر بالقيام بالواجب وأنه لن يتردد أمام أي سؤال.

***

أيام مرت كأعوام على سعاد ولم تر باسلاً، لأنها منعت من الخروج، سنحت لها الفرصة سراً إلا أنها تعزف عن ذلك بسبب وجهها المسلوق كدمات وإصابات ناجمة عن ضربات سوط الأب. تعافت قليلا، خرجت، وقف أمامها تامر يتصفح وجهها المنكوب، عرف أنها عذبت، بصمت سلم لها الرسالة، تناولتها وهي تسأل عن أخبار باسل، أخبرها ما حدث وغادر متألما لحالها المأساوي. خبأت الرسالة في مكان عزيز وعادت إلى غرفتها مسرعة لتتعرف على ما تحمله في طياتها، فتحتها، وشرعت تقرأها. وبقلب يعتصر دما، ركضت وارتمت في حضن أمها وكأنها يمامة جلدتها الأمطار وأرعبها قصف الرعد وهي تكفكف دمعا لا تقوى على حبسه وراحت تشكو لها حالها:

- يخونني الحظ دوما يا أمي! ماذا جنيت؟ هل تظنين أن لأبي يدا في ترحيله؟
- أجابتها:
- بحسب علمي، والدك له القدرة على عمل أي شيء، إنه لا يرحم، قاسي القلب، هذا إذا كان له قلب. لك الله من بعده، تضرعي للرحمن أن يعيده سالما لأمه المسكينة، فلطالما كابدت الأهوال من بعد رحيل زوجها حتى تراه

اليوم رجلا يعوضها بعض ما حرمها منه قدرها المشؤوم.

- إذا سأسأل أبي عن هذا الأمر.
- إياك أن تفعلي ذلك يا ابنتي! لسنا بحاجة إلى المزيد من المشاكل. إنه طاغية، ولا يقدر عليه إلا الله.
- ولكني أريد أن أعرف الحقيقة.
- ستكشفها لنا الأيام، فلا تتعجلي سوف يأتيك اليوم الذي تعرفين فيه حقيقة ما حدث، (طرق على الباب قطع حديثهن...)، يبدو أنه طرق أبيك، إذهبي وافتحي له الباب.

نهضت وفتحت الباب وإذا بأبيها أمامها يصطنع لها شبه ابتسامة. اندفع إلى صالة الجلوس، جلس وابنته تنظر إلى وجهه متجاهله نصيحة والدتها، فهمت بالكلام قائلة:

- أبي!

قاطعها بخشونة:

- ماذا تريدين؟
- هل لي أن أسألك سؤالا، وتجيب عليه بصراحة دون أن تغضب؟
- هذا يعتمد على نوع السؤال.
- هل لك يد في ترحيل باسل؟
- وكيف وصلتك الأخبار بأنه قد تم ترحيله؟!
- الخبر انتشر ووصل إلى مسامعي.
- وضع ساقا على ساق وبفخر المنتصر أجاب:
- نعم أنا من أمر بترحيله.

صاحت في وجهه:

- كيف تفعل هذا وأنت تعرف أنه وحيد أمه؟! ألا تخاف الله؟! الرحمة يا أبتي ولا تنس أن الله رحيم يحب الرحماء.

تمالك نفسه ورد بهدوء على صوت ابنه العال:

- المهم أنك لن تلتقي به مجددا وهذا كل ما أردته.
- ولكن، هل في مقدورك أن تنتزع حبه من بين جوانحي.

هنا انتفض الأب بثورة حادة من الغيض ولم يعد بمقدوره كبح جماح التمرد على الصبر:

- كيف تتحدثين معي بمثل هذه الوقاحة. (أخذ كوب الماء ورماه على الحائط، وتناول عود الثقاب وقذفه في وجه ابنته وهو يتوعد...) ستكون نهاية حياتك على يدي إذا لزم الأمر. أتفهمين ما أقول أم أنك تدعين الغباء؟!

صرخة الأب أفزعت الأم فقالت مقاطعة:

- يا عزيزي، تحدث مع ابنتك برفق وحكمة، وبين لها الأمر عسى أن تعود إلى رشدها، هي متيمة به، ولا تجربة لها في الحياة، تصرفاتها بريئة، وقصدها شريف. (شفتا الأم تموجان بأدعية في سرها بأن ينجيهما شر هذا اليوم، والكلام للأب مخاطباً زوجته...)
- إنها تثير غضبي وتدفعني إلى الجنون، أيعقل أن ابنتي تحب ابن الصعلوك الذي أراحنا منه الموت؟! أيعقل أن ترنو إلى ذلك الفقير الذي لا يقوى على ملء بطنه بفتات الموائد؟! تصوري! تحب فقيرا معدما و.....

وضعت سعاد راحتيها على أذنيها كي لا تسمع أباها وهو يردد كلمات تنبئ عن حقد دفين ينبذ غيره من بني جلدته. غادرت صالة الجلوس إلى فراشها ليحضنها برفق وهي تبكي.

****

يمشي السيد نذير وهو يُمني نفسه لو أن السيدة هديل تستسمحه وتطلب منه العفو وهو على استعداد لرفع الحظر عنها وعن ابنها. لكنها أعند وأصلب من أن تخضع. لم تشعر تلك المرأة

بالضعف يوماً، كم عانت من سنين سقيتها المر والعلقم ولكنها ظلت شماخة، آه... لو تأتي إلي وتقول أنها نادمة على الماضي لعفوت عنها...لا...لا...لو جاءتني تقول لي اترك ابني وشأنه، لما جعلته طيلة السنوات الماضيه يعمل خارج القرية ويتكبد المسافة والمعاناة... ولكنها من جنت على نفسها. آه... ليتها تعود إلى رشدها، حينها سأشعر بمتعة الحياة. "هذا ما كان يحدث به نفسه حتى وصل إلى متجره".

***

"ساعد" شاب متمرد على الأخلاق، يعتبر من أسوأ شباب القرية، ماكر، لعينن خائن، كل ماهو سيىء يطلق عليه، الكل يخاف لسعات لسانه، يجتمع بشباب القرية على مدخلها، يطلق النكات على الذاهب والعائد، ومع ذلك، من ليس لديه عمل بسبب رفض استخدامه في الأعمال الزراعية لقلة أمانته، يجلس مع ساعد. "أنت محترم، ورائع، وعظيم، وأحسن وأحد في العالم" كلمات مشهورة يقولها ساعد لكل من يلقاه. ومن خلفه، وأمام العاطلين أمثاله يغير رأيه: "اقصر من الضفدعة، يمشي كقرد مصعوق، مثله مثل حشرة تحمل ما يحمل الحمار". هذا هو ساعد لا يتحلى بشيء من الأخلاق، ولا من الوسامة شيء، كله قبح، حسد وكره لما حوله. اتخذ مكانه المعهود، وراح يتحدث لمن حوله بأسلوب هزلي لا يُضحك إلا أمثاله: "نال باسل من أجمل فتاة، كم تمنيت لو أني من سلقها، ظننت سعاد عفيفة، لو عرفت لكنت الفاعل وليس ذلك المريض بالصمت". كلمات قاتلة، ليس لها قرار سوى اللَّظَى تستعر، ضحك من حوله متخذين من كلامه السخيف وحركاته مصدراً للكوميديا. ما قاله ساعد وصل إلى مسامع تامر عن طريق أحد الشباب الذي كان حينها هناك، لم يكن الأخير يقصد إثارة غبار حول صديقه ساعد. لكن الفضول كان وراء خروج الكلمات من فمه، التقى تامر في الطريق وسأله عن صحة خبر اختلاء باسل

بســـعاد. وجه له تامر ســـؤالاً "من اخبرك بذلك؟" تهرب من الأجابة بالمراوغة وتحريف المقصـــود. انقض على ســـبابة الشــاب، جذبها إليه بوحشــية ولفها نحو الأعلى، وبرمشــة عين لف ذراعه حول عنق الشـــاب حتى كاد يفصـــلها: إن... انه... ساعد. (وهو شاخص البصر من فرط الألم)

- لو أخبرت أحدا بأنك من قال لي ذلك سـأكسـر يدك، وإذا ســـمعت أحدا يتطاول على باســـل ولم تبلغني سأكسر ظهرك، وأن كنت رجلاً أخطىء بحق باسل وســـأريك ظلام الليل. (دفعه إلى الأمام، هرب دون أن يرد على تامر).

بدأ الليل بالهبوط التدريجي على مدرج الدنيا وتامر يمشـــي باتجاه منزل ســـاعد من الخلف حيث يعود من ذلك الطريق المؤدي إلى مدخل القرية، ظل واقفا عن بعد ينتظره. يعود سـاعد إلى منزله قبل أذان العشـاء، تامر يعرف ذلك إلا أن نار الغضــب جعلته يسـتبق الوقت. اقترب سـاعد، اسـتوقفه تامر، وكالأسد، ألصقه على حائط منزل قريب من منزله، لف يده إلى خلفه:

- تحرك بصمت والإ كسرتها. "أمره تامر وهو يجره"

رد ساعد باضطراب وتودد:

- ماذا صنعت يا تامر، أنا أحترمك، وأقدرك، لك مكان مقدس في قلبي.

كلمات يرددها عندما يهان ويســـتلطف من يقدم على ضـــربه ليخرج سالما. شد تامر على معصمه، تأوه، وتامر يقول له:

- سأكسرها لو تفوهت بكلمة.

اقتاده إلى أبعد من ذلك المكان حيث لا تصـل اسـتغاثته، أرقده أرضـــا، وجه له لكمات في الأنف حتى ســـال دمه، يصـــرخ مستغيثا، قبض تامر على رقبته وسأله:

- ماذا قلت عن باسل وسعاد؟
- لم... لم أقل شئاً. "بصوت مبحوح"

- ماذا قلت عنهما؟ "بعد أن وجه له لكمة أخرى"
- عفوك. أخطأت وأنت سموح.

وقف تامر واوقفه بقوة يديه، وما إن تماسك ساعد حتى باغته تامر بعدة ضربات في بطنه على أثرها ترنح أرضا يتضرع ألما.

- في المرة القادمة سأقطع لسانك. (هم بالمغادرة وهو يقول..) سأخبر باسل بما بدر منك.

ساعد يعرف مدى فتك باسل بمن يقف في وجهه فما باله بالحديث عنه بما يخجل الروح ويدمي القلب. أنتفظ ساعد ينادي تامر متوسلا:

- لا تخبر باسل. إذا عدت لمثل هذا، افصل راسي عن جسدي. أنا سافل ومنحط، ونلت جزائي ولن أعود لمثل هذا أبدا.

اقترب تامر منه وأمره:

- غدا تصحح ما قلت عنهما، ولا تسمح لأحد بأهانتهما، أو التحدث عنهما. أفهمت؟

***

أخذ تامر لنفسه إجازة من العمل لفترة وجيزة، فالعمل حطاباً يتطلب رفيقاً لأنهُ شاق لبعد المسافة. ليس هذا بعذر، الحقيقة أنه مستاء مما حدث لباسل، غضبه تصاعد حتى وصل إلى فروة شعره. من شدة الغضب راح يشكو ألما شديدا في رأسه وهذه هي المرة الأولى التي يشعر بها أنه عاجز عن الوقوف إلى جانب صديقه. يعرف أن هذا الأمر بُيت في ليل، لذا تراجع أكثر من مرة عن قرار اتخذه كمهاجمة العمدة، عدل عن ذلك خشية من الأذى الذي سيلحق أمه إذا ما حصل له مكروه، يشتد غضبه في لحظة ما وينتفض من مكانه، يتذكر أمه ويهدئ من روعه. ذات نهار، اتخذ قرار إقلاق مضجع العمدة وزرع الرعب في قلبه، أفكار عدة جالت في خاطره لم يرس على أحدها حتى الساعة،

الهلال يرسل وميضا من طرف السماء وتامر يمشي باتجاه مقر العمدة ويتبعه ظله: الصخرة لا تحطمها إلا صخرة، العمدة زرع الرعب في قلوب الأهالي وكيف أشعله رعبا؟ وجب مواجهة الفعل بنفس الفعل، ولكن كيف؟ "هكذا يتساءل تامر قبل تغيير وجهته"، وجد نفسه جالساً على منحدر نحو مياه النهر، تفكيره يذهب به إلى ما وراء كل فكرة تخطر في باله، يتخيل النتائج ويأخذ أسوأ الاحتمالات في عين الاعتبار. أقسم على شد الخناق حول عنق العمدة بحبل من بلبال يصاحبه لفترة تكون كفيلة بهد فكره الضال.

***

أخذ تامر ما يحتاج لرحلة شاقة قد تأخذ من عمره نهارا كاملا، مقصده الوحيد هو الدغل، تعمق وراح يبحث عما يريد، استخدم معوله لتوسعة الجحور الترابية، التقط عقرب ودسه في كيس مصنوع للقمح، استأنف باحثا عن كل حشرة ضارة هو بحاجة إليها لتنفيذ خططته المقصودة بزرع الذعر والخوف في قلب العمدة، تحول إلى كتلة من السعادة عندما نجح في الإمساك بحية سامة متوسطة الحجم ثم عقرب. وعلى هذا النحو أكمل نهاره وقضى أواخره يجمع أكبر عدد من الضفادع، وضعها في الكيس ثم أخفاها مع الحشرات في كهف قريب من القرية. إنها المرحلة الأولى من الخطة. وقبل العودة إلى منزله، استطلع الموقع المراد، حل شفرة التساؤلات التي تجول في رأسه من هذا القبيل مقررا بأن يكون ليل الغد موعد التنفيذ.
النهار التالي قضاه تامر في حالة استنفار، فقد سرق سكيناً من المطبخ، وقضت أمه وقتا تبحث عن ضالتها ولم تجد تفسيراً لهذا الاختفاء المفاجئ. قبل الغروب، يعود الدجاج إلى القُنّ، أخبر تامر أمه بأنه جائع، ارتقت الأم السلم متوجهة إلى المطبخ الذي يبنى عادة في سطوح المنازل أو في مكان منفصل عن الفناء بسبب سخم الحطب. أطلق تامر رجليه للريح ليفتح القُنّ ويخرج

دجاجة، ذبحها خلف زاوية الفناء، وضع رقبتها في وعاء ليصب الدم، ثم أدخل الدجاجة المذبوحة إلى كيس ووضعه في ذلك المكان، أخرج ورقة كان قد دسها في جيبه، تناول عوداً بحجم القلم، غمسه بالدم قبل أن يتجلط لكتابة حروف ورسم عشوائي على الورق، تركها على الأرض لتجف وكرر العملية في ورقة أخرى، عاد إلى غرفته وأخفى الورق وصعد إلى المطبخ بحجة مساعدة أمه في إعداد الطعام. السيدة إحسان منهمكة في جلي الصحفة وتامر يراقبها بطرف عينه وهو يغرف رماداً بقبضة يده، هم بالخروج، أخفى يده خلفه، نادته أمه، طلبت منه حمل طاس الحساء معه، فعل ما أمر، وضع الحساء في حجرة الطعام ودخل إلى مخدعه لوضع قبضة الرماد في ورقة ثم طواها.
اكفهر الليل، خرج تامر، أخذ معه وعاء دم الدجاج، تفحصه، فوجد أن بإمكانه استخدامه حتى وأن تجلط، اتجه إلى الكهف وأخذ ما وضع هناك. انتظر حتى عم السكون، ثم تسلل إليها خلسة وقد تقنّع، اتخذ من الطريق الخلفي لمقر العمدة سبيلا له. يكاد ينعدم الراجلون والمنازل في ذلك السبيل بحيث لا يراه أحد. يمشي على الطريق. وإذا رواده الشك في شيء ما تسلل إلى أحضان الأشجار التي تنمو على قارعة الطريق. الخطوة الأولى هي الوصول إلى المقر، ثم أدخل جميع الحشرات والضفادع والحية من فجوة التهوية الخلفية للمقر. الخطوة الثانية، هي دس الورقة بين حجرتين على مقربة من الحجر التي يجلس عليه مساعده ليجدها بسهولة ويبلغ العمدة بذلك، ورش القليل من الرماد في جوانب الباب. أما الدم، فقد مسح به حجراً على زاوية المقر وبَرِحَ المكان. التوجه نحو منزل العمدة هي الخطوة الأخيرة، دس الورقة الثانية في عتبة المنزل ورش الرماد على الباب، ثم سكب الدم المتجلط على مقربة من المنزل حيث يراه العمدة لدى خروجه في الصباح، وقفل عائداً إلى منزله.

***

كان العمدة قد خرج من بيته وأدرك بقع الدم لكنه لم يجد تفسيراً لذلك سوى اتهام ابن آوى، شق طريقه نحو مقر عمله، التقى رجاله، واصلوا طريقهم، فتح عنيد باب المقر، جلس العمدة على كرسيه، وكالعادة بدأ بمحاورتهم وتوجيه أوامره لهذا اليوم، أمرهم بالانصراف والانتظار بالخارج، اتخذ كلٌ منهم مكانه المعهود، وضع العمدة عمامته على الطاولة، سمع نقيق الضفادع من بين معدات قديمة وأكياس حصاد وما شابه لأن المقر هو بمثابة مخزن لكل ما هب ودب. مصادر الصوت من أماكن عدة، تجاهل الأمر وراح يحك رأسه وإذا به يرفع رجله بقوة وينتفض لدى وصول ماس كهربائي إلى دماغه، شعر بألم شديد وراح يصرخ، ركض إلى الخارج، استغرب رجاله تصرف سيدهم. على بعد من المقر يصيح العمدة "أتوني بالعطار حالاً"، دخل عنيد إلى المقر، نظر إلى الأرض وهرب عندما وجد عقربا يخرج من تحت طاولة العمدة، أدركوا ما أَلَمَّ بسيدهم، ذهب أحدهم للعطار، دقائق والعمدة يتلقى العلاج اللازم، وبخ العمدة رجاله لعدم اهتمامهم بتنظيف المقر وأمرهم بتنظيفه وإخراج الضفدع والعقرب حسب ما أدرك. عاد إلى منزله برفقة العطار، وبعد وقت جاءه عنيد إلى منزله وأبلغه بما وجدوا من حشرات قاتلة في مقره. استغرب، فهذه سابقة لم يعهدها، ولم يكمل العمدة تفسيراته وتكهناته حتى تلكأ عنيد بالكلام وهو يمد له الورقة، تصفحها، لم يفسرها لأنه أدرك أنها شعوذة كتبْت عند عراف ما، تحسس صدره، مسح وجهه لإزالة عرق الخوف لأيمانه بذلك، سأل عنيد أين وجدها، أخبره، تذكر العمدة بقع الدم أمام بيته، جن جنونه، فقد استشعر أنه مسحور، دارت نفسه بداخله ولم يعد يدري ماذا يصنع؟ والسؤال الذي يحيرهُ، من هو عدوه ومن يريد الإيقاع به؟! طلب السيد نذير ليزوره في بيته، جاءه نذير على عجل فوجد العمدة مضمد القدم، إطمئن على صحته، ثم شرع في التفسير:

- أجزم أن الحشرات هي من الجن ياعمدة، فقد وجدت تزامناً مع ورقة الشعوذة، أحمد الله أن الفاعل مغفل، لأنه لم يخف الورقة بشكل جيد، وإلا كان الأمر كارثياً.
- الفاعل يا نذير أحضر حتى رماد الجن وذره أمام المقر وأمام منزلي.
- ماذا!!! إذا هناك شعوذة أيضا في منزلك يا عمدة.

من يرى العمدة في هذه الحال يصفه بالمجنون. صاح في وجه ابنه وأمره أن يفتش حول المنزل جيدا، وعاد ليحدث السيد نذير:

- يا نذير أرجوك، ما الحل؟ أنا مسحور، من الفاعل؟!
- إستعن بمشعوذ. أما الفاعل فلا أدري.
- أظنها هي.
- من هي؟ "تسائل نذير"
- إنها السيدة هديل.
- هذا محال ياعمدة، أنا عدوها الأكبر. ولو كانت الفاعلة، لسحرتني أنا قبلك.
- إذا باسل.
- إنه في المعسكر.
- أدفع عمري وأعرف من الفاعل.
- المشعوذ هو من سيوضح الأمر.

زوجة العمدة تتحسس جسدها، تبخر المنزل لطرد الجن. أما عماد فقد عاد للأب بما لا يسره:

- وجدت هذه الورقة يا أبي عند عتبة باب المنزل.

صرخ العمدة:

- الأمر مدروس ومبيت يا نذير، (يوجه أوامره لأبنه...) إذهب يا عماد إلى عراف القرية وآتني به في الحال.

الشك غزى أفكار السيد نذير. هرع مسرعاً إلى متجره ونبش كل ما حوله ومن ثم منزله والفناء، لم يجد شيئاً يثير الشبهة ولكن الخوف مازال قائماً، عاد نذير إلى منزل العمدة ليجد المشعوذ

في نصف حديثه، فقد أكد أن العمدة أصيب بمصيبة وبأنه تحت سيطرة الآخر وفحوى الورقتين إصابة العمدة بالذل والهوان ونصر لأعْدائه عليه بمساعدة الجن. كرر المشعوذ ما قاله للسيد نذير الذي طلب توضيحاً منه، سأله عن الفاعل، فقال لهما إن هذه من أسرار الجن. أما الحل، فيمكن في غسل الورقتين المكتوبتين بدم دلفين من أحد بحور الجن، ثم ينقع بماء يبصق عليه جني ويذبح أربعة خراف في أركان المنزل وكذلك المقر وصب الدم في مدخل القرية شريطة أن تكون الذبائح من نصيب الحيوانات المفترسة والجوارح. وتابع المشعوذ بوجوب الاغتسال بالماء الذي يبصق عليه الجني، أمر العمدة ابنه بتنفيذ طلب المشعوذ. (عرف المشعوذ أن هناك مؤامرة أحيكت ضد العمدة. أراد أشعال العمدة رعبا وإغراقه في بحر من الخوف، وراح يهول من الحدث مستفيداً من الواقعة لتأكيد نفوذ الجن أمام الناس جميعا وليصبح شخصاً ذا شأن عند العمدة، خاصةً، وأن يد العمدة بدأت تطول مهنته بإلزامه بدفع جزء من أرباحه مقابل ممارسة مهنته التي تكتسب شهرة واسعة القرى المجاورة). تامر يعرف حق المعرفة أن مشعوذ القرية ليس سوى محتال. فقد رسم لما أقدم عليه مع استعداده لتحمل العواقب إن قدر له وكشف أمره.

طبق الخبر في أرجاء القرية وهناك من تشفى والآخر استرحم العمدة. قضى العمدة أياما عصيبة لا يطعم شيئاً ولا تغفو عيناه الليل من شدة الرعب من الجن الذين لا يرضون عنه، أمر رجاله بنصب الكمائن للذئاب، وربط واحدا أمام منزله، وآخر أمام مقره، وإذا أمكن وضع ذئب تحت تصرفه يصطحبه أحد رجاله عند المهمات المعقدة. فالشائع كمتوارث بين الناس أن الذئب وحده من يمكنه أكل لحم الجن. وتبقى الخرافات وما وراء الغيبيات أمور يقينية لدى مجتمع يسبح في بحر الجهل وكأنه يراها بعين الحقيقة.

***

جورية أم لثلاثة أطفال، وهي زوجة أستاذ المدرسة. وكأي مجتمع، لايخلو من تجار الخير، وتجار الشر. هناك الحميد، وهناك الخبيث، والصراع قائم بينهما إلى أبد الأبدين. ولأسباب دينية وأخلاقية دأبت جورية وزوجها على وأد الإشاعة والتصدي لها. يختلف الأسلوب بين الزوجة وزوجها، تعتمد على الأسلوب الحاد واللاذع، وهو يعتمد على الطريقة التربوية. وبما أنها تعيش مع زوجها في وئام تام وتناغم عاطفي على نحو غير مألوف في هكذا قرية، فهي تشعر بسعاد، لذا وجدت قدميها تأخذانها إليها، طلبت من سعاد الجلوس معها على انفراد، اصطحبتها إلى غرفتها.

- جئتك وكلي محبة لكِ، عزيزتي، لا أريد أن يعلم أحد بما سيدور بيننا، عديني بذلك.
- أعدكِ.
- أتحبين باسل؟
- نعم.
- كسحابة صيف؟
- بل كأرض معطاءة.
- أتعرفين النهاية؟
- نعم.
- مستعدة لتحمل العواقب المؤدية للهلاك؟
- الموت مثلاً؟ "تساءلت سعاد بعدم اكتراث"
- مثلاً.
- الموت ميلاد للقلب الصادق.
- وماذا عنه؟
- لا يختلف عني.
- واذا خان وعده يوما؟
- لا يفعلها، عهدته صادقاً. "قالتها سعاد جازمة"

- لنفترض جدلاً، أنه شـــاب يتقن تقمص دور المحب المخلص...

فكرت سعاد ملياً، ثم قالت:

- فليعاقبه الله...

قبضت على يدها وقالت بود:

- يالك من فتاة طيبة القلب. أطمئنك، باســل معروف بنبل الأخلاق، أنه شماخ.
- لولا معرفتي به، ما غامرت بسمعتي.
- أتدرين؟ بعض النساء تلوك ألسنتهن ما يمليه عليهن الشيطان؟
- لا أعُيرهن اهتمامي.
- أنتما أخترقتما المحظور، والحب جريمة في هكذا مجتمع يعتريـه التخلف، لا لأنهم يكرهونـه، بـل يتمنونه ولا ينالونه رحيقه. كم من فتاة خدشـت وجهك بكلام مُعيب تتمنى أن تكون مثلك حتى ولو مع زوجها ولا تســتطيع. هناك من تتهمك بالرذيلة وتسوق لها لأنه تحسدك. وهذا نتيجة طبيعية للحسد. وهنـاك من ترثي لحـالـك وتلومـك لأنـك فرطـت بســمعتك. ومثل هذه تخاف عليك من الســقوط في وحل الألسـنة. لأنها تخشـى ما سـيحدث لك. ومنهن من تؤيدك لأن قصـــدك عفيف وبالمنطق لا يخدش الحياء أذا توفرت النية الصــافية النقية، وأعتقد أنهن يخفن عليك.
- إذا، هناك من تؤيدني وتتطالبني بالاستمرار.
- ربما القلة.
- لو كانت واحدة في هذا الزمان سأمضي قدما.
- أعرف أنك طاهرة، ولكني أردت التأكد من نواياك، وأردت إعلامك بما يقال عنك لتأخذي حذرك،

ولست.... ولست أدري بما أنصحك. حبي لك ولأمك جعلني أجلس بين يديك عاجزة عن طرح رؤيتي.

- لقد قلت مايثلج صدري.
- بالنســــبة لك. أما أنا، فمازلت مشـــتتة الذهن ولا أستطيع.... (تصمت)
- أكملي...
- بصراحة، ستفوزين إذا حققت هدفك، وستدفنين حية في قبر من عار إذا أخفقت.

***

في صباح ربيعي مشمس، جاءت السيدة إحسان لزيارة أهل بيت نذير، رحبت كريمة بالضيفة وأدخلتها إلى غرفة الاستقبال، وطلبت من ابنتها تقديم قهوة الصباح مع بعض الشطائر المسكرة، وراحتا تتبادلنا أطراف الحديث عن مواضيع عدة تحلو للنساء الخوض في مثلها: "وردة بنت السعدي وافقت على الزواج من القصاب الذي يكبرها بعشرين عاما، وهي ما زالت في سن التاسعة عشرة". هذا ما قالته كريمة، فردت عليها ساخرة:

- كيف يتسنى لها أن تعيش مع رجل تفوح من ملابسه رائحة أول ذبيحة ذبحها في حياته؟!
- آه، تبا للفقر! فهو دوما السبب الذي يقف وراء مثل هذه الزيجات.
- أتدرين أن ذلك الأحمق قد ذهب إلى كل أرامل القرية طمعا في أن يظفر بواحدة ولكنهن رفضن ومنهن من طردته.
- لا أرى عيبا بمسألة زواجه من أرملة.

قالت إحسان معارضة:

- أنا أرى عيبا، وأرى أنه مجنون. إنه مزواج ومشهور بالبخل، المسكينة وردة هي الزوجة الرابعة، فقد سبق وأن طلق امراتين.

واقتربت إحسان هامسة إلى صديقتها:

- لا أخفيك يا كريمة! أن ذلك الحيوان طلبني للزواج.

ضحكت كريمة وقالت:

- أطلبك من نفسك أو من تامر؟
- لو علم تامر لكانت الكارثة.
- ماذا قلت له؟
- طردته طبعاً، هل تظنين أن بعد السنيين التي كابدت فيها عناء لا يعلم به إلا الله، أتزوج. هذا هراء، وممن؟! من القصاب؟!

قطعت الحديث سعاد بدخولها وهي تحمل صينية الشاي، صبت الشاي للضيفة ثم أمها وجلست. تغير الحديث، وراحت إحسان تتحدث عن السيدة هديل. حينها انتاب كريمة شعور بالألم تجاهها جراء غياب ابنها، عرضت على ضيفتها فكرة زيارتها. وافقت وتمت الزيارة.

***

جاء عنيد بمراد إلى مقر عمل العمدة الذي أصبح خاليا من الحشرات ومن أي شك يذكر خاصة بعد ذبح العمدة الخراف فدية للجن، إلا أن الخوف مازال قائماً من تكرار ما حدث، الحادثة تكاد لا تفارقه، كلما أخفق في عملٍ ما أو زاره كابوس، يرمي اللوم على عاتق عدوه المجهول، الحرز الذي أعطاه المشعوذ لا يفارقه لحظة. تصفح العمدة وجه مراد وأمرهُ بالجلوس أمام مكتبه، فعل ما أمر وهو يتحسس رقبته الشديدة الاحمرار الناتج عن ضغط يد عنيد الخشنة التي أمسكت برقبته طول المسافة، الخوف في عينيه، سرعات دقات القلب متسارعة وهو يقول:

- أقسم أني لم أصنع شيئاً يغضبك يا سيدي العمدة، أنا طوال عمري تحت أمرك.
- أثبت ذلك.
- كيف؟!
- قبل الخوض في أي حديث، هل ضايقك عنيد؟

نظر في وجه عنيد القبيح الذي يثير الرعب وقال بهلع:

- إنه لطيف جدا. هل اشتكى مني أحد؟
- إلى الآن، لا. لم يشتك منك أحد.
- إذا ماذا صنعت؟!
- أنت لم تصنع شيئاً ولكني أريدك أن تعمل معي.
- ماذا؟! أنا أعمل معك، كيف وأنا لدي مقهى أعمل فيه؟
- ومن قال لك بأنك ستترك مقهاك؟
- إذا كان الأمر متعلق برسوم الحماية، أنا دائما سباق إلى دفع المبلغ.
- لمَ أنت عجول هكذا؟! اسمعني جيدا وافهم ما أقوله، أريدك أن تنقل لي كل كلمة يقولها رواد المقهى من الأهالي، مقابل نقل الكلام رسوم حماية، بمعنى آخر لا رسوم حماية عليك فأنت ستكون أحد رجالي.
- لكن هذا من الأمور التي تسخط الرب سبحانه وتعالى.

صرخ عنيد في وجهه حتى زاد من رعبه:

- لم تحضر إلى هنا لتقدم النصيحة والوعظ أيها الأبله. أنت هنا لإطاعة كلام سيدك العمدة.

قال العمدة وهو يصطنع التأثر:

- يجب أن تفهم يا بني! أن هذا من أجل حفظ الأمن والاستقرار في القرية. وما أدراك أن الجماعة الملثمين الذين أحرقوا المحلات ليسوا من أبناء هذه البلدة، هل تعرف أحدا على وجوههم؟
- لا.

- إذاً، من خلالك سنعرف من هؤلاء الذين عاثوا فساداً في هذه القرية.
- أنهم من خارج القرية.
- من أين أتاك هذا الاستنتاج؟
- لأنهم فروا من رجالك إلى خارج القرية.
- وما المانع من أن يفر الجاني من أهالي البلدة إلى خارجها على أن يعود إليها لاحقاً؟
- احتمال!!!
- أذا عليك التعاون معي.
- حسناً سيدي العمدة.
- على أن يظل هذا الأمر سراً لا يعلمه سوى من يحضر. أتفهم، سر قد يكلفك البوح به ثمناً باهظاً يساوي رأسك مثلاً. والآن يمكنك الانصراف.

***

مّر على باسل قرابة الشهر منذ دخوله إلى المعسكر، وكل يوم يضيق حاله أكثر من اليوم الذي مضى، فقرر الهروب عندما يتوجه المجندون للغداء. ركض نحو السور محاولا تخطيه، وإذا بالجنود يشهرون أسلحتهم نحوه عن بعد. لم يسعفه الوقت. كان يحتاج إلى عدة دقائق حتى ينجح ويلوذ بالفرار. ألقي عليه القبض وزج به في زنزانة تابعة للمعسكر حتى يتم تحويله إلى المحكمة العسكرية، قضى وقتا عصيبا في زنزانته لا يميّزُ بين الليل والنهار. وبعد يومين، كان المعسكر يتأهب لاستقبال لجنة من دائرة الخدمة الإلزامية في وزارة الدفاع والتجنيد للإشراف والرقابة على سير التجنيد، تقدم بالتماس لديهم حصل إثرها على إعفاء. دفع المستلزمات العسكرية التي منحت له، وخرج في طريق العودة إلى قريته والفرحة تملأ قلبه، كان يعتقد إعفاءه من الخدمة الإلزامية انتصارا على المتآمرين ضده. دخل من أول مدخل للقرية متجهاً إلى منزله، وقبل أن يبلغ باحة الدار، بدأ

ينادي أمه فملأ صوته الأرجاء، واخترق شقوق ومنافذ مأواه، وقرع مسمع أمه، فارتجت، رمت ما كان بيدها، لملمت أطرافها وجرت نحو الخارج في لهفة لاستقبال فلذة كبدها رافعة يديها لضمه إلى صدرها حتى تقر عينها مرددة:

- ابني وأغلى ما عندي، اشتقت إليك يا نور عيني.

احتضنته وهي تشبع شوقها إليه تقبيلا تارة ونظراً إليه تارة أخرى، ووابل الدمع ينهمر.

***

تكبدت الشمس السماء، وتامر عائد من السوق. فسمع خبر عودة صديقه الذي انتشر بين الناس وتناقله الصغير والكبير فهرع للقائه وتهنئته بالعودة سالما إلى أحضان من يحبونه. عند بلوغه دار باسل، صفر له وناداه. كان باسل على وشك الشروع في تناول الغداء، سمع صوت صديقه، فتح الباب، ومد يديه لاحتضانه، طالت لحظة العناق والضحك تعبيرا عن الانتصار:

- لأول مرة تغيب عني وأشعر أن حياتي لا قيمة لها. "قال تامر"
- ها أنا قد عدت لأشبع ناظري بمن أعزهم، صحيح أن الصديق الوفي هو اليد التي لا تكسر. أرجوك يا صديقي! إن حدث شيء في غيابي لا تخفه عني، فأنا متأكد بأن أمي لن تخبرني أبدا عن معاناتها أثناء غيابي.
- لا شيء يستحق أن يذكر.

أمسك بيد تامر لإدخاله إلى بيته مصرا عليه أن يشاركه الطعام والحديث معه في الداخل عن كيفية خروجه من المعسكر منتصرا. دخل معه إلى غرفة الاستقبال.

جلس الصديقان على الحصيرة وإناء الطعام يتوسطهما، كانا يأكلان ويتبادلان الحديث، أخبر تامر صديقه ما فعل في غيابه. كل واحد منهما يعرف ما يترتب على الآخر من مسؤوليات تجاه

صديقه، كلٌ يحمي الأخر بالطريقة التي يراها مناسبة. ضحكات باسل كانت تخترق جدران المكان وهو يتخيل الحدث وما حدث للعمدة من خوف ورعب، توقفا عن الخوض في هذا الموضوع فجأة. فهما لا يريدان أن تعرف السيدة هديل بالأمر خشية من نصائحها اللاذعة أحيانا.

***

في هذه الأثناء، كانت سعاد قد افترشت التراب بجانب منزلها وبيدها عصا صغيرة ترسم بها على التراب أشكالا غريبة، وغير مفهومة، مرت من أمامها السيدة إسمهان جارتها وصديقة أمها، نظرت في وجهها ثم وقفت تحييها:

- مرحبا بالسيدة إسمهان.
- مرحبا سعاد... هل أمك في الداخل؟
- نعم، وهي تنتظرك لأكثر من ساعة.
- أعرف بأنني قد تأخرت عن موعدي معها للذهاب إلى السوق كما اتفقنا. ولكن حدث أن قابلت في طريقي السيدة إحسان وقد شغلتني بالحديث عن إعفاء باسل.

قالت بلهفة تدل على الارتباك:

- ماذا؟! باسل عاد؟! أأنت متأكدة من هذا الكلام؟

انتظرت لحظات حتى دلفت جارتها إلى المنزل، رمت العصا أرضاً. أمسكت فستانها بيديها، رفعته قليلا كي تتمكن من الركض، وهرعت كالطفل الذي يركض خلف قصاصة ورقة سلبها منه الريح متوجهة إلى منزل باسل. لم تبال بأحد، لا بأبيها، لا أمها، ولا بأي شخص يراها وهي تركض، وكل همها لقائه. وبعد وصولها وهي تلهث وتكح من شدة التعب، لم تنتظر لحظة واحدة لتجمع أنفاسها. طرقت الباب، لم تستطع أن تنادي بصوت عال واكتفت بـالكحة وإصدار بعض الكلمات مثل "باسل" بصوت غير مسموع ويدها اليُمنى على صدرها واليسرى مثبتة

بالمزلاج. وقف باسل ووضع قطعة الخبز على الأرض، شعرت الأم وتامر بتغير أنفاسه ورجفة يديه، فقال جازما:

- إنها هي، سعاد... نعم هي التي تطرق الباب.

أسرع لفتح الباب، فتبعه تامر وقال له:

- إذا كانت هذه سعاد، أنا سأذهب وأترككما لتأخذا راحتكما في الحديث وسنلتقي في وقت لاحق.

لم يسمع ما قاله صديقه لانشغال باله بالباب، فتحه، فإذا بها أمامه. وقف أمامها شاخص البصر شوقا، عاجزا عن الكلام ولم يقوى إلا على مد يديه، مدت يديها، لم تستطع بلع ريقها، أمسك كلاهما الآخر، دارت به، دار بها. شعر الاثنان بدوران كل شيء من حولهما من كثرة دورانهما حول نفسيهما. سقط غطاء رأسها، يتناثر شعرها حوله وتسحبه معها كلما دارت، توقفا عن الدوران، سقطا على الأرض واستشعرا حينها أن الأرض من فوقهما والسماء من تحتهما. لم يسحب أحد منهما يديه. أيعقل أن الحب جعلهما يدوران حول نفسيهما كالأطفال؟! إنه الحب، طفولة بحد ذاته. لذا، يقولون الحب بريء كقلب طفل. والتعامل معه يعد دنيا من الرقة، ففيه سلاء وزواهي بهاء، فيه روح من تعب مفعمة بسكينة. تعب مريح لجسد الروح. مسكه يطفو بالجسد فوق سطح المستحيل؛ الصوت، الألوان، النغمات، الصدحات، شدو النايات. رجفاته ثبات النفس فوق خيط الضوء. رنات أحزان عيدانه معزوفات على أوتار القلب...

مجنونته تهم لضمه إلى حضنها، لم تجرؤ. أراد هو احتضانها أيضا ولكنه لم يجرؤ. أغمضت عينيها وقالت:

- كنت أريد أن....

قال مقاطعا:

- أن أضمك إلى صدري.
- وكيف عرفت؟!
- مادمنا روحاً واحدة فرقها المولد.
- نعم واغتال الفرحة منها مولدها في غير الموعد.

- هل تلاحظين، يا توأم الروح، كيف أن العشق قد أحالنا إلى شاعرين؟!

فتحت عينيها ولم تستطع التحكم بالدموع فانهمرت على خديها وارتمى كل منهما في حضن الآخر. شق تامر طريقه بعد مشاهدة لحظات التلاقي. أما الأم، فقد اتخذت من الباب مبصرا تراقب منهُ ما يحدث. فهي في غير رضى لحضن بعضهما البعض، فقررت إنهاء هذا الحال:

- هل من كرم الضيافة الحديث مع الضيف أمام الباب أم دعوته لتناول الطعام واحتساء القهوة؟! تفضلي بالدخول يا عزيزتي لتناول الغداء.

رفضت بإشارة من رأسها وقالت:

- عليّ أن أغادر الآن فأمي لا تعلم أين ذهبت، (أعادت ناظريها إلى باسل وهي تقول له...) أراك يا باسل..

فقال لها بصوت أقرب إلى الهمس:

- أراكِ ... الساعة الثانية ظهراً عند ضفة النهر.

عاد إلى صوب أمه التي بادرته:

- ما رأيته اليوم يزيد من قلقي وخوفي. بهذه الطريقة أنت تخترق المحظور ولا أرضى لها أن تحتضنها، أنت رجل وهي تبقى امرأة. على أي حال، من حقك أن تحب ولكن بما لا يخدش الحياء. ما فعلتماه اليوم لا مبرر له.

***

وصلت سعاد إلى بيتها، وكانت أمها قد عدلت عن فكرة الذهاب للتسوق، فبادرتها متسائلة:

- أين كنت؟

فأخبرتها بكل شيء، فقالت لها معاتبة:

- ما كان يجدر بك يا بنيتي أن تعانقيه. هذه غلطة، ولو علم أبوك بهذا حتما سيغضب ويعاقبك، ولو رآكما أحد سيظن

بكما السوء، والأهالي يتفننون في ظن السوء على الخير.
لست راضية عما حدث.
بَضَّت عيناها وقالت:

- إنه حبيبي، ومن حقي أن أرحب به وأعبر عن شعوري نحوه.

قالت الأم بحزم:

- لا أريد أن تبكي عندما أنصحك، فأنا لست معارضة للترحيب بمن تحبين بالطريقة التي لا تلحق فيك الأذى، ما فعلتيه اليوم يُعد خطيئة (وأردفت وهي تمسح دموع ابنتها...) كما لا أنوي التفرقة بينكما، إنما يجب أن تراعي العادات والتقاليد. إني أقول لك هذا الكلام لأني أشعر بمعنى الحب الذي لم أره طيلة حياتي، لا من أبيك ولا من عمي الذي رباني وأنا صغيرة مع أختي مريم بعد وفاة والدنا بالرغم أننا ورثنا خيرا كثيرا عن أبينا، وتنعم به عمي كيفما يحلو له لأنهُ كان الوصي علينا والمسؤول عن إدارة أملاكنا، ولا أخفيك بأني أشعر بالسلوى عندما أراك تنعمين بسعادة الحب ولكن وفق قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا.
- سأمتثل لأوامرك يا أمي.

نزعت عقدها الذي ورثته عن أمها وهو الشيء الوحيد الذي يذكرها بها، وقلدته ابنتها وقالت:

- إنه ثمين بالنسبة لي ويذكرني بأمي ولكن ليس أثمن منك.

***

شد العمدة الخناق على الأهالي وبدأوا يتذمرون وينتقدون سياسته المدعومة من نذير. وكلما ظهرت معارضة للعمدة ذكرهم بكلاب الليل الضالة الذين زرعوا الرعب في القلوب. أسرار الأهالي وأحاديثهم تصل أول بأول عن طرق مراد وغيره. عرف العمدة المعارضين له وتخلص منهم بالترغيب أحياناً والترهيب في

معظم الأحيان، فرض عليهم إتاوات قاسية. هذا القرار جعل نذيراً يود الذهاب إلى مقر عمل العمدة ليستوضح الأمر ويبدي قلقه ومخاوفه من وصول أخبار القرية إلى السلطات في المدينة. لكن العمدة استبق زيارة نذير له وذهب إليه في متجره، فقال له العمدة مطمئناً:

- لا تخف، أنا لا أفعل شيئا إلا بمباركة من السلطات.
- حتما أنت تمزح!
- أنا جاد بما أقول. هل تظن أن الأموال التي أجمعها تذهب في أدراج الرياح؟ أنت واهم، أنا أدفع جزاء منها للشخصيات قيادية في المدينة.

أقترب من العمدة وعبر عن عدم تصديقه:

- أأنت جاد؟!
- وكيف يتسنى لي صنع كل هذا دون ضوء أخضر من السلطات؟
- أي داهية أنت يا رجل؟! لم أكن أعرف أنك بمثل هذا الذكاء. "هكذا قال مستغربا"

ضحك العمدة وقد خالطه الزهو:

- إذن لابد أن تثق دائما بذكائي.
- ماذا يا عمدة؟
- أعني أن تدعني أصنع ما أريد وأنت واقف إلى جانبي.

دخل عليهما عنيد وأبلغهما أن باسلاً قد عاد إلى القرية.

تجمد الدم في عروقهما وقال نذير بغضب:

- ماذا؟!

هز العمدة رأسه وهو يقول:

- إنه شبيه بابيه، عنيد....

قاطع عنيد كلامه أقرب الرجال إليه:

- أنا هنا سيدي العمدة.
- أسكت أيها الأحمق، أنا أقصد باسلاً... إنه عنيد. (وجه ناظريه إلى نذير ليقول له...) لم أكن أتوقع أنه سيفلت من

اللَّظَى بهذه السهولة. ولكنه ليس أعند مني. لقد أغضبتني عودته.

- يجب علينا أن نتصرف وبسرعة، وألا قتلته بيدي.

ربت على يد نذير وقال:

- دع هذا الأمر لي.

***

اندهش الليل وباسل مستلقي على فراشه، تقلب غير مرة، وقد سرق شوقه لموعد الغد النوم من عينيه، قصف السماء للأرض يزداد شيئا فشيئا، نهض وتقدم نحو النافدة، وإذا بالسماء تندف المطر ندفاً. راقب الشارع الكئيب الخالي من راجليه ومن هزيج الحشرات الليلية. ليس ما يدل على أنه من بين الأحياء. أصْبَحَ المصْبَاحَ الغازي، جلس بالقرب من النافذة حتى نال منه الصقيع واقتحم الموم أسوار عينيه ثم عاد لفراشه. ومع ظهور أول خيوط الفجر، أيقظه صياح الديكة، نهض مخلخل المفاصل وفي عينيه شيء من النعاس، غادر المنزل للاحتطاب حاملاً معه جراب الطعام. التقى تامر وأخذا يمشيان ببطء محاولان تجنب الفجوات الطينية المستحدثة ومنحنيات الطريق المغمورة بمياه جود السماء. وصلا الجبل وجمعا الحطب، وقبل أن تتَكَبَّدَ الشمس السماء، كانا قد حملا ما جمعاه وذهبا به إلى القرية المجاورة، طلب باسل من تامر التكفل بالبيع، وأسرع مهرولا نحو النهر، فوجد سعاد بنتظاره.

- حمدا لله على سلامتك مجددا. "هكذا بادرته"

مدت يدها، مد يده، تعانقت يداهما لثوان ثم سحب كلٌ منهما يده بلطف وتبادلا النظرات بصمت. جذبها من يدها وجلسا وأرجلهما تتدلى إلى الماء، سيطر عليهما الصمت لبرهه، توقف باسل عن التحديق إلى النهر واستدار برأسه ليصوب نظره إليها، تزحزح حتى تلاصقا، مد يده إلى ذقنها فأدار وجهها إليه، وقال:

- أنت تزدادين جمالاً يوماً بعد يوم.

- ليست سوى عيونك الجميلة التي تدخل الحسن على كل ما تقع عليْه.
- "أنت أروع مما أتصور، أنت....." واصلا حديثهما لفترة من الزمن وخاضا في أمور عدة. وكأن الأمس واليوم مازالا صغيرين جمعا أحجارا صغيرة وشرع كلاهما ببناء منزله وتجادلا كما كان يفعلان في الماضي. وبعد أن قضيا الوقت الطفولي عادا لعمريهما الحقيقيين ليتبادلا عبارات العشق. قبل قليل، كانا يمارسان الطفولة، خلعا نعليهما وتجردا من عقليهما الراشدين ولعبا لعبة التخفي، نسيا نعليهما، وهاهما يجلسان بجانب بعضيهما، أدرك باسل ذلك على نحو مفاجئ فتوقف عن الحديث وأغطس رجليه المنتفختين اللتين عجز عن العثور على جورب غير مثقوبة لتغطيتهما في الماء كي لا تراهما. أدركت ما فعل، ربتت على يده وقالت:
- لا تخف قدميك المنتفختين عني، فأنا أحببتك لرقتك وطيبتك ولفقرك وبؤسك.

دست يدها في الكيس الذي كانت تحمله وأخرجت قطعتين من شطائر التفاح، أعطته واحدة، أكلا وتبادلا النظر. وبعد أن انتهيا من الأكل كان الصمت جاثما عليهما وهما مستلقيان على بساط من عشب. غاصا في حياة عامرة بروح شادية حتى تغير لون السماء الأزرق إلى التلبد بالسحب، اشتدت سرعة الرياح، وللتو انتابهما شعور بالبرودة، وقف وخلع معطفه وطلب منها ارتداءه، ردّت رغْبتهُ وهي تبسط راحتيها للرذاذ مقررةً العودة.

***

- طرق على باب السيدة هديل، إنها كريمة، اقتحمت الجلسة الودية بين هديل وإحسـان وانْضـمتْ أليهما. دائما يجتمعن ويقضـــين أوقات نســـائية بحتة. والغريب الذي لفت انتباه السيدة هديل عدم حضور سعاد على غير عادة، "تساءلت"

أجابتها كريمة إنها برفقة والدها، إلى هنا العذر يبدو مقنعا. قبل الغروب يعود تامر إلى المنزل، لذا ودعت إحسان جليستيها وذهبت لشأن ابنها، هنا بدت الفرصة سانحة لكريمة لتجلس إلى جانب قلب هو بمثابة حضن لها من نفي الزمان. بدون مقدمات، شرعت تشكو حالها وضيقها ذرعا. بان لهديل سبب تغيب سعاد، وعرفت أن الأم تعمدت الحضور بمفردها لتبوح بما بقلبها لعلها تخفف من هزاته المؤلمة:

- ضاقت بي الدنيا (توجه ضربات إلى صدرها) كرهت الحياة. "هذا ما بادرت به كريمة".
- أستهدي بالله (وهي تمسك بيديها).
- كرهت كل شئ (راحت تدعو ربها) خذ روحي يارب، لمَ تؤخرني لأتعذب، جوارك رحمة.
- لايجوز تمني الموت هروبا من مشاكل الدنيا.
- يضربني وكأنني جارية.
- هداه الله.
- أنه ظالم، (تذرف زخات من الدموع)... أنه ظالم.
- إصبري.
- إلى متى؟!
- إلى أن يهديه الله.
- طيلة عمره وهو يهينني، كم تمنيت أن يقتلني على أن يرخصني أمام ابنتي.
- كلنا نعرف طباع نذير، وكلنا صابرون عليه، فاصبري.
- جئْت إليك وقد كنت على مشارف القرية راحلة إلى المدينة لأعيش مع أختي مريم وزوجها، حتماً سيرحب بي ويحترمني.
- الهروب ليس بالحل ياكريمة.
- وما الحل؟

- أنت الأقرب إلى زوجك، إبحثي عن الســـبب، ربما يريد الزواج، من يدري؟
- لو أراد لفعل، وســـبق لي وطلبت منه، على الأقل يخفف الضغط علّي.
- وبمَ اجابك؟
- بالسكوت.
- ياكريمة، أنت تعرفين ســـبب تغير زوجك منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.
- وهل كنت السبب؟
- زوجك مرّ بمرحلة مريرة بعد موت ابنه صابر.

هنا أمسكت هديل على الجرح وراحت تكشف جانباً من المزاج المتغير لنذير. كانت هديل لا تحب إحراج كريمة طيلة السنوات الماضية وتذكرها أن موت صابر حرقاً بسبب إهمال الأم التي وضعت المصباح قريباً منه وهو في عامه الثاني. كان سبباً كافاً لزيادة حدة عدوانية نذير وكرهه المســـتمر لما هو جميل من حوله. على أي حال، ذكرتها بذلك، والحقيقة أن هناك سبب ثان وربما ثالث. كريمة تعرف ذلك جيدا، وتعرف أن هديل خيط قريب من المتغيرات، أقُحمت على غير رغبة منها...

- أمازال يحب زوجته الأولى؟ "بسذاجة تساءلت كريمة"
- هداك الله يا كريمة، مات ابنه حرقا، وعاقب زوجته الأولى وطلقها، فكيف له أن يحبها؟! بل أن ذكراها تمزق قلبه غضبا.

شـــادية زوجة نذير الأولى، كانت من إحدى القرى المجاورة، بعد طلاقها بخمسة أعوام تزوجت ونتقلت مع زوجها للسكن في المدينة. بعد ذلك إنقطعت اخبارها. نســـاء القرية الراشـــدات لا يعرفن شـــيأ عن حياتها، وهل مازالت على قيد الحياة أم لا. كانت امراة طيبة وودودة، وهذا ما فجر القرية حزنا عليها، ابتداء بموت ابنها، وانتهاء بتلك الليلة الســـوداء التي أخرج بها زوجته وضربها، وطلقها أمام الناس جميعا. حينها، قضت الليل

بمنزل "وهب" والد تامر، وعند الصـــباح أخذها برفقة زوجته إحســـان إلى أهلها. والحديث مازال مســـتمرا بينهن والكلام لكريمة:

- إذا ذكراه لابنه.
- ها أنت أدركتِ جزءاً من الســـبب، وأنا أعتب عليكِ لأنك لم تأتيه بالولد الذي كان سيغير طباعه الحادة.
- تكفيه سعاد، لا يستحقها، فوالله لو عرفت... ما أنجبتها.
- صارحيني! أنا بمقام أختك.
- بماذا؟
- هل كنت السبب بانقطاع الحمل؟
- بصراحة.. (تتردد.. ثم تتابع) نعم.
- ويحك... (تعاتبها) لمَ فعلت ذلك؟! ولمَ لم تخبريني من قبل؟
- لم أشـــأ يرزق بالولد كي لا يعذبه، فمازلت أشـــفق على سعاد.
- أنت مخطئة.
- أتناول عشبا تعطيني إياه الداية، و.... وأوهمته أنه السبب.
- لا يتوافق هذا مع طباعك الحميدة.
- أنها الداية، نصحتني بذلك.
- تباً لها، ورماها الله في جهنم.
- إذا، أنا سبب مايحدث لي يا هديل. "تسألت بحيرة"
- لو جأته بالولد لخفت طباعه الحادة.
- خطأ أرتكبتهُ، ولست قادرة على معالجته.
- بلا...

اقتربت هديل منها وطرحت عليها أســـئلة، أجابتها، فقالت لها هديل بأمل:

- يمكنك الإنجاب، توقفي عن تناول العشـــب ولا تتصـــلي بالداية، أنها شريرة.
- أبعد هذا العمر؟! "تسألت بستغراب"

- ولمَ لا، "نظمية" أنجبت وهي أكبر منك سننا.
- أهذا معقول؟!
- بالطبع، مازلت في منتصف العمر.
- أنا كذلك، زوجي جعلني أبدو أكبر من سني الحقيقي.

***

أبلغ مراد العمدة أن أبو إسماعيل قد شكك بشرعية بقائه في منصبه وسخر منه واصفاً إياه "بالمسحور". عرف العمدة عدوه الجديد ووجب تربيته ليكون عبره لغيره. أما عدوه الذي أثقله هماً، فلم يعرفه حتى الساعة. وهذا ما يغضبه على نحو مفاجئ يجْعلهُ يوبخ رجاله بصفة دورية لعجزهم عن التعرف على ممارس السحر ضده. انتفض بغضب من مكانه وقال في سره: "سخم الله وجهك يا من سحرتني، لابد أن تقع في يدي. وحينها رأسك ثمن فعلتك، أما أنت يا أبو إسماعيل، فسأسقيك شراب الزنجبيل". خرج العمدة للأهالي واتهم أبو إسماعيل بأنه من جماعة المخربين، اقنع الحضور بهذه التهمة، صاح العمدة في الحضور: "ماذا أصنع بمن عاث في القرية فساداً ونهب حقوقكم وزعزع أمنكم"... ارتفعت الأصوات: "حطمهُ ياعمدة"... ومنهم من يقترح: "سلمه لسلطات المدينة لينال جزاء فعلته"... ومنهم من أصر: "تول أنت الأمر ياعمدة ولقنه درساً لا ينساه"... وهكذا دواليك من إصدار الأحكام الجائرة دون علم أو معرفة. هذه حال من نال منهم الجهل. فقد وجد ناهب مغتصب الأرض وآكل الحق يداً للعدالة. تصفح العمدة أوجه الحضور وقال في سره: "قبحكم الله جميعا وعليكم سخطي دون استثناء". الحكم عليه اتخذ مسبقاً. وأمام الحضور نطق العمدة بالحكم وأمر أتباعه باقتلاع أشجار الزيتون من البستان الذي يمتلكه أبو إسماعيل، ثم فرض عليه غرامة مالية على أن توزع على حراس القرية الليليين.
حينها لم يكن باسل حاضراً وإلا ما نفذ هكذا حكم على بريء، كان جالسا مع سعاد، وعند عودته قابله تامر الذي جاءه باحثا

عنه، أبلغه بما حدث، اشتط غضباً، طلب من تامر انتظاره عن بعد وعدم التدخل كي لا يلفت الأنظار إليه بحيث يكون سندا عندما تقتضي الحاجة. أما اليوم، فباسل لديه القدرة على القيام بالمهمة. ذهب إلى مقر عمل العمدة، اقتحم المقر، وبينما كان يتصادم مع رجال العمدة، وكالعادة أطلق العمدة رجليه لريح خوفاً من أن يضرب وتداس كرامته.

ذهب العمدة إلى السيد نذير ليشاوره في بموضوع باسل، أدرك نذير أن نبيل حياً لم يمت، فقال للعمدة:

– علينا التخلص منه.

– سأرسل ابني في طلب أربعة رجال أشداء من رجال عمدة قرية "الحراب" للتخلص منه بطريقة لا تلفت الأنظار. يترصدونه حتى يتمكنوا منه على ضفة النهر لأنه يتردد دائما على ذلك المكان ويضربونه ضربا مبرحا حتى الموت، أو يوجهون له طعنات بالخناجر، ثم يرمونه في النهر كالكلب. ولن يعرف أحد من المسؤول، ثم يعود الرجال من حيث أتوا. أما نحن، فسنكون، لحظتها، في المدينة في الاجتماع السنوي لأعضاء المجلس البلدي لمدينتنا والذي يستمر انعقاده لمدة يومين وسأصطحبك معي مرافقاً لي.

– إذن، ليكن مطلع الأسبوع القادم، وإلى ذلك الحين سأنام قرير العين.

***

في صباح مطلع الأسبوع، تَهَدَّبَ الضباب معانقاً الأرض بدلاً من الشمس. بَرِحَ باسل المنزل نحو الجبل للاحتطاب برفقة تامر، عند الظهيرة نفدت الكمية. افترق الصديقان، ضرب باسل في الأرض مسرعاً نحو النهر للتأكد إذا ما كانت سعاد قد حددت موعدا للقاء، وصل إلى المكان المقصود ولم يجد ورقة تحت الحجر، بالأمس أكدت أنها ستكتب له. ويبدو أن الظروف خانتها ولا يمكنها مغادرة المنزل لسبب ما، كان الرذاذ يداعب وجهه

برفق. وبينما كان على وشك الخروج من حدود النهر، ظهر أمامه فجأة أربعة من الرجال الأشداء الذين لم يسبق له أن رأى أحدا منهم من قبل. أوقفوه، فظن أنهم قد ضلوا الطريق ويحتاجون إلى المساعدة فقد بادره بالسؤال عن طريق يؤدي للقرية المجاورة، وعلى عجل، وعلى نحو غادر انقضوا عليه كالوحوش باللكم والركل، دافع عن نفسه وأوشك على الاستظهار عليهم لولا أن أحدهم نال منهُ غدرا حيث ضربه بحجر خلف رأسه لتأخذه على حين غره تماماً، مال إلى الأمام وسقط، قال أحدهم:

- أقضوا عليه.

ثم راحوا يركلون جسده، مغمى عليه والدماء تسيل بغزارة من فتحة في رأسه. قال أحد المعتدين:

- هل نرميه في النهر؟

أجابه الآخر:

- من الأفضل أن نجهز عليه هنا قبل أن يرانا أحد.

استأنفوا الركلات على رأسه ووجهه حتى سال خطان من الدم من أنفه وفمه. امتزجت الدماء بماء المطر، فقال أغلظهم:

- أظن أنه قد فارق الحياة، إنه لا يتحرك، لقد أجهزنا عليه، فلنرمه في النهر.

قاطع أحد رفقائه مقترحاً:

- مادام قد مات، فلا داعي لرميه في النهر كي نعود إلى قريتنا وأثوابنا غير ملطخة بالدماء، فقط نغسل أحذيتنا الملطخة، هيا، لنتركه هنا ونرحل.

***

كان الطريق المؤدي إلى النهر يخلو من الراجلة بسبب اطباق الماء وجه الأرض. مضت فترة طويلة من الوقت وهو ملقى على ظهره مغمى عليه، اعتكر المطر أكثر حتى قصف الرعد قلب النهر، كان هزيم الرعد قوياً حتى أنه أضاء سماء القرية

والنهر والجبل المحيط بهما. جلجلة الرعد أفقته من غيبوبته، يتألم ويتوجع ويئن أنين حار، حاول أن يقف فلم يستطع. الشيء الوحيد الذي استطاع فعله بصعوبة وبصبر على الألم هو الزحف حتى قيض الله له العم نعيم وهو الشيخ الرّاعي. نادى الرجل ابنه فقاما بواجبهما، أخذاه إلى منزلهما واستدعيا عطار القرية لمداواته. طلب باسل من منقذيه أن يستدعيا تامر. وما أن حضر صعق كما صعق منقذاه لما رأته أعينهما. شكرهما وحمل صديقه وعاد به إلى منزله. طرق تامر الباب، ففتحت هديل، ألقت بنظرها على ابنها، صرخت حتى خيل لتامر أن سكان المساكن المجاورة قد سمعوا صراخها وهي تولول:

- قتلوك يا بني بعد أبيك، قتلوك وقتلوني معك، يا ويلي، يا أهل، القرية قتلوا ابني....

تخرج الكلمات من فمها وهي تصفع خديها وتضرب على صدرها. أجهد نفسه ليطمئنها:

- أنا بخير يا أمي، اخفضي من صوتك كي لا يسمعك الجيران لا أريد أن يعلم أحد ما حدث لي.

حملت ابنها مع تامر إلى غرفة نومه وجلست تبكي وتضرب بيدها على فخذيها بدون عويل. ثم توجهت إلى تامر وأمسكت به من كتفيه وسألته:

- اخبرني بصراحة، ماذا حدث لابني؟ كنت أعرف أن نذير وأتباعه لن يتركوه دون عقاب.

أخبرها بما سمعهُ من منقذيه، ثم حرك رأسه وصوب ناظريه وسبابته نحو باسل:

- ألم أقل لك أنك في طريق ليس بالسهل؟! ألم أخبرك بأنك ستواجه شياطين الإنس، وبأنك تقف في وجه أناس جردوا من الأخلاق والإنسانية؟!

بدموع وصوت حزين ينم عن الضعف، قالت:

- ابتعد يا بني عن طريقهم، هذه المرة نجوت منهم، ولا أظن أنك ستنجو المرة القادمة. وافقني على الرحيل من هذه القرية ونبحث عن مكان آخر نقيم فيه.

رد بنبرة عناء:

- لست جبانا، الموت القادم من العدو حياة، والموت القادم من القريب منية.

حاولت الحد من اندفاعه:

- كن عاقلا يا بني. عنادك لا يزيد الأمر إلا تعقيدا.

كشر وقال:

- لن أركع، ولن أغادر القرية.

قال تامر:

- إذا كنت ترفض أن الابتعاد، فارحل إلى ما وراء البحار، لعلك تعمل وتعود ولديك مال تستطيع به مواجهة الجميع.

قال باستغراب:

- إلى أين؟! وكيف؟!
- إلى بلاد الانجليز، فهناك يتوفر العمل ودخل الفرد مرتفع جداً، وأنا بدوري أستأذن أمي أن تقرضك قلادتها الذهبية، فهي ثمينة تستطيع بثمنها أن تصل إلى هناك.

بابتسامة ممزوجة بالأمل اسْتحسن الاقتراح:

- سآخذ بنصيحتك هذه المرة شريطة أن توافق أمي.

فرحت وقالت:

- إني أوافق صديقك الرأي، أرحل وستجد هناك الخير إن شاء الله، وستعود وأنت مرفوع الرأس ولن يستطيع أحد الوقوف في وجهك وأنت تمتلك المال، غيابك عاماً أو عامين سيكفل لك حياة كريمة لفترة طويلة من العمر.
- سأرحل غداً.

قالت ناصحة:

- ليس غداً ولكن بعد أن تسترد عافيتك.

قال تامر:

- تنفيذك لهذا القرار سيغير مجرى حياتك، وأنا على أتم الاستعداد للاهتمام بأمك. هي أمي في نفس الوقت.
- وماذا عن سعاد؟

قال تامر:

- لن تستطيع أن تقابلك خلال هذه الفترة. أخبرتني أمي أن أم سعاد أنبأتها بذلك.

فزع وحاول الوقوف وهو يقول:

- لماذا؟
- لأن أباها سجنها في إحدى غرف المنزل. أكتب لها عن سبب رحيلك.

تنهد وقال:

- كيف أرحل دون أن أراها، وقد وعدتها بأن أحاول إقناع والدها.
- الوقت ليس مناسباً، ستزيد الأمور تعقيداً. ستعود وأنت تملك الكثير من المال فيتغير كل شيء، وتصبح مرغوباً.

أنتظر تأمر لبضع الوقت حتى خرجت هديل من الغرفة متوجهة إلى المطبخ لهرس الثوم وخلطه بالعسل لتقدمه لابنها، وجد الصديقان أن الوقت مناسب للحديث، فبادر تامر معبرا عن غضبه ومتوعدا:

- أقسم أني سآخذ بثأرك، ولن ينعما بالعيش ما دمت حياً.
- لقد عفوت عن نذير إكراما لسعاد.
- إذا سأنال من العمدة.
- وكيف ذالك وأنا راحل ولن أكون إلى جانبك؟
- سأجد طريقاً ما.

ضحك باسل رغم شعوره بنوع من الهزيمة:

- أتوهمه بالسحر مجدداً؟
- تصور أنه مازال يعاني حتى الساعة، إنه خرافة بحد ذاته، اترك الأمر لي وكن مطمئناً.

– إني أخشى عليك. لا تتورط، ستكون مسؤولاً عن أمي وأمك؟!

هنا شعر تأمر بنقطة ضعف، مما دعاه إلى التخلي عن المواجهة:

– سألجأ إلى الحيلة دون أن يدرك أحد أني وراء ما سيحدث له.

***

3

علم السيد نذير والعمدة بأن باسل لم يمت. شعرا بالغضب، تصبب العرق من وجهيهما خشية من ردود فعل باسل، تطور

غضبهما إلى ملاسنة. كل منهما يحمل الآخر المسؤولية. في جو مشحون بالغضب، وبعد توجيه اللوم لعماد لأنه لم يشرف على القتل وأوكل المهمة للقتلة المستأجرين، قررا تكرار المحاولة.
أما سعاد، فقد كانت سجينة أبيها في إحدى غرف المنزل لا علم لها بما يحدث في القرية. يقدم لها الطعام عند عودة والدها إلى المنزل في منتصف النهار وعند المساء، لم تنفع شفاعة الأم، فقد ظلت مكتوفة اليدين إزاء ما يفعله الأب بابنته ولا قدرة لها إلا على التعبد والتضرع.
استعاد باسل جزاء من عافيته بعد عدة أيام، وعقد العزم على السفر في نهاية الأسبوع. تَأَتَّى السفر، وقبل ظهور أول خيط للفجر، ودع أمه بقلب تعصره الحسرة والألم وعيناه تذرفا دما وكأنه ذاهب لمثواه الأخير. خرج من القرية، كان يسرع خطاه كي لا يتراجع عن قراره فوجد تامر بانتظاره على مشارف القرية لتوديعه، تعانقا وتوادعا، بلغ باسل تلة تطل على القرية، استدار وألقى عليها نظرة الوداع. واصل طريقه حتى بلغ المدينة. استأجر غرفة صغيرة في استراحة ليخفف عناء سفر شاق. وعند الصباح، توجه نحو أحد متاجر الذهب لبيع القلادة، أخذ ثمنها وشرع بتحضير وثائق السفر.

***

انتشر خبر سفره كالوباء في القرية حتى وصل إلى مسامع العمدة ونذير، فرحا فرحاً شديدا وكأن جبلاً أزيح عن طريقهما. أما سعاد، فقد وصلها مكتوب باسل بعد أن أطلق والدها سراحها لأن الشخص الذي كان يثير مخاوفه قد غادر ولن يعود. قرأت المكتوب حتى تعربد الحزن في قلبها، وضاقت الدنيا بها، استأذنت والدتها للتنزه عند النهر. أذنت لها، فخرجت إلى السوق، ابتاعت باقة من الورد الملون، ودون أن تفكر أو يخطر على بالها شيء، وجدت نفسها على ضفافه، جلست كما كانت تجلس مع حبيبها ورجلاها تداعبان الماء بلطف، راحت تنزع أوراق

الورود وترميها في النهر حتى انتشرت على سطح الماء ومع رمي آخر ورقة قالت بحسرة: "خسرتك، يا لجنون وطيش الزمان". أخرجت ورقة وقلما من ثنايا صدرها وكتبت مكتوباً "إلى القدر":
" أيها القدر! أستحلفك بالله، أن تعيد لي طيراً طار، فمن أجله أحيا، ومن أجله أموت". هذا ما استطاعت كتابته، مزجت الكلمات بندى مقلتيها، طوت الرسالة ووضعتها بداخل منديلها ورمتها في النهر كأنها ستأخذ طريقها إلى مبتغاها. تلملم بقايا أمل متناثر تحمله مع حزنها إلى مخدعها.

***

بعد أيام قلائل واصل باسل رحلته حتى بلغ الميناء. ركب الباخرة التي تنقل المسافرين إلى بلد الإنجليز. وقف على سطح السفينة ينظر إلى البحر وراح يحدث نفسه: "أكان الرحيل هو الحل؟ ليتني تريثت قليلاً وحاولت ربما كنت سأنجح. ليت هذا كابوس وأستيقظ لأجد نفسي في قريتي وكل شيء على مايرام. آه... يا نذير لو كنت شخصا آخر ولم تكن ابن عم أبي". وكأنه يتوعد، غادرته الوساوس مع شروع السفينة بالتحرك تأهباً بمغادرة الميناء متجهة إلى وجهتها.

***

أراد عمدة قرية "الحراب" شراء حقل يدعى "الجمان"، فالحقول هنا مثل الإنسان لها أسماء عند القرويين، هذا الحقل يقع على طرف الوادي، موقعه يعتبر بوابة لعبور عربات المنتجات الزراعية، نشب توتر شديد بين حليفي الأمس عندما عرف أن عمدة "التوليب" حال دون إتمام صفقة البيع لأنه يخشى سيطرة عمدة "الحراب" وفرضه رسوم عبور المنتجات التي يرى أن له الحق في ذلك لأن هذه قريته، وحقل "الجمان" قد دخل نفسه منذ زمن بعيد ورفض المالك بيعه، الآن الظروف القاهرة أجبرت

المالك على إعلان رغبته في البيع. وفعلا ظفر عمدة "التوليب" بالحقل، وأصبح المسيطر على المنتجات التي تعبر تلك المنطقة إلى السوق. عرف تامر بهذا الأمر وفكر مليا، حاول استغلال الخلاف بين الظالمين ليقعا في معركة حامية الوطيس لعله يأخذ جزءا من ثأر صديقه. رسا على فكرة حرق مخزن الحبوب الذي يملكه عمدة قريته ليلصق التهمة بعمدة "الحراب" لأن الخلاف حدث اليوم ووجب التنفيذ هذه الليلة ليؤكد التهمة، نجح في إحراق المخزن منتصف الليل بواسطة الجاز، اضطر لتوجيه ضربة خاطفة لحارسها أسقطته على إثرها، نزع المزلاج من جذوره بواسطة المعزقة ليرش الجاز على المحصول ويضرم فيه النار.
جن جنون العمدة، وبالفعل اتهم عمدة "الحراب" الذي سبق له وأطلق التهديدات على مسامع الجميع، جيش كثير من الأهالي للثأر من عدوه متهما إياه بأنه من كان وراء الاعتداءات المتكررة على ممتلكات القرية، رجف القوم وباغتوا قرية "الحراب"، ونشبت معركة حامية الوطيس، استخدموا العصي والقضبان الحديدية. تامر كان وسط قوم قريته كي يبعد عنه أية شبهة، خاض المعركة ببسالة كاملة، لم يهزم رجال العمدة ولم ينتصروا وكانت المعركة متكافئة، لم يسجل ضحايا في الأرواح واقتصرت على الإصابات، عادوا بها إلى ديارهم. هذه المعركة لفتت انتباه العمدة نحو تامر الذي وجده يقاتل ببسالة غير معهودة منه، أعجب به واستدعاه وقدم له شكره لموقفه الرجولي حسب تعبيره ومنحه القليل من المال طالبا منه أن لا يتردد عن أي سؤال ثم عرض عليه العمل معه، ليصبح أحد رجاله، رفض تامر معللاً السبب بانشغاله بأمه وحبه لعمله حطاباً مؤكدا له أنه على أتم الاستعداد عند الحاجة وهذا هو الأهم. لم يضغط عليه العمدة فقد وجده شابا مطيعا قد يكون بحاجة له في يوما ما. شعر تامر بأنه انتصر على العمدة حتى وإن كان جزئيا. فقد حقق جزءا من هدفه وكرر جملة يقولها دائما بل يؤمن بها "الحجر لا يكسرهُ إلا الحجر، المحتال لا تهدم حيله إلا الحيلة"

***

توقفت الباخرة في الميناء وسمح للمسافرين بالهبوط. دخل باسل مدينة لندن متوجهاً نحو المجهول. وجد نفسه في مدينة لا يعرف فيها أحدا ولا يستطيع التحدث بلغة أهلها. أمضى يوما من التخبط في شوارعها الواسعة وهو لا يعرف مستقره وحالة التوتر يتوسع نطاقها لحظة تلو الأخرى، يحاول محاورة بعض المارة والسؤال عن مكان للمبيت. لم يفهمه أحد حتى ولو بلغة الإشارة. كثيراً منهم ظنوا أنه متسول حتى أنهم أعطوه بعض النقود، وكان يرفض قبولها، فيستغربون. من شدة التعب، جلس على رصيف أحد الشوارع والحيرة لا تفارقه. قال باستغراب محدثا نفسه: "يا إلهي، أين أنا؟! وماذا أصنع؟! وأي طريق أسلك؟! يبدو أن لعنة الضياع بدأت تطاردني في هذا البلد الذي شددت إليه رحالي على غير هدى. وقعت في فخ حقيقي هذه المرة."
فجأة توقفت سيارة أمام الرصيف، نزل السائق ودخل المحل التجاري المجاور، وحدث نفسه: "تحدثت لكثير من المارة هنا ولم يفهمني أحد هل أظل أتحدث لكل من يمر من هنا؟" أنتظر حتى خرج مالك السيارة، تحدث إليه، فهم بعض الكلمات وأدرك أنه عربي ويتحدث بلغة مشابهة للغة جاره سعيد. أدرك الرجل أن هذا الشاب قد تاه وضل الطريق، أخذه من يده وفتح له باب السيارة كي يصعد. صعد ظناً منه أنه سيأخذه إلى مكان للمبيت. على وقع الموسيقى الغربية، شعر بالغرابة طوال المسافة. توقفت السيارة أمام عمارة سكنية، فشعر هنا بالحيرة. أشار عليه الرجل بأن يظل في مكانه وهرع ينادي سعيد، طرق باب شقته وأخبره بالأمر، خرج سعيد مع الرجل للقاء الشاب. تبادلا التحية وأطراف الحديث. ابتسم سعيد وأبت عليه النخوة إلا أن يمد له يد العون. دعاه إلى البيت بعد أن شكر جاره الإنجليزي. روى باسل على سعيد مأساته، فواعده بأن لا يتخلى عنه وبأنه سيقف إلى جانبه في محنته عارضاً عليه أن يعمل معه في مركز المواد

الغذائية الذي يمتلكه في طرف المدينة كعامل في بداية الأمر بأجر يعينه حتى يتعلم قليلا من لغة القوم ويتعلم أيضا أسلوب العمل والتعامل. أجابه بالموافقة، وشكرة على موقفه النبيل.

***

لم يتردد تامر يوماً حيال تنفيذ مطالب السيدة هديل، اعتاد أن يطرق بابها كل يوم للاطمئنان عليها وتسليمها بعض المشتريات. وعند نهاية كل أسبوع، يزورها ويسلمها مبلغاً من المال قسمهُ بينها وبين أمه، لم تشعر هديل بالحرج من مروءة تامر. بل كانت على يقين أن ابنها سيعوضه على ما يفعل من واجب تجاهها. لم يقتصر الأمر على تامر، فسعاد كانت تزورها دائماً للاطمئنان عليها وتعويضها عن الشعور بغياب ابنها.

***

نية الانتقام مازالت قائمة، نفس تامر طويل جدا. فبعد أشهر قرر القيام بعملية ضد العمدة الذي يكن له الاحترام لوقوفه في معركة ضد عمدة قرية "الحراب". هذه المرة، أراد أن يضر العمدة بشخصه فألم باسل وأوجاعه تنخر قلبه، ظلت الفكرة تراوده طيلة الأشهر الماضية، فقد سبق له وأن استخدمها في صغره. كان طفلا مشاكساً يحبذ حضور المعارك، فكم من معركة خاضها نبيل كان من بين اللَّمَّة، يراقب ظهوره على اعدائه ويشعر برغبة تقليد مثله الأعلى. ولهذا السبب كان يتعارك مع باسل متخذين من معاركهما لعبة ومتعة لأن الصور البطولية لنبيل عششت في خلديهما. والفرق بينهما، سعة حيلة تامر على عكس باسل. فعلة الأمس أراد تكرارها اليوم، في سن الثامنة، أراد امتطاء حمار كان يرعى في مرعى الجبل مع قطيع من الأبقار والأغنام. حينها، لبطه الحمار برجله، توجع، فكر بالانتقام، أحضر الفلفل الحار وسحقه ثم مسح به عين عدوه، هاج الحمار وركض وذهب في غير مذهب، لم يهمه ماحصل للحمار، المهم أنه انتقم لنفسه

وأخذ بثأره، اندهش الأهالي لهكذا فعلة ولم يتعرفوا على الجاني، أراد الاستعانة ببرأة الطفولة لتحقيق مكسب وأشفاء غليله لعله ينام قرير العين. اشترى خمسة كيلو غرام من الفلفل الحار الصيفي شديد التركيز، سحقه ووضعه في إناء وعند الثلث الأول من الليل كان على سطح مخزن العمدة، فهو يعرف أن العمدة يشرف أحيانا على إفراغ حمولة عربات نقل المنتجات الزراعية التي تجرها الثيران. في اليوم الأول لم يحضر العمدة فعاد يجر أذيال الخيبة، كرر المحاولة في اليوم التالي، ولحسن حظه جاء العمدة مع أربعة من رجاله، شاهدهم من سطح المخزن، كان قد خلط الفلفل الحار بالماء ووضعه في قدر من البلاستيك، انتظر حتى اقترب العمدة وهم بالدخول إلى المخزن، صب محتوى الإناء على رأسه هو ورجاله، ثم بَرِحَ المكان على عجلة تاركا الإناء على السطح، حال العمدة ورجاله لا يقل عن حال الحمار الذي انتقم منه تامر في صغره، تلك كانت ضربة قاسية على العمدة فقد ظل طريح الفراش والعطار تحت خدمته، وأحيانا يستدعى في منتصف الليل لعله يخفف من آلام تحسس عينيه وأنفه، نصحه العطار بوضع مسحوق البابونج المخلوط بالشاي الأخضر على عينيه في أوقات الليل وعدم تعرضه للغبار وأشعة الشمس، وراح العمدة يشكو من التهاب مستمر.

***

تحسن أداء باسل مع مرور الشهور، وهاهو يحظى باحترام الجميع لأخلاقه العالية وأمانته. ازداد مرتبه الشهري شهرا بعد شهر بسبب نشاطه وعمله الدؤوب في أوقات إضافية. لم يشأ بعث أي مكتوب تفصيلي عن حياته إلى القرية قبل أن تتحسن أوضاعه، أجبر نفسه على نسيان كل من يهمه شأنه حتى يجمع مبلغا من المال لا بأس به ويحوله إلى أمه ويكون بذلك قد أسعد من تفانى في إسعاده.

***

استعاد العمدة جزءا من عافيته بعد فترة طويلة من الحادثة، ذهب إلى مقره واستدعى تامر، ظن تامر أن أمره ربما قد كشف، تحلى بالثبات وذهب إلى العمدة مستعدا لما يواجهه سوى كشف أمره أو لا، طلب منه العمدة الجلوس أمامه بعد أن رحب به، وراح يشكوه ما أَلَمَّ به، شكر تامر على زيارته المتواصلة عندما كان طريح الفراش وأفصح لتامر:

- يا بني أنا واثق أن تلك المكيدة هي فعل عمدة "الحراب".
- هل لديك دليل تبني عليه احتمالك؟
- إنه ماكر ومخادع. (العمدة واثق من تكهناته، فقد سبق له وتعاون مع عدوه على قتل أشخاص وكلٌ منهما لديه أحجية ضد الآخر وأزمة ثقة، والكلام مازال للعمدة...) أريدك أن تذهب معي إلى قرية "الحراب" للقاء عمدتها والتفاوض معه على نقاط صلح، وإذا حدث مكروه لا قدر الله تكون إلى جانبي فأنت شاب جلمد وشجاع.
- رأسي فداك ياعمدة. "قالها وهو يضرب قفاه"
- بورك فيك يابني، لنذهب الآن.

ذهبا معاً فالعمدة عمد إلى أخذ تامر دون رجاله، لمعرفته بشجاعته التي اتسم بها واشتهر بها مؤخرا. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى، أخذ جميع رجاله رسالة استفزازية وقد يؤدي ذلك لنشوب معركة هو في غنى عنها، وقدوم عمدة مع رجل فقط يدل على الرغبة بالتفاوض وهذا يعتبر نصاً عرفياً معمولاً بها. جاء مساعد عمدة "الحراب" يناديه في مقره بأن عمدة "التوليب" دخل قريتهم ومعه مرافقه، عرف العمدة أن حليفه القديم لا ينوي الشر. وما أن جاء وجلس معه، حتى عبر له عمدة "الحراب" عن غضبه منه، ولم يكمل حديثه حتى قاطعه العمدة متوددا:

- أنا لم آت لنستعرض الماضي، جئت لآخذك بين أحضاني وأعتذر عما بدر مني، أنت صديقي ورفيقي، وما حدث سوء تفاهم والرجال تختلف لكنها لا تنسى المودة.
- لكنك اعتديت على قريتي أكثر من مرة.
- ردة فعل طبيعية بعد إحراقك متجري.
- أنا لم أفعل ذلك، وليست من طباعي الحيلة بل المواجهة.

"كم أنت كاذب أيها الوغد، أي مواجهة وأنت تقتات على الحيلة". هذا ما قاله عمدة "التوليب" في سره. ثم تحدث جهراً:

- ظننتك أنت الفاعل بعد فشلك بتفاوض مع مالك الحقل.
- ذلك شأنه، إذا رفض البيع لي فلماذا أحاربك أنت؟!

"مازال ينكر، همم... الأيام بيننا". هذا كلام عمدة التوليب في سره مجدداً.

- يا عمدة لقد عانيت من الصراع القائم بيننا، فتحالفنا أجدر من الخصام وأنت تعلم ما حدث لي الأسبوع المنصرم. "هكذا قال عمدة التوليب".

باستغراب، تساءل عمدة "الحراب":

- ماذا حدث لك؟!
- ألم تعلم؟!
- ومن أين لي أن أعلم؟!

"أتسطنع عدم المعرفة وأنت من فعل ذلك؟! "هذه شكوك عمدة التوليب يقولها في قلبه"، وراح يشكو عمدة "الحراب" ما أصابه من مكروه.

- هذا خبر يفجر القلب غضباً. "ردّ عمدة "الحراب" على شكوى جليسه".

صاح عمدة "الحراب" مناديا أحد رجاله وطلب منه ذبح شاة على شرف عمدة "التوليب"، أوقفه عمد التوليب قائلا:

- لن أكون ضيفك إلا إذا نسينا الماضي وتصالحنا وتعاونا.
- أنت حليفي يا عمدة. منذ وصولك في الوهلة الأولى إلى هنا نسيت حقدي وهذه عادتنا.

هذا الحدث جعل تامر يتعرف على أساليب كانت خفية عنه والآن أصبحت جلية. فهم ما يرتبه المجرمون في الكواليس، هذا الصلح أفاده معرفة بهذا الاتجاه، إمتعض من الوئام بينهما، الصلح يعني عدم اصطدامهما مجددا وهذا ما لم يحبذهُ. فمبدأ "ضرب المجرم بالمجرم واجب" معلق .

***

اقتحام غير متوقع لمتجر السـيد نذير من قبل امرأة مخفية الوجة بنقاب. على إثرها، وقف أمام حدث لم يفهمه، أحد عماله كان وأقفا امامه قبل أن ينصرف باشارة من سيده، الحدث أوقف نذير متسـائلا. حال المرأة مرعب، بكاء، رعشـات، اهتزازات صـوتية، وربما عرق من تحت الملابس المدعكة بالتراب. ماوراءك ياامرأة؟! "تسـائل نذير مقتربا منها". نذير رجل مسـتعبد للآخرين، يحب أشـياء معدودة، ويكره الكثير، طباعه جلمدية، ارتكب أخطاء دموية، والنقطة الجميلة في صـفحاته المأسـاوية اندفاعه نحو الحق بشـكل نادر إذا أراد أو دفع إليه بطريقة يكون فيها سـيدا للموقف. كان ومازال يقف إلى جانب الشر وله بعض اعتقاد إنه مخطىء. فهو من النوع الذي يعشق المقامرة والمكابرة وإن كانتا في اتجاه معاكس لقوانيين البشرية، لذا، يخفق دائما في ثوراته العصبية، إنه مسير أكثر مما يكون مخيراً. نذير مازال بحالة اندهاش من منظر قل ما يحدث: كفي عن البكاء وقولي ما وراءك؟!

وكأن مدية أقامت كياننا في باحة لسانها، أ.. أ.. أر.. أريـد... حقـي.. "ما استطاعة قوله حتى اللحظة"

يخلج يديه. ياالله... أمعقودة اللسان؟! من نهب حقك؟

...أنت.

مجنونة أنتِ؟! ومن أنت؟ ما سـبق لي ونهبت امراة. "دهشـته تتعالى، يريد توضـيحاً ولا يحصـل عليه". تنفجر في وجهه صوتا هز جانبي رأسه:"أنت...أنتـ السبب".

يرد بجنون مطلق: "ويحك أيتها المجنونة، وما دخلي بك، ألا افصحت، إهدئي واجلسي، (يقرب لها مقعداً).
يطل برأســه من عتبة المتجر آمرا أحد عماله بإحضـــار ماء، يعود إليها ليقف أمامها يحدق في عينيها عن ارتفاع لجلوســـها محاولا التعرف عليها. لم اذهب اليوم لأي مكان حتى أفعل شيئاً وأنسى أني الفاعل، "نذير يحدث نفسه". قدم لها الماء لتشرب... مجنونة، أقســم أنها كذلك... يحدث يديه المســتغربتين وعيناه تتصفحانها وهي تستدير إلى الحائط تاركتة له ظهرها، راحت تشــرب الماء بشــغف يثير الشــفقة من تحت النقاب كي لا يرى وجهها، أشــار نذير لعامله بالخروج. عادت لتقابله وراحت تهدأ تدريجيا. أتريدين المزيد من الماء؟ "سألها". لا يا سيدي، "ردت عليه".

- والله ما أحترت في حياتي قط، أسـكرت رأســي الحيرة، قولي ما وراءك؟ ومن أنت؟
- أتنصفني من نفسك؟
- بالله عليك، كيف أنصـــفك من نفســـي وأنا لا أعرفك، أنزعي غطاء وجهك لأعرفك، وســأعيد لك مظلمتك إن أنا.... ،(يمد يده لنزع غطاءها فاقدا روح الصـــفات بسبب الحيرة)..ظلمتك..

تصرخ في وجهه وهي تدفع يديه بقوة: "حتى أنت!!!"

- مــاذا أفعــل إذا أفقــدتني عقلي، إمــا أنــا المجنون أو أنت...،(بتوتر يتابع..) أردتي إذهاب عقلي؟!
- أعطني حقي....
- وما هو حقك؟!
- رأس ساعد؟
- يا حســرة من هذة الدنيا، تارة أنا ظلمتك، وتارة ســاعد!!! "قالها وهو يضرب كفا بكف"
- أنت من ســـكت عن الحق. وجعل الســـفهاء يعبثون بنا. مظلمتي عندك، أريد رأس ساعد بين يدي.

- قولي ماذا فعل وسأنتصر لك.

تجهش بكاء وحرقة تزلزل قدم نذير وهي تقول بألم يمزق مسود القلوب:

- هتك عرضي.
- لم أسمع، أعيدي ما قلت بوضوح. "غير مصدق ما يسمع مكذبا أذنيه"
- أغتصبني. "تظهر يديها الممزقتين باظافر ساعد من تحت لثام"
- قتل ساعد ابن الكلب... قتل ساعد. سأذهب للعمدة. "يردد هذا وهو يتلفت يمنة ويسرة"
- ومنذ متى يأبه العمدة لكرامة النســـاء؟! أريد حقي منك لأنك ابن تراب القرية.

خرجت وتركته مثبت القدميين فوق موج الغضـــب، يصـــرخ مناديا عماله كمجنون مســحور "أحضــروا ســاعد في الحال، كبلوه وضـــربوه". خرج من المتجر يضـــرب الأرض بجنون متوجها إلى وســط القرية وكأنه يريد فعل شـــيء، يقف أمامه عنيد. يأمره بالبحث عن ساعد وإحضاره قطعا ممزقة، يرفض عنيد التحرك دون أمر العمدة، يصـــفعه على وجهه وهو يلعنه ويلعن ســـيده، ذهب عنيد ليخبر العمدة. عاد نذير إلى متجره بانتظار عماله. دقائق وجاءه العمدة يتبعه رجاله. ماذا حدث يانذير حتى تلعنني؟!

- ساعد اغتصب امراة.... ثم إني لعنت عنيد لرفضه أمري ولعنت سيده الذي استخدم أحمق مثله.

العمدة يستفيد من سوء أخلاق بعض الشباب العاطل عن العمل. فهو يؤمن بالفســاد لينشـغل الأهالي عن قضــاياهم الأســاسـية. ويراهن عليهم عند الحاجة لأنهم المتضــررون من إحقاق الحق وإرساء العدل. لذا، هم من سيدافعون عن الفساد بشتى أوجهه ولن يثنيهم عنه شيء.

- إهدأ وسأعالج القضية.

- ماذا ستفعل يا عمدة؟
- سأزوجه المرأة. هكذا يقول القانون.
- أهذا حكم عاقل!!! أتسقط جريمة الاغتصاب؟!
- نعم، إذا أعلن قبوله الزواج منها قبل نطق الحكم. هذا هو القانون يا صـــديقي. لم أقل ذلك من بنات افكاري، بل أن القانون يقدم حلول لهكذا حالات معقدة بالزواج.
- نعود لعرفنا وعاداتنا وقبائلنا والحكم هو قتل المغتصب يا عمدة. قانونك لا يساوي قشرة بصلة أمام شرف امرأة.
- ليس قانوني يا صاحبي. قلت لك هذا قانون الدولة، قانون الثورة . بترخيصك للقانون والحط من مكانته سيعرضك للمساءلة القانونية. من هي المغتصبة؟
- أتريد أن تقتل بذنب غيرها يا عمدة؟!
- همم.....

أمر رجاله بإحضار ساعد. لم يكمل كلامه حتى تعالت أصوات عمال نذير وهم يجرون ساعد، رموه أمام المتجر، ظل مترنحاً على جانبه الأيسر وهو مكبل، توافد الأهالي مستمر، هم نذير با الخروج إليه، استوقفه العمدة بساعديه: سآمر بزواجه من المغتصبة.

- ظننتك تمزح!! يجب أن ينال جزاءه العادل وحســـب عرفنا وعاداتنا القبلية.

خرج العمدة ليقف أمام ساعد ويرمقه بنظرات لا يفهمها إلا هو. نذير تأخر ثواني معدودة تناول بها خنجره، اخترق اللمة، أقترب من ســـاعد، ووجه له طعنات مفاجأة أوقفت قلوب الحاضـــريين الجاهلين الســـبب، توزعت طعنات في بطنه وظهره، أمسك العمدة ورجاله نذير الفاقد أعصابه. صدم الناس وزعوا صـــرخات ورجفات حركت الســـكون. بدا العمدة في موقف حرج من غيرة نذير وثأره لشـــرف امرأة. ومن بدأ يفهم السبب راح يؤيد قتل ذلك اللعين، وليس أمام العمدة إلا استدراك الوضع وضمه إلى رصيده ليستفيد بمكره:

- هذا جزاء من ينال من شـــرف امرأة،،(قالها بصـــوت مجلجل مســـمعا الحضـــور، ثم يوجه أوامره لرجاله). إســـحلوه وارموه خارج القرية. "قالها بغمزات عينه لعنيد الذي فهم المراد. يســـحله امام الجميع، وخارج القرية ينقل إلى المشفى".

سر الأهالي من معاقبة ساعد، وفي المتجر قال العمدة:

- ما كنت أحبذ أن يرى الأهالي يديك ملطخة بالدماء، لأني أحرص على عدم إظهار مدى دمويتنا، لقد نسبت ما فعلت لنفسي وقلت إني من أمرك كي أكون المسؤول أمام الأهالي، وسأتولى كتابة التقرير للأمن بأن الأهالي هم من غاروا عليه حرصـــا عليك من أي مســـاءلة قانونية. لا أريد لك الدخول في متاهات متعبة، فأنت صديق ورفيق عمر.

"شـكره وهو مشـتت الذهن يمسـح بقايا الدماء من يديه". غيرة نذير جاءت نتاج عاملين، الأول اســـتنجاد المغتصـــبة به دون غيره ملتمســـاً لها عذر إخفاء وجهها خوفا من العار الذي ســـيعتريها إذا كشـــفت من هي. والثاني، خشـــيته من تكرار الجريمة واضـعا في اعتباره أن الاغتصـاب قد يطال أي امرأة دون تفضيل لمكانة أهلها في المجتمع، فقد تكون لو قدر الله أحد أهله. الحادثة زعزعت كيان الأهالي جميعا، الذين عميت قلوبهم عن معرفة الضحية التي تصرفت بوعي لإخفائها وجهها وكتمان سرها وكانت بين النساء متسائلة عمن تكون الضحية.

***

تسلم باسل راتب الشهر التاسع، خصص بعضاً من وقته ليشرع في الكتابة إلى كل من أمه وسعاد وصديقه. لم يخل ذلك من الشعور، ولأول مرة، بالفرح والارتياح لأن الحظ بدأ يبتسم له بعد تجهم طويل. رسالتهُ لصديقه لم تخل من المدح لوفائه. شرح له كيف تجري أمور حياته وسرد له تفاصيل المال الذي سيبعثهُ

إليه. طلب منه شراء قلادة لأم تامر كتسديد الدين وتقاسم جزء من المبلغ بينه وبين أمه. أما ما تبقى فقد طلب منهُ الاحتفاظ به حتى يبعث لهُ المزيد ليتمكن من شراء قطعة أرض تطل على النهر. أما الرسالة التي تخص أمه وسعاد، فكانت متنفسهُ للحديث عن جزئيات الحياة اليومية في لندن ومساحة يبث فيها لواعجه وحنينه إليهما، ولم ينس أن يبرر لهما سبب انقطاعه عن المراسلة. لَمَّا فرغ من الكتابة، طلب من زميل لهُ في العمل أن يوصل الرسائل إلى مكتب البريد وطلب منه أيضاً تحويل النقود باسم تامر عن طريق سمسار تخصص في تحويل الأموال إلى بلده.

***

تسلم تامر ما وصله من لندن، وهرع إلى السيدة هديل فسلمها الظرف في عجلة، والفرحة منه لا تكاد تسع المكان فأخذته وفتحته محاولة قراءة صائبة مع أنها لا تستطيع نطق حرف واحد، تنظر إلى السطور وكأن ابنها سيطلع من بين الكلمات، تمسح الورقة براحة يدها ثم تشتم رائحتها وتقول: "إنها رائحة ابني، ماذا تحمل بطياتها؟ ماذا قال باسل؟ خذها واقرأها لي". قرأها عليها وهي رافعة يديها إلى السماء تدعو الله أن يوفق وحيدها. بدموع الشوق لفلذة كبدها، أخذت الورقة من يد تامر، ودخلت لتكمل بكاءها في غرفة ابنها. غادر تامر المكان متوجها نحو منزل سعاد، التقى بها عندما كانت تنسق أشجارها في فناء المنزل، رمت ما كان بيدها لشعورها بأن من وراء هذه الزيارة أمرا سارا، تبادلا التحية، أخذت ما وصلها من لندن، قرأتها ثم دخلت المنزل وأخبرت أمها بمضمون الرسالة. لم تسعد الأم لهذا المرسال، بل كانت أكثر تشاؤما من الأشهر الماضية لأنها على علم بنوايا زوجها لما حدثها في الليلة الماضية بعد أن أراحه الله وأزاح هماً كان يصاحبه ليل نهار برحيل باسل حسب قوله. شعرت سعاد بما يدور خلف الكواليس من خلال استقبال مسامع

والدتها الأخبار القادمة من لندن. لم تظهر ما فهمت في نفس اللحظة ولكنها توجهت إلى مخدعها لتفكر بحل يخرجها من كيد والدها ومن معه، جلست على فراشها، ويدها على خدها لفترة طويلة حتى استقرت على فكرة رأت أنها ستكون ناجعة للخروج من هذا المأزق إلى أنْ يعود باسل من سفره.

***

جاء المساء بمفاجأة مثيرة لنذير عندما دخل على ابنته وهي تتعبد، جلس ينتظرها على مطرحها. فرغت من صلاتها. همهم وقال:

- يا ابنتي! أريد أن أخوض معك في حديث يخص حياتك. (صمت قليلا ثم استأنف الكلام قائلا...) لقد رحل باسل الذي لوث عقلك ولن يعود، رحل دون أن يبلغك. وهذا دليل على بؤسه وعدم إصراره على ما يريد. لقد كان يريد التقرب منك لإذلالي، ظن أنه سينجو من الفقر. لهذه الأسباب، اخترت لك ابن العمدة.

بنظرات حادة إلى وجه ابنته المبتسمة، توقف فجأة عن الكلام، فقالت:

- أكمل يا أبي!

هز رأسه واستغرب لابتسامات ابنته المتكررة، وقال:

- لقد قررت أن يكون عماد زوجا لك.

ضحكت وقالت:

- هل أنا جميلة يا أبي أم لا؟

استغرب مجددا مزاج ابنته وقال:

- أنت أجمل فتاة. ليس بنظري أنا كوني أباك، بل بشهادة كل من رآك.
- وكم سيدفع عماد مهراً لأجمل فتاة؟

هز رأسه عدة مرات، وبسرعة تدل على عدم تصديق ما تسمعه أذناه وقال:

- من حقك أن تطلبي ما تريدين.

انتصبت أمام المرآة، وبدأت بتصفيف شعرها ثم استدارت فجأة نحو أبيها الجالس على سريرها وقد أعمت عينيه الدهشة، وراحت تملي شروطها:

- منزل فاخر يطل على النهر، وحقل "الجمان"، وعقد من اللؤلؤ.

ضحك حتى انقطعت أنفاسه، وهو يقول:

- أنت تقولين هذا الكلام، ....(وهو يضحك) بالله عليك من أين سيحضر عقد اللؤلؤ؟! لا أنا ولا غيري سبق له وأن رأى لؤلؤة واحدة ما بالك بعقد؟!

ردتْ بحنق:

- أو تظن أن هذا كثير عليّ؟! " قالت هذا بعد أن أدركت مبالغتها بطلب الؤلؤ"

قال مستلطفاً:

- تستحقين أكثر من هذا بكثير، ولكن كيف يمكن لعماد وأبيه دفع ما تطلبينه مهرا لك؟! هل تعلمين أن عقد اللؤلؤ لا يقدر على شرائه أحد؟

وقف واقترب منها وأمسك بيدها وقال وهو يضحك:

- أرى بأنك أصبحت تفكرين بالمال؟! منذ متى هذا؟!
- منذ الآن، وسأقبل بالزواج من عماد إذا نفذ طلبي.
- أهذا كل ما عندك؟
- نعم هذا كل ما عندي، أخبر عماداً بما سمعت، وسأمنحه فرصة لتنفيذ مطلبي. وإذا لبى مطالبي سأكون له زوجة مطيعة.
- ماذا لو لم يستطع تنفيذ مطالبك؟
- حينها سيتقدم لي شخص مقتدر يستطيع إسعادي، ومنحي ما أريد.
- سأخبر العمدة بكل ما سمعته منك.

استأنف الضحك وخرج وهو يقول:

- ابنتي أصبحت تعرف أن لكل شيء ثمنا.

ردت عليه بسرها:

"أعرف أن عماداً لا يقدر على ذلك. وإن كان يستطيع، فلن يفعل، تلك أسرة تحب أن يكون المال لها لا سواها".

***

خرج السيد نذير من منزله متوجها إلى عمله. وفي طريقه لمح السيدة هديل قادمة من السوق، تعمد أن يقترب منها وتظاهر أنهُ تفاجأ لرؤيتها، وكأنه وجدها صدفة في طريقه. اصطنع الارتباك والتلعثم، وضع ناظريه في وجهها المتجهم والناضح بالكراهية تجاهه، فبادرها:

- هديل!!! (أدارت رأسها نحو الاتجاه الآخر بحيث لا ترى وجهه وظلت صامتة، فتابع كلامه...) إذا كنت تحتاجين إلى أي خدمة أنا تحت أمركِ. (تحرك قليلاً نحو اليمين ليقابلها، استدارت نحو الشمال، استأنف حديثه مجدداً...) هديل!!! لمَ تتعمدين أهانتي دائماً؟! ماذا أذنبت في حقك؟! قولي لي. ماذا أذنبت؟!

قالت بتهكم:

- لا ذنب لك سوى أنك تسببت بموت الرجل الذي لم ولن أحب سواه وحاولت قتل فلذة كبدي... أبعد هذا تصطنع البراءة؟! وتتساءل عن أي ذنب اقترفته، ثم لا تشعر بالخزي وأنت تقف أمام امرأة وتحول بينها وبين الطريق؟!
- أنا لا أقطع الطريق عليك أبدا... وأنا مستعد على الدوام لتلبية أي طلب لك مهما كان وأنت تعرفين ذلك جيداً.
- أتسخر مني يا هذا؟
- ما عاذ الله يا هـ.....

قاطعته بغضب:

- بعد أن شردت ابني وفرضت عليه حظراً وجعلته يتنقل بين القرى للبحث عن عمل؟!
- لو طلبت مني أن أساعده لفعلت ذلك من أجلكِ.
- وهل تظن أني ألتمس الرجاء منك يوماً. هذا لم يحدث ولن يحدث لو دفعت ثمن ذلك دم ابني، لو قتل ابني عندما أرسلت من يقتله لكنتُ قتلتك أمام الملأ.
- هكذا أنت دائماً لا تتغيرين بعدوانيتك وحدتك الزائدة، الشيء الذي لا ينسجم مع ما وهبك الله من حسن وبهاء.

تركته واقفا وأسرعت بالخطى. "حاولتُ أن أبرى نفسي أمامها، ليتني طلبت منها نسيان الماضي... ولكن زوجها هو من ظلمني وليس العكس، وابنها أراد أن ينتقم لأبيه عن طريق ابنتي... هل كلامي كان قاسياً عليها؟! نعم ربما لم أكن موفقاً بانتقاء الكلمات، ولكنها شتمتني، سأريها إذاً....". هذا ما كان يحدث به نفسه بعد مغادرة هديل للمكان. ارتبك وقضى لحظات وهو يبحث عن عود الثقاب في جيوبه حتى وجده وأشعل سيجارته ودخنها وهو واقف ومن ثم ذهب إلى العمدة لأبلاغ بمطلب ابنته.

***

السيدة رحمة أم زكريا، وصلت إلى الأربعة وخمسون عاماً عاما، كانت عملية ونشيطة حتى أَلِمَ بها إرتفاع ضغط الدم. هي لا تعلم شيء عن ذلك وما اسمه وكيف تتعامل معه. هي تعاني من الصداع المفاجئ، الدوخة، الدوار، قلة وضوح الرؤية، وصعوبة في الحفاظ على التوازن. كم مرة زارت عطار القرية، ورغم أنه مجرد عطارا إلا أنه وحسب الخبرة المتوارثة فقد نصحها بما يجب عليها فعله، لكنها لم تفهم منه طبيعة مرضها.

أم زكريا، عاشقة للأرض وحياة الريف، تعيش على ما تجود به بقرتها ودواجنها. ابنها الأصغر جندي في الجيش مرابط على حدود البلد ولا يتسنى لها رؤيته إلا عند الإجازات السنوية

القصـيرة. وابنها الأكبر مغترب في الحبشـة منذ سبع سـنوات ولم يرجع حتى السـاعة، مكتفيا برسـائل خطية يبعثها لأمه كلما وجد عائدا إلى أرض الوطن. زوجها سـبقها إلى الخلود قبل ثلاث سـنوات. لها عائلة في قريتها الأم، والتي تبعد عن قرية التواليب مسيرة خمسة عشر ساعة. شوهدت أم زكريا بالأمس في آخر النهار وهي في طريق عودتها إلى منزلها. مرّ اليوم التالي ولم يراها أحد. وعند أديم النهار، تنبهت السـيدة كريمة لغيابها فذهبت إلى منزلها، طرقت بابها ولم تتلقى ما يدل على وجود أنفاس. وزاد قلقها أكثر عندما رأت قن دجاجها موصـد وكذلك حظيرة بقرتها. أخبرت زوجها، والأخير بدوره تحرك وتوصل إلى قرار كسر باب منزلها. تم ذلك بإشراف مباشر منه كونه العمدة وأمام المسـجد. دخلوا، فوجدوها متوفيه ومتصلبة الجسد كأنها عيدان حطب، تبين لهم بأنها أفضَت إلى ربها قبل سـاعات طويلة. بعد نقاش بين الحضـور، قرروا تشـييعها إلى مثواها الأخير، وإرسـال شـخص إلى قريتها الأم لإعلام أهلها بالمصاب الجلل، فالخبر لن يصل قبل مايزيد عن خمسـة عشـر سـاعات مسـيرة ناقل الخبر سـيرا على الأقدام لوعورة الطريق وبُعد المسـافة. أقاموا عزائها وبكتها النسـوة، وأمضوا يومهم بالترحم عليها.

السـيدة إحسـان تولت تقديم العلف لبقرة أم زكريا وأوصـدت الحظيرة حتى يحضـر أحد أقاربها. وفي اليوم التالي، ذهبت لإطعام البقرة، فتحت الحظيرة وإذا بها لم تتناول علفها. طلبت من ابنها تامر فك رباطها ودحيها إلى عَشـيب ووضـعها بين القطيع. وعندما ضَـرَعَتِ الشّمس جاء لاخذها، وتبين له أنها لم تأكل، أعادها إلى حظيرتها وحدث أمه بذلك. ذهبت الأم من فورها للتحقق وبعد إن تحسـسـت ضـرع البقرة عرفت مدى جفافه رغم حلوبه. ذهبت إلى السـيدة هديل وقالت لها على عجل:

- بقرة أم زكريا لم تأكل ولم تشرب أيضا.

بصدمة سألتها هديل:

- كيف عرفتي ذلك؟!.. وهل أنتِ متأكدة من جفاف ضرعها؟! البقرة ضَرَّعَاء!
- قدمت لها العلف والماء بنفسي وساقها تامر إلى عَشيب، وقبل قليل لاحظت جفاف ضرعها. تعالي معي لنحاول اطعامها وسقيها.

البقرة تعودت على أم زكريا في إطعامها والتي لم تغب عنها يوما منذ ولادتها. تعودت على حنية أم زكريا، ورقتها، ومسح رقبتها وهي تطعمها، وبل أنها تبقى معها كصديقة مخلصه ودودة لا يفرقها عن صديقتها إلا الموت. حاولت السيدة هديل بشتى الطرق إطعامها وجاءت نسوة ذات خبرات في تربية الأبقار وباءت المحاولات بالفشل الذريع. فالبقرة يهزل جسدها، وتخور بما ينم عن شيء تدركه.

في منتصف الليل وصل أخو السيدة رحمة واستلم المنزل وأملاكها وأبلغوه بأن البقرة لم تأكل ولم تشرب منذ وفاة أم زكريا. ذهب للتحقق وكأن بيده الحل، حاول اطعامها، لكنها رفضت. تناول عصى وراح يضربها بعنف تدريجي ويحاول اطعامها قسرا، رفضت وخارت بما تبقى منها. لم يجد وسيلة إلا إحضار ثورا فَحِيل هَائِج تستأنس به وينسيها ما هي فيه. وكما يفعلوا عند تلقيح البقر، فعلوا معها اغتصابا، لم تعر ذلك إهتماما فقد خارت قوها من قبل وأقترب منها الردى. بركت أمام ثور هائج بالكاد تحكموا به واعادوه إلى مربطه. إستمرت محاولة اطعامها لليوم التالي حتى أنها بركت ولم تقف منذ ساعات، وقواها تنهار تدريجيا فقد أكمدها الحزن. هنا، أتخذ أخو السيدة رحمة قرارا سريعا بذبحها وبيع لحمها. فأرسل في طلب أبو أحمد القصاب ليتولى المهمة لقاء أجر. جاء القصاب على عجل ووصل وهو يلهث فوجد البقرة في نفسها الأخير، إذ وصلت لحشرجة الموت، سقط رأسها إلى جانبها. كَمِدَ الرجال، وَاكْفَهرَّتِ الوجوه، وضربت الأكف، تنهدت

الأنفس حسرة، ترحمت القلوب على السيدة رحمة، فقد افتقدتها بقرتها وماتت عليها قهراً. كلٌ يتصفح وجه الآخر توحدهم جملة واحدة يطلقونها بصـدق "البقرة حسـاسـة، ليت الإنسـان بهذا الإحساس والوفاء والإخلاص". سحبوا جثمان البقرة إلى مثواها الأخير المتمثل في قمة جبل ترمى فيه عادة بقايا الذبائح وموتى البهائم لتنتهي بها رحلة الحياة طعاما للجوارح والكلاب والذئاب..

***

مرت خمسة أشهر، استطاع فيها العمدة أن يبني بيتاً مقبول نوعاً ما يطل على النهر من جهة وعلى الوادي من الجهة الأخرى، ولم يسعه الوقت للإيفاء بوعوده، أو ربما أنه لا يريد لشيء ما في نفسه. السيد نذير متعاطفا مع صديقه مما دعاه إلى محاولة إقناع ابنته بالعدول عن قرارها، ولكنها كانت تجيد فن المراوغة حتى يعود من رحل وأخذ معه قلبها.

***

استطاع تامر أن ينفذ ما طلب منه باسل فراسله يخبره بأنه أشترى له أرضاً واسعة تطل على النهر بسبعين متراً بسعر معقول، وطمأنهُ على أمه مخفياً عنه بعض أحداث القرية التي قد تؤثر عليه سلباً. وصلته الرسالة تحمل له البشرى، بالرغم من ضيقه لعدم استلامه رسالة من سعاد إلا لأنهُ فرح كثيراً. فالأخبار التي وصلت من القرية زادت من عزيمته وخففت عنه ألم الشوق والحنين. قرر مواصلة عمله حتى يضمن لنفسه حياة مثلى في المنطقة ويسعد سعاد لظنه أن المال هو سبب حرمانه منها وسبب تعاسته.

***

جاء السيد نذير متضايقا من مطالب ابنته التعجيزية وطلب تفسيراً لتصرفاتها، حاولت تبرير نواياها، وإذا بالأب يسمع لها ويأخذ ما تقوله في عين الاعتبار، فقد أجادت فن الحيلة.

- أرى إنك تضعين شروط صعبة. "قال الأب"
- لا أريد العمدة سيد هذه القرية وأغنى رجلٍ فيها. أين ذهبت أنت يا أبي؟ يجب أن تكون الأغنى وليس هو، فوالله لو أصبح أغنى منك لنال منك بطريقة ما، وما أبدى لك احتراما قط. أرجوك، لا تجعلني سلعة رخيصة ولقمة سائغة لتلك العائلة، بل إجعل لي قدرا لأصبح ذات شأن في نظرهم سواء قبل الزواج أو بعده. ومهري الثمين جزء من ثروتك، وجل همي هو بقاء عائلتي الأقوى ماديا، لأن المال هو مصدر القوة والبقاء في هذا العنصر البشري.

هز رأسه مقتنعا وقال:

- هذا مايجب أن يكون، آه ياسعاد... ليتك كنت ولدا، آه، منك يازمان.. (تذكر أبنه الذي مات حرقا.. تنهد بألم) على أي حال أنتِ أدهى وأفضل من عشرة أولاد في نظري.

ضحكت وقد ودت أن تسيطر عليه بالتقرب منه. هذا عكس مبدأها، لكن الحاجة إلى الكيد في هذا الظرف باتتْ مسألة حتمية للمماطلة، وجدت بوادر أمل في الحصول على ما تريد، وجل ما تريد هو الوقت الطويل وبعدها سيقضي الله أمراً. لذا، استغلت أمنية والدها "لو كانت ولدا"، دنت من أذنيه وقالت له:

- اذا أرت عروسا لتأتيك بالولد، فأبلغني.

ضحك ودنا من أذنها وقال لها هامسا:

- ومن التي اخترتها لتكون جديرة بنيل استحسان السيد نذير.
- لن أقول لك الآن، حتى آخذ رأيها.
- وماذا عن أمك؟
- هذا شأنك، أنا إلى صفك أبي الحبيب.

اقتحمت قدما الأم الغرفة فوجدت همسات بين زوجها وابنته، فقالت مستغربة:

- أركما منسجمين!!

مسح على شعر ابنته وهو يرد على زوجته:

- الآن عرفت أن سعاد هي عكازي عند العجز. "قالها وغادر الغرفة".

ماذا دها هذا الرجل؟! "تساءلت الأم في حيرة من أمرها"، سعاد تكتم ضحكها وتغطي فمها براحة يدها، تشير لأمها بأن تنتظر حتى سمعت صريف باب المنزل، جددت الأم تساؤلها، لم تجد سعاد حرجا من والدتها بإخبارها بما مازحت أباها، ضحكت الأم وقبلت ابنتها وهي تقول:

- أترضين بضرة لي؟
- والله ما قصدت إضعافك، ولكنها مزحة وحيلة.
- لا عليك، فأنا لا آخذ كل شيء في هذه الحياة على محمل الجد. ثم أني أشفق على من تعيش معه إلى جانبي. أبوك رجل صعب والحياة معه مأساوية وأنت تعرفين ذلك، تحملت منه ما لا يطاق.
- إذا، أبي يفكر في الزواج.
- مستحيل أن يفعلها أنا أعرفه جيدا.
- ولمَ؟! "تسألت سعاد"

واكتفت الأم بالقول:

- قلبه لا يرق إلا على وتر امرأة كان يود الظفر بها في شبابه. لكن الحظ لم يحالفه، ربما لمعرفتها بطباعه الحادة أو أحبت غيره.

تداركت فضول ابنتها فقطعت عليها حبل التساؤل:

- أنت لا تعرفينها لأنها غادرت القرية قبل أن تولدي.
- ألم تكن زوجتة الأولى؟ " أرادت سعاد معرفة المزيد"
- لست متأكدة. وكفي عن التساؤل.

***

تجاوزت فترة إقامة باسل العام والنصف. وبمساعدة سعيد، حصل على إقامة وأخذت حياته تتحسن يوما بعد يوم. وذات يوم، وبينما كان يعمل على ترتيب الطلبات في المتجر، مّر بجانبه مالكه، وشاهده وهو مبتسم فتقرب منه، وخاطبه:

- أيمكن لي أن أعرف ما سر هذه الابتسامة الجميلة؟
- إني أبتسم دائماً عندما أعمل.
- ولماذا بالذات عندما تعمل؟! ألا تبتسم طوال الوقت؟!
- إن الابتسامة عند العمل تجعلني أستمتع به.
- غريب! وما أدهشني أن لك أكثر من عام ونصف العام وأنت تعمل معي، ولم تأخذ يوماً واحداً للراحة. لماذا لا تفعل كما يفعل زملاؤك؟
- العمل بالنسبة لي متعتي الحقيقية، أنه الطريق الوحيد لتحقيق أحلامي. ولولا العمل المتواصل المتقن، ما استطعت أن أنطلق وأحقق الهدف الذي أتيت من أجله إلى هنا. وكلما أعمل أكثر أتقاضى أجرا أكثر وهذا ما يساعدني ويجعلني معجباً بهذا البلد.
- هل تريد أن تأخذ يومين أو ثلاثة أيام كاستراحة من العمل، كي تزداد نشاطاً وحيوية؟ سأمنحكك إجازة لمدة يومين مدفوعة الأجر. إن العمل المتواصل ينهك الجسم.

أجابه موافقاً:

- أليس هذا محرجاً بالنسبة لك سيدي؟

ضحك وقال:

- على العكس إني مسرور منك. ولهذا قررت زيادة راتبك الشهري.

انشرح صدره فقال:

- قدمت لي الكثير يا سيدي.

ربت على كتفه وقال:

- الأكثر من ذلك إخلاصك وأمانتك وحبك لعملك. ولك أن تذهب الآن للاستراحة، وللتنزه لتتعرف على المدينة إن

أردت وخذ هذا "الكارت" فيه العناوين الخاصة بالمركز إذا ضللت الطريق، عليك بتقديمه إلى سائق سيارة الأجرة وسيوصلك إلى هنا.

شكره وهم بالخروج وسعيد يتصفح وجهه، وكأنه يفكر، استدرك باسل من عتبة المتجر، أمره باللحاق به إلى زاوية المتجر.

- في مثل هذه البلاد الأمين كنز، والتعامل معه ثروة، وقل ما يوجد شخص في نزاهتك وأمانتك ولهذه الصفات أردت أن أعرض عليك مشروعاً، ومناي أن توافق.... "هكذا قال سعيد".
- أوافق قبل أن تقول ما هو، لا يمكنني رفض أمر صادر عنك، أنت من أنقذني وأعانني.
- ولم أندم على ذلك لأني اخترت الرجل المناسب.
- أنا تحت خدمتك، أتسمح لي بالذهاب؟ "باسل قال هذا وهم بالخروج"

استوقفه سعيد:

- ألا تريد أن تعرف ما هو المشروع؟
- كما وثقت بي، أثق بك.
- فقط من أجل أن تفرح. "قالها سعيد مبتسماً"
- فرحت عندما رأيتك أول مرة.
- أمرك غريب! "بدا سعيد متعجباً"
- وما الغريب في ذلك؟!
- ما رأيك أن نتجادل حتى الصباح؟!

قال ذلك ممازحاً، فقد إراد أطلاع باسل على المشروع الذي سيدر عليهما أرباحاً مرضية. ففي البلدان الغربية يعمد المهاجرون القدامى على استقطاب المخلصين للعمل معهم كشركاء في مشاريعهم التجارية لزيادة المدخول المالي مقابل دفع المستقطب جزءاً يسيرا، ويتقاضى نصف الأرباح لقاء تحمل المسؤولية بأمانة.   والكلام ما زال لسعيد:

- إخترتك لتكون شريكي في متجر متوسط الحجم، وسيكون على مقربة من مدخل المدينة.
- هذا كثيرا عليّ، كرمك أغرقني.
- هداك الله، أي كرم تتحدث عنه؟! هذا عمل، وعرف عام لدى الجميع، لو لم أشاركك، لأصبحت شريكا لغيري. على أي حال غدا سنشرع بالاجرات، لك أن تذهب الآن.

بانشراح، خرج باسل من المركز، للنزهة كان الظلام قد بدأ يسدل جناحيه على لندن وضواحيها، مّر بالمحلات التجارية وبالشوارع سيراً على الأقدام، لم يكن الجو ضبابيا كعادته، كان رائعا يريح نفس الزائر بين الأضواء الساحرة، وكأنها ألماس عليه خيوط للضوء ترسل بريقا يحتضن المدينة ويسحر أنظار زوارها ومقيميها. بدا مندهشا وهو يتمتم: "يا لجمال هذه المدينة! بفضل فكرتك يا تامر، استطعت أن أجمع الكثير من المال، آن لي أن أفرح. غدا سيرسو شراعي المتعب في ميناء الحقيقة. حقيقةَ أني أستحق أن أعيش حياة كريمة تغمرها السعادة والبهجة. سأسعد أمي وسعاد وكل من وقف إلى جانبي". توقف عن المشي لحظة وصوله إلى محطة قطار الأنفاق (الاندر غراوند)، استقل القطار الذي توقف في محطة سانت جيمس بارك، نزل من القطار وواصل مشيه حتى مشارف حديقة سانت جيمس، "التي تعد واحدة من أجمل حدائق لندن، الواقعة بجانب قصر بكنجهام، وهذا ما جعل باسل يتجه إليها". دخل الحديقة، تابع سيره متخطيا البحيرة التي تتوسطها، حتى استقر على أحد المقاعد المخصصة للاستراحة ويمكن لثلاثة أو أربعة أشخاص أن يجلسوا عليه. جلس وكانت الحديقة حينها تعج بالزائرين الليليين. استقر نظره على عشيقين يتداعبان ويضحكان، وكل واحد منهما يطعم الآخر البطاطا المقلية. استشعر، حينها، فراغ القلب وتخبط الأفكار وألم الشوق والوحدة والبعد. عزاء جحافل من الألم واللوعة، وضع يده اليمنى على قلبه وضغط الدم يزداد لحظة تلو الأخرى، لا يدري ما يحدث له، شعر بمدية تقطع روابطه الداخلية، صرير

ألم بمفاصله، أغمض عينيه وسحب يده من على قلبه وكور يديه ونكس رأسه وانحنى بظهره إلى الأمام قليلا، جمع ركبتيه ووضع ساعديه على فخذيه، أطبق بيديه، انحنى بظهره ورأسه حتى تلاصقت جبهته بيديه. مّر من أمامه حكيم، وهو واحد من أقدم عمال المركز التجاري الذي يعمل به، عرف بأن الشاب الجالس على الكرسي هو باسل. دنا منه وتأكد، ناداه باسمه فرفع رأسه ونظر إلى وجه زميله في العمل وقال:

- أنت هنا؟!

قال حكيم:

- وهل يزعجك وجودي؟!
- لا، لندن ملك من فيها، لك الحق بالتواجد في أي مكان.

جلس إلى جانبه، وقال:

- لماذا أرى الكآبة في عينيْك؟ هل حصل لك مكروه؟
- هزني الشوق إلى أهلي.
- لا تحزن! سيأتي اليوم الذي ترى به أهلك. هل تود التنزه معي في ضواحي الحديقة؟
- أسف، أنا بحاجة إلى وقت للتفكير والتأمل.

لم يستطع باسل صبراً في ذلك المكان بالرغم من هيام النسيم مع السكون وعشقية تجاذب الأنوار مع كل ما هو جميل من حولها، غادر الحديقة، استقل قطار الأنفاق الذي توقف بقرب برج "البيغ بين"، ترجل وواصل مشيه إلى جسر برج لندن وانضم إلى السياح واللندنيين المتواجدين هناك، شعر بالطمأنينة لوجود الكثير من البشر دون ضوضاء. قال في سره: "هذه لندن مدينة السكون تعج بالسكان والسياح ولا أصوات تتعالى. الجميع هنا يستمتع، كل منهم في عمله ولا شأن لهُ بأحوال الآخر. أوقات العمل مقدس بالنسبة لهم ووقت التنزه مقدس أيضاً. كل شيء يمشي هنا باتجاهه الصحيح...آه،(تنهد) ليت سعاد معي الآن لترى كيف يعيش الناس هنا لتشعر بأنهم بعيدون تماماً عن المشاكل وقريبون من المتعة والبحث عن مستقبل أفضل".

قضى وقتا يراقب هؤلاء الغربيين الذين يأخذون الحياة بعفوية تامة ويتعاملون معها وكأنها ساحة للعمل وللراحة، لتأمل والحب. جثم الليل وهو مازال واقفاً على جسر لندن لا يزيح ناظريه عن نهر التايمز، لبس معطف النسيم الدافئ وحن إلى حبيبة القلب وقال بعفوية:" أين أنتِ يا عالمي المتخم بالحنان في زمن القسوة والتوحش... يسكنني الشوق، يستبيح كل تضاريس شجوني، ينتشلني من نفسي فأجدني على مشارف مملكة الضمأ متشقق الفؤاد عطشاً، تحترق أشجار اصطباري على مراسي المطر(يصرخ بأعلى صوته) أين أنتِ الآن؟". ضجيج صوته لفت انتباه المتواجدين، فستداروا جميعاً نحو مصدره مستغربين ومتسائلين عما إذا سقط أحد في النهر، وهو مازال يحدث النهر بهدوء: "أين أنتِ حينما يموت العصفور المخلوع بردا في قلب الشمس، حينما يحتلني الصقيع في الأمسيات الصيفية اللندنية، حينما يرهقني حمل وجهي في زحام الأرصفة الضبابية؟".
ترك مكانه ومشى متوجهاً إلى المحطة وهو يردد: أين أنتِ؟.... أين أنتِ؟.... أين أنتِ؟... تجاوز المحطة وقد سلبت منه اللحظات الشاعرية وعيه وجعلته يدخل الشارع الخلفي، تعب من المشي وأحس أنه قد دخل شارعا مقفرا، استوقف سيارة أجرة وطلب من السائق أن يوصله إلى شارع هاي ستريت حيث يقيم. دخل إلى مخدعه وكتب رسالة إلى سعاد يشرح فيها أحواله التي تحسنت، وكتب أيضاً لصديقه يطلب منهُ شراء حقل، وتزويده بأدق التفاصيل عن أحداث القرية وعن صحة أمه.

***

علامات الانكسار بدأت بالظهور على وجه السيدة هديل التي كلما تذكرت ابنها ذهبت إلى التعبد والتضرع لعودته سالما، وإذا كانت تأكل تركت طعامها وانغمست في البكاء يعتريها الأرق أغلب الليالي. سلم لها تامر رسالة ابنها، ومن ثم ذهب إلى أمه وطلب منها إيصال المظروف الخاص بسعاد، ذهبت الأم إلى

مقصدها، وسلمت المظروف، أخذته سعاد وأخفته وهي تنادي أمها بأن هناك ضيفة عزيزة طالبة منها استقبالها، ومن ثم أطلقت رجليها للريح نحو الجبل لتجلس على صخرة يمكنها من خلالها رؤية المشاهد الخلابة الساحرة للطبيعة، فتحت المظروف وهي تلهث، شرعت في معرفة ما تحمله من أخبار، كم تمنت أن تصلها! تلألأت عيناها سعادة وظهرت على وجهها ابتسامة عريضة تدل على البهجة. وما إن انتهت من قراءتها حتى ظلت تراقب بعض الطيور الجارحة مثل صقور العسل، والنسور، وهي تمتطي تيارات الهواء الدافئة لتبقى محلقة، ألفت أذناها أصواتها جميعا فاستدارت نحو الأشجار الكثيفة لتجلس تحت أغصانها التي تعيش عليها طيور مختلفة مثل طائر التراب الذي يبني عشه بين أشجار القاف، وكذلك البلبل الأسود الرأس باني العش المستدير. لفت انتباهها حركة غصن عليه طيور القمير التي تعلق أعشاشها بين أغصان الأشجار الداخلية وتجعلها تتدلى على أطراف الأغصان كقناديل الضوء، وقالت: "ليتني أتمتع بالحرية" ضجرت هذا المكان، وقفت ونفضت الغبار من على فستانها، توجهت نحو الأزهار الجبلية التي تغطي المكان بمختلف الألوان مثل "جريس وبرسيه وألبية وجنطيانا وبخور مريم" وبدأت بقطفها وفرد أوراقها ومن ثم خلطها لتصبح مزيجا من الألوان الرائعة. سئمت المكوث في الجبل لوحدها مقررة العودة من حيث أتت لمساعدة أمها لعلها تتلهّى وتنسى ألم الشوق. تحدثت الى أمها، وأخبرتها بما وصلها. كلمات قالتها الأم عما يدور في خلد الأب، ضاقت حال سعاد، زاد تنفسها بسرعة كبيرة جدا حتى أصبح شهيقها وزفيرُها يصدر صوتا مصحوبا بحشرجة واضحة، ركضت نحو مخدعها ولحقت الأم بها، اندست تحت الأغطية وتفجرت عيناها ينابيع من الدموع مصحوبة ببكاء وكأنها طفل سلبت منهُ دميته الوحيدة، جلست الأم إلى جانبها ونزعت عنها الغطاء، مسحت على شعرها محاولة التهدئة من روعها وتطمينها مؤكدة بأن الله الى جانبها.

***

حزن سعاد مستمر، فكلما اختلت بنفسها تمزقت روحها بكاء، وها هي تبكي نفسها لنفسها. الباب يقرع، إنه والدها جاء لتناول وجبة الغداء، نهضت لتغسل وجهها، دخل يسأل عنها، جلس في صالة الاستقبال وناداها بصوت عال. جففت سعاد الماء من على وجهها ولبت نداء أبيها. طلب منها الجلوس إلى جانبه وسألها عن سبب احمرار وجهها، أجابته بأنها كانت تقطع البصل، همهم، ثم ابتسم بغرض كسب ودها، وقال:

- يا بنيتي لقد تحدث لي العمدة، وقال إنه قد انتهى من بناء بيت جيد، وطلب مني أن أبلغك بذلك، وأن أبلغك أيضا بأن طلبك شبه مستحيل، فكيف يستطيع شراء عقد للؤلؤ، يا بنيتي؟! لقد صدق العمدة بكلامه حين قال: لا أنا ولا هو ولا أغنياء القرية جميعا يستطيعون تلبية طلبك، حتى أني انفجرت من الضحك حين قال "أنا لست سوى عمدة ولست ملكاً أو إمبراطوراً"، قلت له أن ينسى هذا المطلب غير المنطقي وحدثته عن حقل الجمان كمهر يليق بكِ وقال لي أنه سيكتبه باسمك حال عقد القران.

"في الحقيقة العمدة بنى البيت لابنه ولمكره ودناءة أصله راح يتلاعب بنذير ويتحدث عن سعاد باستحياء، فهو يرى مصلحة من تأخر المصاهرة لأن قوته ونفوذه المالي أوشكتا أن يجعلاه الأقوى في القرية وما حولها. مؤخرا ارتقى إلى منصب سياسي في مجلس المدينة وهنا بدأت الحاجة لنذير تتلاشى تدريجياً وتصبح هشيماً نالت منه النيران. ومازال للعمدة بعض المصالح والمطامع من نذير قد تنتهي يوما ما، وحينها سيبحث عن طريقة لوضعه تحت مجهره. فهو لا يرى فيه أكثر من أي فرد في القرية، كلهم على حد سواء في نظره. في الظرف الراهن هو يمارس ضغوطاته بخجل على حليفه التاريخي، ومن يدري لو وافقت سعاد في الحال على طلبه لتحجج ووضع الأعذار ليماطل.

المصاهرة ورقة ضغط منذ البداية، إذا انقطعت المصالح صار نذير لا يُصاهر. والسر في ذلك أن العمدة يعتبر نفسه ممن خلق ليكون سيداً هو وبنو عمه في قريته الأم, _وهذا شائع في هذا المجتمع حيث أن كل قبيلة تعتقد بنفسها صفاء السلالة ونقاء الماء دون غيرها_. ولذا، يتطلع إلى أن يهجروا قريتهم القاحلة ويشاركوه الحياة في قرية "التوليب" خير المناطق المحيطة."

جاء رد سعاد على أبيها بصوت خفيف وبنبرة توتر:

- الذي يريدني فليدفع ما أطلب، وإذا كان لا يستطيع تلبية مطالبي فليغرب عن وجهي حتى يأتي من يستطيع فعل ذلك...
- أنت محقة ولكن هذا مستحيل.
- وهل ثمني زهيد؟!
- بالنسبة لي، لو أستطيع آخذ الكرة الأرضية مسيجة بالماس مقابل مهرك لفعلت.
- إذا، سأتنازل عن بعض المطالب من أجلك أنت يا أبي.

ابتسم وقال:

- وما هي مطالبك الجديدة؟
- كل ما يملك العمدة حتى المنزل الذي يعيش فيه.

بطريقة تدل على نفاد الصبر:

- قولي أنك لا ترغبين بعماد. كنت أظنك تمزحيين بمطالبك حتى أني أردت مشاركة العمدة بمزاحك.
- ليس ما فهمت، فلو دفع مهري والده لتزوجته اليوم. (ثم قالت لها نفسها: "أصمدي بالمراوغة حتى وأن كشف أمرك")

صمت الأب، فنظرت في وجهه، وقالت:

- سأعطي العمدة وابنه مهلة أخرى للتفكير.

هز رأسه وقال:

- سأنقل إليه مطالبك... "تظن أنها تراوغني بمطالبها الساذجة، إذا حان الوقت لا لؤلؤ ولا خبزاً ملفوفاً". قالها في نفسه.

***

وقف العمدة يتحدث مع رجاله على مشارف الطريق المؤدي إلى مقر عمله عن بعض الأمور التي يجب عليهم القيام به، مرّت من أمامهم فتاة حسناء عمرها أقل من العشرين عاما، تخلل العمدة شاربه وهو ما زال شاخص البصر محدج النظر إلى الفتاة قبل أن يتوقف لحظة عن الكلام ويستأنف على نحو مفاجئ وقد مال إلى أحد رجاله هامسا:

- إبنة من هذه الحسناء؟

قال سالم وهو ينظر إلى عنيد عساه يؤيد إجابته:

- أظنها أبنت تيسير الحلواني!

أيده عنيد:

- نعم إنها ابنته، اسمها سميرة.

تمتم العمدة بجذل:

- ابنة الحلواني! إذن ماذا تتوقع أن تجد لدى الحلواني غير الحلوى؟!

لم يتمالك رجاله أنفسهم عن الضحك في مثل هذا الموقف الذي بدا طريفا من الباب الذي تجد نفسك حاضرا في لحظة غاوية لرجل اشتعل رأسه شيبا، وهو ما قابله بالصراخ في وجوههم ليكفوا عن الضحك وطلب من سالم أن يحضر ابنهُ عماد إلى مقر عمله.

جلس العمدة شارد الذهن حتى دخل عليه ابنه فقال له:

- إجلس يا عماد. أود الخوض معك في قضية مهمة جدا بنسبة لبقائنا في هذه القرية.
- ماذا تقصد يا أبي؟!

طلب العمدة من رجاله أن ينتظروه في الخارج وعاد ليستأنف الحديث مع ابنه قائلا:

- ذكرت لك ذات يوم كيف كانت رحلة حياتنا؟
- وهل تظن أني أنسى ما قلته لي؟
- أعرف أنك لا تنسى، ولن تنسى. ولكن من أجل بقائنا، يجب علينا القيام بأمور باتت ضرورية في هذه المرحلة بالتحديد.
- مثل ماذا؟!
- تعلم يابني أننا نمتلك المال التي دخل علينا عن طريق الحيلة ولولا الحيلة وذكاؤنا ماعشنا في هذه القرية التي أصبحت قريتنا يوما واحدا، بل لحظة واحدة.
- طالما معنا المال، فلا ينقصنا شيء.

رد عليه بحدة ودودة:

- الله، كم أود أن أجد الوقت الذي ستجيد فيه الاستماع ولا تكثر من مقاطعة محدثك؟
- آسف على مقاطعتك...ولكني أحب أن أعرف ما الذي يدور في خلدك.
- ها أنت تقاطعني ثانية أيها الأرعن. وحتى لا تقاطعني مجدداً، فأن ما ينقصني هو الرجال.
- لم أفهم ماذا تعني؟
- أعني النسل، الأبناء، فلذلك قررت أن أتزوج.
- ماذا؟!!!
- سمعت ما قلت، فقد حان الوقت ليكون لي الكثير من الأبناء، وهذا ما لن يأتني إلا بالزواج بأكثر من واحدة.
- وماذا عن أمي؟ هل ترضى بذلك؟
- ما شأن أمك بهذا؟ ما الذي يجعلها تعارض مادام الغرض من زواجي ليس المتعة بل إنجاب الأولاد. أنت ولدي الوحيد، ذريتي كلها بنات... آه كم تمنيت أن يكون لي أربعة ذكور بدلا عن البنات الأربع.

- افعل ما تراه مناسبا يا أبي.
- حتى أنت يا بني، ستكون لك الفرصة بالزواج بأكثر من واحدة.

طلب من ابنه أن ينصرف ونادى مساعدهُ عنيد بصوت عال، وامره باستدعاء الحلواني.

***

رجع عنيد وفي صحبته الحلواني، طلب العمدة من الحلواني الجلوس، تحدث معه عن بعض شؤون القرية بلطف واحترام شديدين. كان الوقت الذي أمضياه في الحديث المتنوع كفيلاً بالقضاء على توتر الحلواني. لكن لا يزال التوجس والحيرة من أسباب هذا الاستدعاء يخالطه، فما كان العمدة يستدعيه لمؤانسته بالحديث عن الطقس وأحوال الموسم وكيفية عمل الحلوى، ومكونات العسل، غلاء بعض السلع، والمشاريع الموعودة لهذه البلدة. غير أنه ما ارتاح من وطأة هواجسه، بعد أن أباح له العمدة أخيرا بأنه يرغب الزواج من ابنته سميرة، بقدر ما ارتعد، وشعر بالانهيار، حاول جاهد التملص والتهرب من هذا المطلب. أنا بحاجة إلى وقت للتفكير وآخذ رأي ابنتي."هكذا رد على طلب العمدة"

أخبر الحلواني زوجته مريم بالأمر، أبدت معارضتها الشديدة. وبعد ليل بأجواء مشحونة بالتوتر والخوف، رسى الزوج على شاطئ الاستسلام وأمر زوجته بتولي أمر إقناع ابنته والدمع في عينيه خوفا من العمدة الذي سيرميهم خارج القرية إذا رفضوا مطلبه وما من مكان يلجؤون إليه وليس للعمدة فيه سطوة وسلطان. يجب عليهم التضحية بأحد أفراد الأسرة مقابل الآخرين، فجبروت الطاغية يجعل منهم قوما يخافون المواجهة. أبلغت الأم ابنتها بالأمر، بكت بكاء شديداً وشعرت بالانكسار. أحلامها تبددت وأصبحت زبدا في بحر لجي تعلوه أمواج من التسلط والاستبداد، وليس أمامها خيار سوى القبول من أجل بقاء

أفراد أسرتها على تلك الأرض التي عشقها أبناؤها وأبدوا استعدادا تام للتضحية من أجلها. أبُلغ العمدة بالموافقة، أمر أتباعه بالتحضير لزفاف لم يحدث من قبل لغيره. وفعلاً حدث ما كان يتمناه، تزوج سميرة واحتفل الجميع بهذه المناسبة، كل بيت في القرية كان حاضرا في الحفل من حيث الأطعمة التي حرموا منها وصنعوها في يوم زفافه.

***

نقل تامر تحية باسل لأمه، وشرع في الكتابة لصديقه ليعلمهُ بخبر شرائه بستان الورد ويذكره ببعض ذكريات الماضي. الأخبار التي وصلت من القرية أسعدت باسل وجعلتهُ إنساناً جديداً، فهو الآن من أغنياء القرية، بدأت ذكريات الماضي الأليمة بالتلاشي إلا ذكرى وفاة والده التي مازالت حاضرة حتى الساعة. فكم تمنى لو أن أباه حياً ليراه وهو غني، قوي، عزيز.

***

في أخر مرة تحدث فيها نذير والعمدة عن سعاد، أطلق نذير وعده بأنه سيجبرها إذا لزم الأمر، هذا اللقاء أثار شكاً ولكن معالمه لم تتضح. ربما يكون وسواس بنسبة إليه عندما وجد العمدة أقل اهتماما وإلحاحاً من ذي قبل، فوضع له عذرا بمشاغله وشؤون الأهالي. حتى الساعة لم يخوضا في هذا الموضوع. نذير في نفسه شيء من الكبرياء فلا يمكنه مفاتحة العمدة. أما العمدة، فقد تجاهل الأمر لأنه وجد الوقت غير مناسب له ومن مصلحته التأخر وقتا ما. وهذا نتاج جلسة للعمدة مع نفسه تعمق واستخدم الإستراتيجية الافتراضية. هو لا يعرف هذا المصطلح ولكن فطرة الدهاء والحيلة أوصلته إلى هذا التفكير وقام بتعديل قرارات اتخذها سابقا لعدم ملائمتها ليومه الحالي. من المؤكد أنه سيغير آراءهُ إذا عاد باسل على نحو مفاجئ. فأخباره شحيحة لدى جميع أبناء القرية، سره عند تامر وسعاد ومن حولهما. وقد

أمرهم تامر بالتزام الصمت حيال باسل وسرية مكان تواجده، المعلومة المتداولة لدى الأهالي أنه هاجر إلى مكان غير معلوم... باسل مازال حيا وهو في مكان ما ولو مات لوصل النبأ إلى مسامع الجميع. فمثل هذا الخبر يفيض بسرعة ولا يمكن كتمانه. "هكذا تكهن العمدة" وبنى استنتاجه بعد مضي أكثر من عامين على فقدان آخر أثر لباسل. لذا، توجب على العمدة إبقاء جسر المودة بينه وبين نذير حتى تتضح له الرؤية، مستغلا سذاجة الأخير وثقته المفرطة به. إن صحت تكهناته، عليه أن يلح على طلب يد سعاد لابنه. فهو بحاجة لورقة ضغط، لذا كسب ود حليفه أمر ذو أهمية ولو واجه نذير وأظهر له الوجه القبيح ربما ينتج عن ذلك تحالف مؤكد بينه وبين باسل إذا ما عاد وحينها ستحل الكارثة. وهنا سيكون زوال العمدة ذو الوجهين والقلبين أمراً حتمياً، وضع لنفسه حلولاً للأحداث الافتراضية ليكون حاضرا في الساحة ومنتصرا، الحل يطفو على سطح رأسه عند الحدث، إذا حدث شيء ليس على بال، حينها يتبع حدسه وخبرته في إتقان فن الحيلة والتمسكن والتودد.

***

راشد فلاح يكابد قساوة الأيام، دخله اليومي يكفي بشق الأنفس أسرة مكونة من ستة أولاد وبنات، ضاق بهم الأب ذرعا، فلم يعد يواكب التوسع الأسري مع بلوغ بناته. لذا، يعمل مع ابنيه وهما مازالا قاصرين، جل همه بناء غرفة ليفصل بنينه عن بناته. يجمع القليل من المال، وما بين الحين والآخر يحضر بضعة أحجار ويبنيها في الفناء الصغير. حلم يراوده ليل نهار، يحتاج إلى بعض الوقت ليكتمل، خصة بعد مرض ابنته فداء. هي الأصغر ومازالت في ربيعها الرابع، أصيبت بألم في بطنها، وبدلا من أخذها إلى العطار أخذتها أمها إلى مشعوذ القرية.

جهل القرويين وإيمانهم بالســحر والشــعوذة جعلتهم ســخرية وأضــحوكة منْ وعى منهم. ليســت هنا نقطة التعجب، لأننا نلتمس لهم عذراً، إنه الجهل، ذلك القاتل الصامت. الاستغراب الأكثر عمقاً هو الحضــور غير العادي لأناس من المدينة لتلقي العلاج عند المشعوذ. توسع أفق المدينة لم يزدهم رقياً وتطوراً. كيف اكتسب مشعوذ القرية هذة الشهرة؟ ولماذا هو بذات من بين مشــعوذين بالجملة يوجدون في جل القرى؟! الأغرب في هذة النقطة، جرأة المشعوذ. فقد وصلت به الوقاحة إلى تعليق لافتة أمام منزله كتب عليها "عيادة قمُير". وعلق لافتات عند مدخل القرية لتدل الزائر على الطريق المؤدي الى مكان عمله. المشعوذ قمُير، مثله مثل غيره من النصابين والمحتالين، ولكل واحد منهم مجال معين يناسب شخصيته. فكم من أسرة انهارت بسببه، وكم من عاقل فقد عقله بسبب وهمه وارعبه من الجن. شــهرته تحققت بامتهان العلاج بآيات الذكر، والكي، وعلاج الأمراض المستعصية بالبخور وبعض المساحيق الغريبة التي يحضرها بسرية تامة. الغريب في كل ذلك، أن العامل النفسي وراء تماثل البعض للشفاء، والبعض لاقى مصيرا مأساويا مثل فداء. فقد كواها في بطنها، الآلة الحادة الوميضــة نارا أحدثت فجوة في بطنها. تقيحت وتطور الجرح وراح يتوســع ليصــبح جرحا عميقاً ينزف قيحا ودما. أخذها والدها إلى العطار، نصحه بعرضها على جراح في المدينة، عمل بنصيحة العطار. حولها الجراح إلى قسم الأطفال وعلق لها المصل ووضع لها برنامجا لتزويدها بالدم، أدخلها في قائمة العمليات الجراحية إلى حين يأتي دورها. ذلك المستشفى عام، والدواء يجب شراوه من الصيدليات لعدم توفره في المستشفيات العامة. هنا بدأت مأساة الأب. وكأي قروي، لا يدرك أن هناك فرقاً بين القرى والمدن. أهل المدينة يستفيد البعض منهم من برنامج الضمان الإجتماعي وذلك حسب ذكاء المستفيد وفهمه للسبل المؤدية لبطاقة الاتمان. أما القروي، فهو كا لأعمى يمشــي فوق شــوك، وكأنه مخلوق

من فصـــيلة أخرى، حتى أن القرويين يعاملون كقطيع في أزقة المدن، يســتهزأ من ملابســهم المحروقة شــمســا واللدنة عرقا، يقتربون منهم بحذر وأيديهم تكاد تكون قريبة من أنوفهم تحسـبا من هجوم الصــــنة ورائحة الروث عليهم. يبقى القروي رمزا للجهل والغباء في نظر بعض المتمدنين. هذا هو حال القرويين الفقراء أمثال راشد، على عكس القرويين الأغنياء الذين يهتمون بمظاهرهم الخارجية حتى وأن كانت بطريقة لا تشــبة ســكان المدينة. بالفعل كان التمييز حاظراً عند التعامل مع راشـــد في المستشفى. ملابسه بالية مرقعة عليها طين لازِب، حذاؤه مغطى بطبقة طينية. فمثله لا يعرف دهان الأحذية والمنظفات الخاصـة بالأقمشـــة البيضـــاء. يعرف، بل يميز رائحة العطر عند مرور العمدة أو نذير أو أي ميســور الحال. ولكن، هل اشـــترى يوما قارورة عطر؟ أو أهداه أحدا؟ لا أحد يدري، ربما حدث هذا يوما ما، وربما لا.

حال غريب، ثورة ألم، وســـخط ولوم، على من؟ لا يلوم ولاة الأمر لأنه لا يعرف من ســـبب لوجودهم، ســـوى أنهم في ذلك المكـان، خلقوا ليكونون هنـاك دون غيرهم، وهو خلق ليكون فلاحاً مثله مثل غيره من الفلاحين البســـطاء، وان كان يوجه انتقادته ولومه، فليس أمامه سوى القدر. مسكين القدر، أصـابع الاتهام دوما موجهة نحوه، لأن بين سـطوره شـقاء وعناء وألم. كلما حلت طامة على رأس قروي قال: "هذا قدري!" هل يدرك راشـد أن هناك من هو تسـبب في الوضـع؟ خلقه الله مثله مثل الجالس على....، فلماذا هو الطرف الأضـــعف وقد خلقه الله مثله مثل غيره من......؟ ولماذا يخرج من المستشفى بهم تنوء به الجبال؟ ابنته على وشـــك الموت تعفن، ويقابل المصـــيبة بـــ"أدخل اسم ابنته قائمة الانتظار حتى يأتي دورها، وإن كنت مستعجلا انقلها إلى مستشـفى خاص" هذا كلام الطبيب. فأمثال راشـــد مـازالوا يعيشـــون في جمهوريـة الطـابور. خرج من المســتشــفى بلا قدميين، فليس لديه حل ســوى تركها في عهدة

الأمانة الطبية والعودة إلى القرية لتدبير ثمن الدواء كحد أدنى والوقوف أمام الطابور الطبي!!! قضـــى ليلة مشــحونة بروائح الدماء، ليلة تدثرت بكفن أســود ســواد القلوب. قرّر بيع منزله الصـــغير، ولو بنصـــف الثمن على أن يبقى فيه مقابل دفع الايجار، وهذا نظام متبع منذ عقود وربما قرون. هل يبيعه للعمدة؟ لا. هو يعرف أن العمدة يبخس الناس أشـــياءهم، بل يبخســـهم آدميتهم. إذا، قرر الذهاب إلى نذير، فهو في نظره أعدل من العمدة حتى وإن كان ظالما، فالظالمون درجات. انتظر مســاء اليوم التالي الذي قضــاه مرتعباً من ســواد الأيام القادمة. وعند المســـاء، وبعد انتهاء نذير من خزن منتوجاته الزراعية، كان واقفا أمامه. اختار هذا الوقت ليكون بعيدا عن الأنظار، فإذا أهين، لم يسمع بالأهانة سواه، فمهما دكت الحاجة عضامه يبقى بكرامة تحمله عند السقوط:

- ســـيدي، جئتك وكلي ألم وأنا أرى ابنتي تموت أمام عيني.....

حدث الســيد نذير بكل همومه وما يقدمه له من عرض، المنزل بنصف الثمن مقابل بقائه فيه بالإيجار.

ثار السيد نذير غضبا:

- صـــلاك الله باللظى أيها اللعين، كيف تســمح لمشــعوذ بأن يكوْي ابنتك؟
- أنها زوجتي، سامحها الله.
- وكيف يهون عليكما أيها الأغبياء ألم طفل وهو يصــرخ من ألم النار؟!
- هذا ما وقع، والآن يعتريني الألم.
- همم... (لثوان معدودة ســافر بها نذير إلى الماضـــي، تذكر بها ما مزق قلبه..)..اســـمع أيها الأحمق..(وهو يفتح درج خزانته)...سأعطيك ماتريد.

أظهر راشد وثيقة منزله واستعد لمدها لسيد نذير، سلم له المال، مد راشد الوثيقة، رفض أخذها:

- خذ المال ولا تريني وجهك.

بدهشة قال راشد:

- سأعطيك كل شهر جزاء من المبلغ.
- قلت لك خذ المال وارحل قبل أن أغضب عليك.

هم راشد بالخروج وعاد ليقول لنذير:

- كنت دائما أراهن أن الانسانية لها منزلا في قلبك سيدي.
- لا تخبر أحداً أني من أعطاك المال، حتى زوجتك، والإ سأصادر منزلك. المال لك ولا تعيد لي شيئا، اذا احتجت للمزيد اطلب مني، ولا تأتي لشكري. هيا إذهب لابنتك. "قالها بحدة"
- تبقى أصيلاً ياسيدي، استودعك الله.

خرج وترك أثر الألم للسيد نذير يتذكر أسوأ لحظات حياته عند فقدانه أعز مخلوق لديه "ابنه صابر": "آه... أشعر بما تشعر به ياراشد، (يتنهد بألم...) حسنا فعلت معه.

***

تجاوزت فترة وجود باسل في لندن الأربع سنوات. قبل هذا اليوم قرر العودة إلى بلاده، ظل في المتجر الذي يعمل به يترقب لحظات لقائه برب عمله ليستأذنه بالسفر. عند المساء جاء سعيد ليتحدث إليه عن بعض ضروريات العمل. فوجئ عندما أبلغه بقرار عودته إلى بلده، عبر سعيد عن استيائه من العودة في الوقت الراهن بسبب مسؤليته في المشروع الذي هو شريك معه فيه، قطع باسل وعدا بالعودة الى عمله في أقرب وقت. وإلى ذلك الحين، يمكن الاستعانة بمن يدير شؤون المتجر. بعد الوعد أذن له سعيد بالسفر، شكره باسل على موقفه النبيل والرجولي بالرغم من أنهما ليسا من نفس البلد، إلا أن هناك أكثر من رابط يوحد ما بينهما. فهناك اللغة والأرض والتاريخ في بلاد الغرب وجعل كل واحد يعطف على الآخر وكأنهم أخوه. قبل مغادرته لندن ذهب للتسوق عبر شارع "نايتس بردج" الذي يضم أشهر

المحلات التجارية لشراء الهدايا، وقام بتحضير نفسه للسفر جواً. لم يبلغ أحدا ممن يهمه أمره بقرار رجوعه حتى تكون مفاجأة. يوم سفره، رافقه رب عمله وبعض الأصدقاء هناك إلى مطار "ستانستيد"، حيث قفل عائدا إلى بلده.

***

راوغة سعاد رغبة والدها التي تراجعت في الآون الأخيرة. بما أنها أتقنت دور المرأة العادية، فقد استطاعت التغلب على إرادته بلسان معسول، حتى أنه أعجب بها وبما ينطق به لسانها وكان يردد عبارة "هذه الفتاة مثل أبيها. أنا فخور بها". كان قد نسي اسم باسل الذي غادر ولم تصله أخباره بعد، ظن يقيناً أنه لن يعود، فقد طالت فترة غيابه ولم يتوقع أنه سيعود يوما، أو يطرق اسمه مسمعه.

***

4

لمّا وصل باسل إلى بلده، دخل فندق "نصف القمر" بالعاصمة للراحة والنوم حتى الصباح. وصل إلى القرية في منتصف النهار وبينما كان يمشي في الطريق متجهاً نحو منزله، خالج صدره خوف لم يستطع فهمه. واصل طريقه إلى المنعطف المقابل لمنزله، دخل حدودهُ، وقف فجأة، شاخصاً بعينيه إلى الأعلى، استوطن الخوف قلبه وكأنه نسر لم يعرف الطيران طيلة حياته

الداجنة. فغر فمه، واضطربت نبضات قلبه، حاول أن يصدق عينيه، مسح عليهما أكثر من مرة كأنه في حلم أو وهم أو أن مساً قد أصابه. لم تخنه عيناه، بل أبصرتا ما تبصره عيون الأهالي جميعاً. سقط مكباً على ركبتيه وهو ينظر إلى الأرض، أغمض عينيه للحظات من الزمن، لم يستطع قول شيء في سره أو علنه. فتح عينيه مجدداً، رفع رأسه فرأى ما رآه، منزله ليس موجوداً، ولم يجد سوى مجموعة من العمال يعملون على إزالة بقايا أحجار المنزل. صرخ: أمي... اندفع نحو العمال وسألهم:" أين أمي؟ ماذا حدث؟" الكل واقفون ينظرون إلى وجهه المصْفرّ الممزوج بالحمرة. مما زاد قلقه وخوفه. كرر سؤاله بصوت عال، رد عليه أحد العمال: "إذهب إلى تامر فهو أعلمنا بما حدث." ركض متوجهاً نحو منزل تامر، وفي الطريق وجده يمشي وبيده كيس من الفواكه، اندفع نحوهُ، انقض عليه كالأسد المنقض على الفريسة، أمسك بثيابه صارخاً في وجهه:

- أين أمي... قل لي أين أمي...؟
- أمك بخير... ولكن دعني أسلم عليك، حمدا لله على سلامتك!

قال بتهكم:

- أخبرني! أين منزلي؟... ماذا حدث؟ هيا تكلم؟
- أزح يديك عن ثيابي، وسآخذك إلى أمك! إنها بخير وهي في منزلي. أقسم لك أن أمك في صحة جيدة. هيا أزح يديك عن ثيابي.

أزاح يده عن ثيابه بعد أن تيقن أن أمه بخير، عانق صديقه، وطال العناق. ترك كل واحد منهما صدر الآخر وشبكا يديهما وراحا يمشيان. قال تامر مقترحا:

- ما رأيك أن نذهب إلى بستان الورود لترى بأم عينك ما تملك، ولأحدثك بكل ماحدث طول فترة غيابك ومن ثم تعود لترى أمك في منزلي، وإن أردت أن تراها أولاً فلك ذلك.

ولكني أفضل أن نجلس لفترة من الزمن نتبادل الأحاديث قبل لقائك بأمك وهذا لمصلحتك.

- إذا كنت ترى ذلك خيراً، فلنذهب إلى البستان.

حولا وجهتهما نحو البستان، كلٌّ منهما يريد أن يعرف عن الآخر، تبادلا الحديث باختصار حتى وصلا. دنا باسل من السور وجلس، جلس تامر أمامه ووضع يديه على ركبتي باسل وقال:

- عدني بأن تكون هادئاً وأن لا تتهور بعد أن أقول لك ماذا حدث لمنزلك.
- أعدك.

بعد مغادرتك القرية بعام ونصف أرسل نذير والعمدة شخصاً إلى أمك يحمل وثيقة، وادعى أنها من طرفك، فقال لأمك :" لقد أرسل لك ابنك مبلغاً من المال، ولكني لا أستطيع تسليمه لك إلا بعد أن توقعي وتبصمي على هذه الورقة الرسمية للإثبات. هو شريكي ونحن نتعامل عن طريق الوثائق فيما بيننا".

قال باسل مقاطعاً:

- وهل بصمت على الوثيقة؟
- نعم، وكانت الوثيقة عقد بيع وشراء حرّرهُ العمدة باسم نذير مستغلين أمية أمك. وبعد ذلك، باع نذير المنزل إلى شخص من خارج القرية وهو من طلب من أمك مغادرة البيت. رفضت المغادرة، فقدم الوثيقة إلى المحكمة واستدعت المحكمة العمدة والشهود الذين كانوا من رجال عمدة القرية المجاورة، ومن ثم حكمت المحكمة حكماً يقضي بإخلاء البيت، فتم إخراجها منه بحكم قضائي، فأخذتها إلى بيتي لتسكن مع أمي. وكما رأيت، دمروا المنزل وقاموا بإنشاء مبنى جديد والغرض من ذلك هو إذلالك. هذه هي القصة الكاملة. لم يكن بيدي أي شيء لصنعه سوى محاربة العمدة بالحيلة، وأما نذير فأنا منتظر أوامرك لأنك طلبت مني ألا أتصادم معه.

- ماذا عن العمدة؟ قلت لي بإحدى رسائلك بأنك تلقنه كل يوم درس.

حدث باسل بما فعله بالعمدة وما حل به، ضحكات باسل تخترق المكان، فمنذ زمن لم يضحك كما اليوم، سُر لما قام به صديقه بعد أن برر له إتباع الحيلة عند الحاجة لدفع الضرر عن الآخرين ووجوبها للغاصبين أمثال العمدة.

- أكل هذا قمت به ولم ينكشف أمرك؟! "تساءل باسل"
- هل عندك شك في قدراتي؟!
- بل مستغرب.
- تصور يا صديقي! إنه مازال يعيش الكوابيس كل يوم من قصة السحر، ذئب مربوط أمام منزله وآخر أمام مقر عمله، ماذا لو علم أن ذلك لم يكن سحرا بل مكيدة.
- حتما سيكتشف أنه أحمق وأضحوكة.
- إنه يعتبرني أخلص رجاله.
- ربما مكيدة منه.
- لا يا صديقي، بل ثقة عمياء، استطعت الوصول إلى عقله، ولولا تقربي منه لما عرفت الكثير عن أعماله الشيطانية. لذا، يسهل علينا الإطاحة به.
- لم تحن ساعته بعد، سننظر في أمره فيما بعد.
- تحت أمرك، لقد.... (يصمت ويتلكأ...).
- ماذا تريد أن تقول؟!
- أقول لك شيئاً ولا تغضب مني.
- قل ما عندك يا رجل.
- استطعت أن أكون مجموعة من الرجال في داخل القرية وخارجها بمساعدة أبو إسماعيل الذي جرف العمدة أشجار زيتونه. قمنا بتحويل مجاري السيول باتجاه مجرى الحقول، وعندما هطل مطر غزير، جُرفت الحقول وسويت لتصبح حقلا واحدا، أبيد المحصول، أنه عام أسود على بقايا أثر

الأقطاعيين. ومصدر رزق للفلاحين، لأنهم استخدمو لأعادة ما دمر.

- ولماذا أغضب من ذلك؟! قمت بعمل رائع.
- بل عملت بما يخالف اتجاهك وأختلف به معك.
- ماذا صنعت؟!
- الأسبوع المنصرم نصبت كميناً لمحصول العمدة، أنا وأبو إسماعيل وأربعة رجال من قرية "السبوع" استولينا على المحصول وهو في طريقه إلى مخزنه، الكمين كان في أطراف الوادي، وثقنا رجاله وأشبعناهم ضرب، ثم أخذنا المحصول حيث تكفل أبو إسماعيل ببيعه لتاجر في المدينة. بصراحة...(يتلكأ وهو يكمل...) ليست هذه المرة الأولى، بل الرابعة.

انتفض باسل:

- هذا ما لا أحبذهُ، نحن أحرار ولسنا قطاع طرق.
- على مهلك عليّ.
- أنت أخطأت.
- اجلس واسمع ما صنعت ومن ثم أحكم عليّ، وسأرضى بحكمك فأنت أخ وصديق.

جلس باسل وراح يسمع:

- ننقل المحصول إلى قرية "السبوع" ثم إلى المدينة. نأخذ المال ونوزعه على الأسر المعدمة التي ينهب العمدة ممتلكاتها.
- أتظن أن تلك الأسر ليست على استعداد لإخبار العمدة بالأمر، أنت تعرف أن أغلبهم سذج، وهمهم عدم إغضاب العمدة عليهم.
- لم يعرفوا ما حدث، نرسل رجلا يسلم لهم المال، ويقول لهم إنها صدقة من تاجر ما في المدينة.
- قصدك نبيل، ولكننا لسنا بمن يقطع الطريق، بل يأخذ الحق بالقوة.

- قمت بهذا العمل عندما علمت أن بعض الأهالي ليس لديهم ما يقتاتون، أتريدني أن ألتزم الصمت حيال قضية أخلاقية.
- لمَ لم تعطهم من أموالي؟
- أموالك أمانة، ولا يحق لي التصرف بها إلا بطريقة تجارية كما اتفقنا.
- أرجو أن لا تفعل هذا مجددا.
- لن أفعل، أتدري لماذا؟ لأنك معي، مادمت هنا فالمواجهة مبدئي، كنت أتجنبهم خوفا من كمين يطيح بي، أنا لا أخشى الموت وأنت تعرف ذلك، بل أخشاه إذا جاءني وأنا وحيد أمي وأمك. أما الآن، فأنا على استعداد لأموت مطمئناً، لأنك ستهتم بأمي وتعاملها بالحسنى.

تابعا حديثهما وخاضا في مواضيع عدة ومهمة بالنسبة لباسل. وبدأ تامر يشرح له ماذا فعل بالمال الذي أرسله خلال فترة غيابه:

- عندما وصلني منك المال، قمت ببناء هذا المنزل الصغير بداخل البستان. وباقي المبلغ جمعته مع عائدات البستان وقطعة الأرض وقمت، الشهر الماضي، بشراء إسطبل الخيول الواقع شمال القرية وبه ثلاثة خيول والحصان الأبيض الذي كنت تتمنى امتلاكه.
- أشكرك على هذا المعروف، إسمعني جيدا يا صديقي، لقد جمعت المال، وأنت قمت بشراء ما لم يكن في الحسبان. لذا، ستصبح شريكي في كل ما أملك...

قال مقاطعا:

- لا. لن أقبل أي شيء منك، فقد كنت أريد إسعادك، لا أخذ أموالك بالباطل.
- عندما تشاركني في كل ما أملك، ليس كما تقول، بل حبا مني لك ووفاءً وعرفانا.
- عزة نفسي تمنعني عن ذلك.

ابتسم وقال:

- أنت يدي هنا، وهذا يعني أنك جزء مني. هيا لنذهب لرؤية أمي.
- خذ قسطاً من الراحة وسأصطحبها إلى هنا، وأكمل يومك حتى نجد طريقة لنستعيد منزلك، بطريقة ذكية دون استخدام القوة كي لا تجرح مشاعر سعاد.

تنهد وقال:

- آه، سعاد... لن استرجع منزلي من أجلها. قل لي كيف حالها؟ اشتقت لرؤيتها.
- إنها بخير وتنتظر لحظات عودتك.
- وهل تعلم ما صنع أبوها بأمي؟
- من المؤكد أنها علمت بالأمر من إحدى نساء القرية. وكما تعلم هي تعارض أباها ولم تتفق معه على أي شيء صنعه من قبل. المسكينة ليس بيدها حيلة. لست أدري كيف لأب لا يرى في ابنته سوى سلعة تباع وتشترى. ما أظلمه! أَكُل هذا حرصً على المال؟!
- لكل ظالم يوم أسود.
- دعك من هذا الحديث الآن، وانظر إلى البستان والأرض المجاورة، أليس هذا ما كنت تحلم به؟
- نعم، كم حلمت أن أمتلكه. هنا وقفت يوماً مكسور الظهر ومسلوب العزة. قل لي، هل يعلم مالك هذا البستان أني من اشتراه؟
- لم أخبر أحداً بالأمر، الوثيقة كانت بإسم صهري، وبعد عملية الشراء بشهر قمت بتحويلها باسمك، ولم يعلم أحد بهذا الأمر سوى أمك. لقد أخبرتها بعد خروجها من البيت، وكنت أقصد بذلك التخفيف من حزنها.
- حسناً صنعت. وماذا عن سعاد؟ هل تعلم شيئا عن ذلك؟
- لم أخبرها بالأمر.

***

ذهب باسل لرؤية أمه، والفرحة تملأ قلبه ولا تسع هذه الدنيا. وصل إلى منزل تامر بعد فترة أطول من اللزوم بسبب الترحيب الذي لقيهُ من أهل القرية والسؤال عن أحواله وأين اختفى، أفصح لمن يسأله أنه كان في بلاد الإنجليز. وبعدها يودون أن يعرفوا كيف كانت حياته هناك. فالناس يحبون معرفة الكثير عمن يسافر إلى خارج البلد وهذا من باب حب المعرفة. طرق الباب منادياً أمه، سمعت صوته وصرخت:

- باسل... إنه صوت ابني.

رمت كوب الماء الذي كان بيدها وهرعت نحو الباب. فتحته، فإذا به أمامها، احتضنته بدموع الفرح، بكى وهو يقبل يديها ورأسها، تقبل وجهه وهي تمسح على رأسه وتقول:

- أخيرا، عدت بعد أن أحرقني الشوق يا صغيري!

رد عليها وهو يكفكف دمعا لم يقو على حبسه، فأمام أمه هو بحر من الدموع:

- سامحيني يا أمي! لقد تركتك للوحوش.

قالت:

- لا عليك يا بني! دعك من هذا الكلام الآن. إني مشتاقة لرؤيتك ويكفيني أن أراك أمامي يا طفلي الحبيب. هل علمت بما حدث لي؟ ذلك الجبان لم يجرؤ على مقابلتي خوفا ًمن أن أدغمه. كلما يلقاني يسرع في الخطى خشيتاً من لعنتي.
- لقد علمت بكل شيء يا أمي، ولكني لن أهزم بهذه السهولة. هيا، لنذهب إلى البستان، سنعيش هناك. أخرجي معي كما أنت، لا تأخذي معك شيئا، سأشتري كل شيء حتى مقتنياتك الشخصية.

نادت أمه السيدة إحسان وتفاجأت بقدومه، سلم عليها وعبر لها عن امتنانه الشديد لما قامت به من واجب تجاه أمه. استأذنها للانصراف إلا أنها أبت حتى يتناول وجبة الغداء. لم يجد سبيلاً للتملص من دعواها، فقد أصرت عليه.

***

أخذ أمه إلى البستان، أدخلها المنزل. جلس إلى جانب أمه وراح يحكي لها تفاصيل حياته في لندن... بعد ذلك نهض ليذهب لرؤية سعاد. قالت الأم: "غدا يمكنك رؤيتها. أما اليوم، فهو لك لترتاح بعد عناء السفر." رفض وهرع مسرعا نحو منزلها لرؤيتها ومقابلة أباها الباب، ففتحته سعاد. لم تصدق ما رأت عيناها، تعانقا، وميض إنسان عينه يغني عن التعبير، أما هي فقد أجهشت سماء عينيها وابلاً من الدموع تركت أثرها على وجهه عند العناق. نادى الأب ابنته سائلاً عن الطارق، فلم ترد عليه. نزل من الطابق العلوي. صعق وتكهرب وتواثبت أحشاؤه من هول المنظر. كانا متعانقين في حالة توحد وتمازج روحيهما. لم يستطع أن يتحكم في أعصابه، أخذ يده التي تجمد الدم بها وسحبها بقوته حتى شعر أنه فُئد من ثقلها، ووجه صفعة إلى ابنته بعد أن سحبها من حضن باسل. تدخل باسل لمنعه من إكمال ضربها بتوجيه وجهه لتلقى الضربات والأب يقول: "أنت مجدداً أيها.....؟" أمسك به باسل من معصميه وقد بدأ صبره ينفد، حاول نذير تحرير معصميه فلم يستطع شعر حينها أن أنياب أسد انغرست في معصميه. لم يكن باسل ينوي ألحاق الأذا به، خفف من الضغط على معصميه غير مدرك أنه يتألم، إقناعه بالهدوء والتفاهم بعيداً عن المنزل. قبل نذير العرض دون جدل، لم يستطع أخفاء نوبة الألم فراح يتحسس معصميه، حينها عرف باسل أنه آذاهُ فقال له معتذراً: "آسف عماه." انطلق الاثنان إلى ضفة النهر وبدأ الحديث في هدوء. محاولاً التخلص منه قال:

- أترك ابنتي وشأنها وسأدفع لك ثمن المنزل وكل ما تريد من المال مقابل ذلك.

رد عليه باعتزاز:

- لم أقبل عليك بشأن المنزل أتيت لطلب لقائك وللتحدث معك، ولكي يكون الكلام واضحاً فيما بيننا، أرجوك، أن تستمع لي ولا تقاطعني.

كشر وقال:

- أسمعك... تفضل بالحديث.
- تعلم كم أحب ابنتك، وتعلم كم عانيت من جراء حبي لها، وكم عانت هي أيضاً. سيدي، أطلب يدها، ولن أطالب بثمن المنزل وسأدفع ماتبتغيه مهراً لها، وسأكتب هذه الأرض (وهو يشير بسبابته إلى قطعة الأرض) والبستان المجاور وإسطبل الخيول الواقع شمال القرية باسمك إن أردت. وسأبني لها بيتاً رائعاً، وضع الشروط التي تراها مناسبة.
- إسمعني جيداً...لا أخفيك أنك فاجأتني بامتلاك هذه الأرض، ولكن أنت تطلب المستحيل، والسبب واضح. الخلاف بيننا ليس على المال. أصبحت غنياً الآن، أبوك كان من ألد أعدائي، فكيف لي أن أصاهر عدوي؟!
- كلامك مردود عليك... أولا: لقد تحسنت أحوالي المادية وأنا الآن أستطيع أن أوفر لها حياة كريمة إذا كانت الحالة المادية معيار التمييز الأهم في مفهوم هذا المجتمع. ثانياً: لقد مات أبي ودفن ومن غير المنطقي أن يظل حقدك عليه حيا بعد مماته يا ابن عم أبي!
- سيبقى حقدي على أبيك ما دُمت حيا.
- هذا بالنسبة لك. أما بالنسبة لي، فلا مكان للحقد في حياتي.
- لا أهتم برأيك، ولا شأن لي بالهراء الذي تقوله.
- ليس هراء، فلو كان الحقد حياً في قلبي لطالبت بالقصاص منك أنت والعمدة، لأن لكما يداً في موت أبي، وأنت تعلم ذلك جيداً.
- ليس الأمر كما تقول، ولا تملك أي دليل تثبت به تورطنا. أبوك لم يمت مقتولاً.

- أنت تعلم ما صنعت بأبي جيداً، وما صنعت بي وجعلتني أعمل في القرى المجاورة، وما صنعته بأمي في غيابي، هل نسيت كل هذا؟
- لماذا لا تحقد عليّ.. وتريد مصاهرة من تعتقد بأنه من قتل أباك بطريقة غير مباشرة أم أن هذا الأمر طريقك للانتقام مني؟!
- لأني لست حقوداً، وأملك روح التسامح كروح ابنتك التي لم أرى مثلها في حياتي....

قاطعه:

- لن أتراجع قيد أنملة عن قراري.
- حاول إسعاد ابنتك. أرجوك، وكل مطالبك مجابة.
- لا مطالب لدي. المطلب الوحيد هو أن تغرب عن وجهي وتنسى هذا الهراء، وحاول إقناع نفسك بأنك تحلم. القرية مليئة بالنساء، وأنت الآن غني والكل يرغب في مصاهرتك.

بلهجة يملأها العطف وكأنه عابر سبيل بحاجة إلى سد رمقه قال:

- عماه، كما تعلم أني لم ألتمس شيئا من بشر على الإطلاق من قبل، وها أنا ألتمس الرحمة منك.
- مستحيل القبول بك، ولا أستطيع أن أتصورك متزوجا بابنتي.

أمسك بيده وظل يمسح عليه بيديه وهو يقول:

- أرجوك لا تجهض أحلامنا، فلن يطيب لنا العيش بعيداً عن بعضنا البعض.

سحب يده بعنف:

- قلت لك لا... وألف لا... إذا لم تبتعد عنها سترى ما لا تحمد عقباه، وما لا تحب أن تلقاه.

طرف برمشه بنحو عصبي يائس وقال:

- أهذا كل ما عندك؟

أخرج من جيبه سيجارته وعود الثقاب، أشعلها ثم أخذ نفساً عميقاً ونفخ الدخان في وجه باسل وقال:

- نعم، هذا كل ما عندي، ابتعد عن طريقي، وأتمنى ألا أراك ثانية.

سار في طريقه وباسل يناديه.... لم يلتفت ولم يأبه بمناداته مواصلاً طريقه بتحجر. وقف باسل وهو محتار لا يدري ما يصنع. هل يعود إلى أمه وهو يحمل معه أذيال اليأس أو يظل جالساً على ضفة النهر حتى يستطيع لملمة أفكاره. جلس لفترة من الزمن، ثم عاد إلى أمه حاملا كتلة من الهم، تعتريه الحيرة حتى صار في تلك اللحظة مجرد نفس لاهث يُنفخ في وجه الريح.

***

هذه الليلة بدأ نذير يمارس ضغوطاته على ابنته دون التواصل مع العمدة:

- سنبدأ بتحضير حفل زفاف يليق بسعاد وابن العمدة.

صارخة:

- لا يمكن... لا يمكن... أرجوك أبي. لا تنْهِ حياتي.
- تمثلين عليّ، وتقولين إنك جوهرة ثمينة وتريدين ثمنها. اليوم كشف أمرك أيتها الماكرة الكاذبة. ستتزوجين ابن العمدة بعد أسبوعين من الآن طوعاً أو كرهاً.
- أتوسل إليك يا أبي....

قالت الأم مجازفة:

- دعها تختار، فهي في الأخير ابنتك، ولها الحق أن تختار من تراه مناسباً. لا تجبرها كارهة، لأن الاقتران بدون محبة لا يدوم. هو كالثلج يذوب مع حرارة الشمس الأولى.

ردّ بغضب:

- أخرسا. لست من يقول كلمة ويتراجع عنها.

قالت سعاد:

- لا أستطيع العيش مع شخص أكرهه ولا أطيقه.

- أنت تقولين ذلك الآن. بعد الزواج ستثمر شجرة الحب.
- شجرة الحب من طرف واحد لن تثمر إلا شوكاً.

وقف وتوعّد:

- يبدو لي أن الكلام اللطيف معك لا ينفع. إذا لم تطيعي أوامري، ســ....

قالت الأم:

- لماذا تتحدث بهذا الموضوع، ووجهك متغير.
- تحدث إلي باسل، وتجرأ وطلب يدها اليوم.
- وبماذا أجبته؟
- بالرفض طبعاً.

قالت سعاد بانفعال:

- لماذا يا أبي؟ لا تدع الكبر يعمي قلبك.
- منذ متى تتحدثين معي بهذه الطريقة؟□
- منذ اليوم... صراحة، لا أستطيع الاستغناء عنه. أنه من بني عمومتنا.

قال مهدّداً:

- لو عدت لمثل هذا الكلام، سترين ما لا يسرك.
- لن أرضخ لضغوطاتك وإن أردت أن تقتلني، فافعل.

استدار نحو زوجته وبصوت عال دوى في أرجاء المنزل:

- هل سمعت ما تقول ابنتك؟□

نظرت إليه وكأنها بدأت تعبر عن رأيها حتى وإن كان ذلك مخالفاً لقواعد العرف:

- إنها تعبر عن مشاعرها، ولا أرى عيباً يذكر في باسل.

اشتد غضبه وقال:

- حتى أنت توافقينها الرأي. يبدو أنكما متفقتان عليّ□

طفح كيلها وخرجت عن نطاق الرضوخ والإذعان:

- إنها تعبر عن أحاسيسها وليس عن أحاسيسك.

بعدها، وجه إصبعه إليهما وقال:

- قولا ما تريدان، المهم كلام أي طرف منا سيمضي ومن سيبقى محض قول ساذج.

***

رعب هز وجدان العمدة، واصبح مكبل خوفا من عودة باسل، توقع ذلك وأدرك أن هناك تحالفاً لقوتين باسل وتامر، "أحسنت لتامر وعاملته بالحسنى وخاض معارك من أجلي، والمنطق يقول أن باسل أقرب إليه مني" هكذا حلل العمدة ماسيحدث، سينقلب عليه تامر في أي لحظة. لذا، وجب التحرك والبحث عن حليف للعمدة بات أمرا حتمياً، إذا سعاد هي حلبة الصراع. الآن صار العمدة مصرا على المصاهرة أكثر من أي وقت مضى. وإذا اخفق في توجهه وجب علية البحث عن وسيلة آخر لترجيح الكفة. فكل شيء في كفة ومصير البقاء في كفة. هذا هو العمدة القوي بالحيلة والمكر والمال، والضعيف بالنسب والمواجهة. ها هو العمدة يطرق باب نذير، وراحا يتحدثان في الفناء.

- يجب علينا أن نسرع بحسم الأمر وتزويجهما. "هذا ما قاله العمدة"
- العرس سيكون بعد أسبوعين.
- هذا جيد... ولكن ماذا يمكننا أن نفعل لوضع حد لهذا الوغد؟
- يجب التخلص منه.
- وكيف ذلك يا نذير؟
- كما تعودنا أن نصنع بمن يقف في طريقنا. نرسل من يوجه له عدة طعنات.
- الكل يعلم أنه يحب أبنتك. إذا قتل، فأصابع الاتهام ستوجه لك ولي.
- لا عليك، سنرسل ثلاثة من القتلة المستأجرين الأشداء وهذه المرة سنحضرهم من المدينة، يختلقون حجة للتعارك معه، ثم يقتلونه، ولن يجرؤ أحد على التدخل، لن يتعرفوا عليهم. وهذا يعني أننا لن نرتكب الجريمة بأيدينا والكل يعلم ذلك

ولا دليل لديهم. سأعطيك عنوان أحد المستأجرين، إذهب اليوم للاتفاق معه على تنفيذ هذا الأمر، على أن يكون في أقرب فرصة سانحة.

أوامر نذير اليوم لا تلقى اعتراضاً أو نقاشاً حول فحواها، إنه يأمر العمدة بالذهاب إلى المدينة والتنفيذ وكأنه المسؤول الأول في القرية. "هذا لا يهم مادامت الظروف أوصلتني إلى هذا المستوى، لن يدوم بقاؤك طويلاً، أنت محظوظ يانذير، باسل أخّرَ نبأ وفاتَكَ". هذه آخر تمتمات العمدة وهو يذهب لتنفيذ جريمته. أما السيد نذير، دلف إلى منزله ولم يجرؤ على الخروج خوفاً من حديث أهل القرية على ابنته وعشيقها. أخبرته زوجته بأن سعاد رفضت أن تتناول طعامها، ولم تخرج من غرفتها، كانت طوال الليل تبكي. عندما سمع أبوها هذا الكلام قال:

- الإنسان يتصرف هكذا في بداية الأمر ثم ينصاع للأوامر، ويتقبل الوضع الجديد، عندما تجوع ويشتد جوعها ستأكل حتماً.

***

يزداد الوضع تعقيداً مع مرور الوقت، سكان القرية يدركون خطورة الموقف، مّر ثلاثة أيام على العشيقين ولم يلتقيا، سعاد مازالت ترفض الحديث مع والديها. بدأت أعراض المرض تظهر على وجهها، أصبح وجهها جافاً ومصفراً. أما جسمها، فقد بدا الهزال يغزوه. حال باسل لا تقل عن حالها سوءا. يجوب القرية ذهاباً وإياباً ولا يدري ماذا يصنع، لم يعد مسيطراً على الأوضاع، أنها على وشك الإفلات من بين يديه. طيلة فترة مشيه، يرفع يديه ويضرب بهما على رأسه حتى ظن الجميع أنه قد فقد عقله. واصل طريقه حتى دخل سوق القرية وغاب في الزحام، كان الرجال المأجورون يتعقبونه حتى أفلت منهم دون أن يشعر. وبعد لحظات، وجدوه في منتصف الزحام، أعترضه أحدهم: "وأخيرا أمسكت بك أيها السارق!!" ردة فعل باسل يعلوها موج

من الدهشة المباشرة:" من أنت؟! وعمَ تتحدث؟!" أمسك أحد المستأجرين كتفيه، لف باسل رقبته، أداره نصف دائر ليسقطه أرضاً، وبدأت لكمات باسل تندف جسد المعتدي ندفاً. كان يقف بين الجمع رفيقا المستأجر يمسكان خنجريهما من تحت ثوبيهما. انتظرا قليلا ريثما ينهمك باسل في ضرب رفيقهما. المعتدي مترنح أرضاً، وباسل منهمك في ضربه، والأهالي في حيرة. هنا، تدخل الآخران فجأة، أخذاه غدراً بهجوم مزدوج من الجهتين، عن يمينه وعن شماله، بعد أن سحبا خنجريهما بحرفية المتمكنين، نهالا عليه بالطعنات. ترنح وسقط على جانبه الأيمن، تدخل بعض الرجال في السوق، وأمسكوا بخنجر أحد المجرمين، ولم يجدوا سبيلاً أمامهم سوى الفرار مع أن العمدة قد قال لهم أن أهل القرية لا يجرؤون على التدخل خوفاً على حياتهم. خاب ظنه هذه المرة، واختلفت قواعد اللعبة. أشْعَلَتِ الطّعْنَات دم باسل، حاول البعض لملمة جراحه وهو فاقد الوعي. ظنوا أنه قد فارق الحياة. شحبت الأصوات حينها، وتواثبت الأحشاء واصفرت الأوجه وتجمد الدم في عروق الحاضرين. الجميع يضرب كفاً بكف متحسرا باندهاش. قال أحدهم، سنأخذه إلى المستشفى لعله يعيش، هذا إذا لم يكن قد فارق الحياة.

***

طار الخبر بين الناس في القرية كالوباء القاتل حتى وصل إلى مسامع أمه. جلست على الأرض متذكرة لحظة وفاة زوجها، مع رجفة شفتيها، قالت بهدوء:

- قتل ابني، خسرت زوجي وابني، ولمن أعيش من بعدهما؟ صمتت للحظات ثم صرخت) يا ويلاه، قتلوك ياولدي...... (تضرب بيديها على وجهها تارة وتشد شعرها تارة أخرى تواصل صراخها مناجيتاً ربها): يـــارب! قتلوا ابني....

وقفت فجأة، وكأنها تعتزم فعل كل شيء. كانت فكرة الأخذ بالثأر قد استولت عليها كلياً. حيث دخلت إلى مخدعها محدثة فوضى لكل شيء يقابل طريقها، فتحت صندوق ملابسها بعنف حتى تراخت مفاصله، أخرجت بندقية قديمة كان زوجها قد ابتاعها قبل وفاته بسبعة أشهر، خرجت تركض بلاوعي متوجهة نحو منزل نذير لتأخذ بثأرها، كانت تصيح: سأقتلك... سأقتلك... سأقتلك...

لحق بها بعض أبناء القرية محاولين إيقافها، صوبت البندقية نحو صدورهم مهددة بقتل من يحاول الاقتراب منها، عملوا جاهدين على إقناعها بالعدول عن قرارها، وتسليمهم البندقية بحجة أن العدالة ستأخذ مجراها، رفضت وصرخت في وجه اللَّمَّة، قائلة: "إن الذي قتل ابني. إتركوني وشأني"... في هذه الأثناء، كان تامر قد سمع الخبر، بدا مصعوقاً ورافضاً تصديق مقتله، ركض نحو البستان ليتأكد من صحة الخبر، وفي طريقه أخبره طفل أن السيدة هديل قد اتجهت نحو منزل نذير لقتله. هنا بدا له الخبر يقيناً، غيّر طريقه راكضاً حتى أبصرت عيناه جمعاً من الناس، فعرف حينها أنها هناك. اقترب حتى وصل مقصده، صرخ في وجه الجميع طالباً منهم مغادرة المكان فورا وأنه سيتولى أمرها. اقترب منها وأقنعها بالتوجه إلى مستشفى المدينة، للتأكد ما إذا كان قد فارق الحياة فعلا، تسألت بدموع وهي تنتحب:

- إذا مات ابني ماذا أصنع؟! ولمن أعيش من بعده؟!

أمسك بيدها وقال:

- حينها، أنا من يقتل نذير والعمدة وسآخذ بثأره، وإن أردت أنت قتلهما فلك ذلك. لنذهب إلى المستشفى.

***

كان نذير في بيته منتظرا خبر وفاة عدوه. جاءه العمدة وناداه، خرج ووقف أمام العمدة وقال:

- لا تقل لي إنه نجا هذه المرة أيضاً.

- إطمئن، كل شيء على ما يرام.
كانت سعاد حينها، تقف مواجهة النافذة، تطالع شيئاً غير محدد، فسمعت كلمة خرجت من فم أبيها قائلا: "وأخيرا قتل هذا الوغد". عرفت أنهم يتحدثون عن باسل. صعقت، انهارت أعصابها وسقطت أرضا لتضرب خلف رأسه على الأرض فاقدة للوعي. لفترة وجيزة من الزمن دخلت الأم للاطمئنان مجددا على صحة ابنتها، فوجدتها ملقاة على الأرض، صرخت طالبة المساعدة. دخل الأب عندما سمع الصراخ، فوجد ابنته بحال لا تبشر بخير، فاقدة الوعي بوجه مصفر وعيون شاخصة بالدمع. ورغم صب الماء على وجهها لم تفق من غيبوبتها، فاستدعى عطار القرية، الذي أكد أنه بذل ما بوسعه وعليهم نقلها إلى مستشفى المدينة.

***

بعد مسافة طويلة، كان الأهالي قد بلغوا مستشفى المدينة، وتم إدخال باسل إلى غرفة العمليات لإجراء عملية جراحية. وقبل وصول نذير، كان قد سبقاه تامر وهديل، وهما الأن في صالة الأنتظار. وجد نذير أناسا من القرية على مقربة من البوابة. عرف حينها أن جثمان باسل في الداخل، سأل أحد المتواجدين عن سبب تواجدهم في هذا المكان ليبعد الشبهة عنه، أخُبر بأنهم متواجدون من أجل باسل وهو الأن في غرفة العمليات. تهدلت شفةُ نذير، أطلق الشتائم في سره على العمدة، وقرر عدم إدخال ابنته إلى مكان يتواجد فيه عدوه وغير اتجاهه نحو مستشفى آخر. بعد وصوله أخذ الأطباء سعاد وقاموا بوضع كمامة الأكسجين على أنفها وفمها، فحصوها، وعلقو لها المصل، حددوا مرضها وقاموا بإعطائها أدوية وحقنا للصدمة العصبية...
بعد أن أنتها الأطباء من أجراء العملية الجراحية لباسل، خرج أحدهم إلى هديل وتامر ليخبرهما عن استقرار حالة باسل.
مرّ يومين على الحادثة وأهل القرية ينتظرون سماع التطورات، علموا بأنه خرج من حالة الغيبوبة وبدأ قلبه ينبض بشكل طبيعي.

فرح الجميع لهذا النبأ السعيد. حمدت الأم ربها على إنقاذ ابنها، شكرت المتبقين من الحضور على موقفهم النبيل ثم طلبت منهم العودة إلى القرية لمزاولة أعمالهم. أما سعاد، فلم يطرأ أي تحسن في صحتها، فقد أعلم الطبيب والدها بأن فترة العلاج قد تطول.

***

مرّ شهر على الحادث ولا تحسن طرأ على سعاد. مستلقية على السرير وكمامة الأوكسجين تغطي فمها وأنفها، يسمع لها أنين ما بين اللحظة والأخرى. نفد صبر الأم، طلبت من زوجها الخروج من الغرفة، وراحت تعاتبه وتعلمه بما تعرف عنه:

- أين العمدة وابنه، شهر ولم يجرؤ أحد منهما على الحضور إلى هنا؟ لقد مكرا بك. هل هما خائفان؟
- لا. ليس كذلك، ولكني طلبت منهما أن يبقيا بعيداً.
- وهل حان الوقت لأن تعود إلى رشدك؟
- صوني لسانك يا امرأة.
- إذا أردت أن تشفى ابنتك، عاهد ربك بأن تلبي رغبتها.
- أعاهد ربي بأن لا تنال ما تريد.
- وما هو الحل برأيك؟

التزم الصمت، فتابعت قائلة:

- أليس من العطف والإنسانية أن تزور باسل، لعل ذنبك يغفر، ويعفو عن كل ما صنعته به.
- لن أفعل.
- أتظنني بلهاء لا أفقه شيئا فيما يدور في خلدك؟! أنا أعرفك تماماً يا نذير وأعرف السبب الحقيقي وراء عدائك لابن عمك نبيل وكرهك لابنه. (وقف نذير متجمداً وشعر بأن تياراً بارداً قد اجتاحه كل أوصاله، وبدأ يمسح جبهته. ومازال الكلام لزوجته): أبعد هذه السنيين تظن أني مازلت أجهل حقيقة الأمر، لا... لا يا نذير! فلتعلم أن هذه الحقيقة

أدركتها منذ زمن طويل، وتحملت مرارتها، كنت أخفف من وطأة غصتها بالآمال والأمنيات متخلقة بالحلم.

رد عليها بلهجة متخاذلة:

- عن أية حقيقة تتحدثين؟
- حقيقة حبك لهديل التي أردت أن تتزوجها.

قاطعها قائلاً بصوت هادئ:

- الوقت ليس مناسباً للعتاب.
- الوقت مناسب لأقول لك أني أعرف أنك كنت تحب هديل وأردت أن تتزوجها ولكنها رفضتك، وفضلت عليك ابن عمك نبيل. غير أنك للأسف لم تقنع بأقدارك، ورفضت واقعك بمزيد من الأحقاد والكراهية لمن اعتقدت بأنه وقف حائلا ما بينك وبينها، وقد تَبَعَّجَ سيل الكراهية المقيت ليجرف كل من يمت إليه بصلة ولم تجد من هو أقرب من نبيل إلا ابنه باسل. (وهنا بدأ حديثها يزداد حده وهي تقول): آلا تخاف الله يا رجل وأنت تصد كل الأبواب أمام من تقتضي صلة الرحم بأن تعاملها كابنك؟ !(أرتبك فوجد نفسه تشتهي سيجارة، دس يده في جيبه وأخرجها وما إن أشعلها وأخذ نفساً حتى منعته ممرضة طالبة منه إطفائها فوراً، رماها أرضاً وداسها بقدمه، وزوجته تزيد من لدغات انتقادها...) فبداية، وضعت حظراً عليه وتوعدت من يوفر له عملاً عندما كان يعمل فلاحاً، أخفت الجميع من شراء الشاي منه والبن، مروراً بإرهاب من اشترى منه حطباً، إلى محاولة التخلص منه في آخر مطاف الحقد والبغضاء، لماذا كل هذا؟! لأن امرأة لم يستهويها بريق أموالك ورفضت الزواج بك وفضلت عليك من خفق له قلبها بالحب. ثم لا تخجل من نفسك عندما تجدك محملاً بمثل هذه الأحقاد وقد أصبحت رب لأسرة بحاجة إلى أن توليها الرعاية والحنان. أنا على يقين لو أن هديل طلبت منك تزويجهما للبيت طلبها

ولكنها أكبر من أن تأتي إليك وتطلب منك قطرة ماء. فما بالك بمصاهرتك، لقد اعتمدت على ابنها بحل مشاكله. هي تعرف أنها أنجبت رجلاً مقداماً، ماذا تظن نفسك أمامهُ؟! لولا أنهُ أصيل ويحترمك لأنك من بني عمه لسحقك منذ البداية. لو كنت شخصاً آخر لما تحمل خشونة رأسك..

مسح بكمه العرق المتصبب وحاول الانسحاب من المكان وقد شعر بأنه بحاجة إلى عصا للتوكؤ عليها بعد أن ذكرتهُ زوجته بما لا يريد أن تعرفه يوماً ما. عادت الأم إلى الغرفة وتجدد أنين ابنتهما واستأنفت الأم البكاء.

***

تحسنت حالته باسل وبدأت جراحه بالالتئام. فبعد شعوره بنور الحياة كان يشغله التفكير فيما يصنع، ويسأل تامر عما إذا كانت سعاد قد علمت بكل ما حصل له فيجيبه بالنفي، ويسأل عن معلومات أخرى، فلا يرد عليه. نفد صبره وأثارت اهتمامه نقطة لم يفهمها من طريقة تهرب تامر عن الخوض في الحديث عنها. ظن بذلك أن سعاد مضت في سبيل أبيها، صرخ في وجهه بأن يخبره بالحقيقة. حاول تامر مراراً وتكراراً إقناعه بأن الخوض في مثل هذا الحديث لا يساعده على استعادة عافيته. أصر وألح مهدداً بأنه سيمزق جراحه إذا لم يخبره بما حدث. خوفاً من تهوره، أخبره بالحقيقة لأن الأم لم تكن موجودة. فبعد سهر طويل إلى جانب ابنها، اخذها تامر إلى الغرفة في الفندق.

أمسك باسل على جرحه العميق في بطنه وأزاح غطاءه باليد الأخرى محاولاً الوقوف، سأله صديقه إلى أين يذهب، أجابه بأنه ذاهب للاطمئنان على سعاد. حاول منعه، لا جدوى، استدعى الطبيب لعله يقنعه، لاجدوى أيضاً. وقف على قدميه وطلب منه أن يرافقه لمعرفته العنوان وتوجها نحو الباب المفتوح وخرج. استقلا سيارة أجرة لتأخذهما إلى مبتغياهما. وصلا إلى أمام

غرفتها، أشار تامر لصديقه بأنه سيبقى واقفاً عن بعد، دنا باسل من الأب، وقبل أن يلقي السلام بادره نذير:

- أنت مجدداً؟! لقد دمرت حياتي، وأرقت ماء وجهي أمام المجتمع، فاترك ابنتي وشأنها.
- مساء الخير.

رد عليه نذير:

- ومن أين سيأتي الخير؟
- أرجوك! لا تظلمني مجدداً.
- إذا ارحل من هنا في الحال، (وهو يوجه سبابته نحو باسل) أنت سبب ما حدث لابنتي.
- سأرحل بعد أن أطمئن عليها.
- وأنا هنا لن أسمح لك بذلك.
- ولكني ألتمس منك زيارتها ورؤية وجهها ولو لدقيقة واحدة.
- مستحيل أن أسمح لك بذلك.
- هل خرجت من غيبوبتها؟
- لم يحدث ذلك بعد.
- لعلها بعد سماع صوتي يعود إليها الوعي... امنحني هذه الفرصة أرجوك.
- من أنت حتى تقول هذا الكلام؟ (ينفعل...) قلت لك ارحل قبل أن أسمع صوتي كل من في المستشفى.

اقُتحم حرم حديثهما، فتْح الباب بقوة وشهقات تنبئان بتطور ما. لم تجد الأم من تناديه سوى الأب، هو في خارج الغرفة إلى جانب الباب، يقضي وقته غاضباً رافضا الاستسلام وكأن المسألة هي المكابرة. هو متعود على الانكسار رغما عن أنفه وليس بمحض إرادته، طريقة تعامل الأم مع الباب، والصوت المتسلل من مفاصل وفجوات الباب أنبأت عن شيء ما، ما هو؟! تساءل أخذ ثانيتين من الزمن أو ربما أكثر ليعرف المتجاذبين بالحديث ما بين شد وجذب، ما خطبها. الأب الوعر لا يحب سماع الأنباء

السيئة. فهو يظل أباً مهما قست مشاعره واستخدم الخشونة لإخفاء نقاط ضعف رجولته وشخصيته بعد شهر من هذه الحال، أما حمدا لله على سلامتها، أو رحمها الله. جو مشحون بالمطر والإعصار، أو جو متلألئ ببريق الشمس، قوة فتح الباب التي أربكت وجدانه ولم تترك له فرصة للتفكير، أحدثت مدا دمويا في مفاصل باسل وتوقف نبض قلبه، والفاصل بينه وبين بقائه واقفاً وسقوط أرضا هي تلك الكلمة التي نطقتها السيدة كريمة فور فتحها الباب بعنف: "أفاقت"، كلمة خرجت من فم الأم يملؤها روح البشارة للأب، ومثل هذه الظروف الاندفاع بقوة دون عقلانية أمر مفروغ منه حتى وإن أُفْزع المتلقي، جل ما أدرك أن شيئا ما قد حدث، كلمة "أفاقت" اقتحمت المسامع بعد الفزع الشديد من الصوت غير المفهوم المتسلل، وقوة التعامل مع فتح الباب، إلى هذه اللحظة والرعشة تسكن الأب وباسل، وكذا تامر، حتى بعد اندفاعهم ودخولهم الغرفة بسرعة خاطفة وإدراكهم أن الأمر خير، وسعاد لتوها قد فتحت نصف عينيها، وها هي تستشعر حولها، وتتساءل أين هي مستغربة وجودها في مكان لم تتوقعه، وجدوا أنفسهم أمام سريرها يتصفحون وجهها مستبشرين.

الأم تمسك بيد ابنتها، من جهة يقابلها باسل الذي سبقها وتناول يدها وراح يمسح بيده الأخرى على وجهها. أما الأب، فقتله الصمت وابنته تنطق الكلمات الأولى:

... أين أمي؟ ... أين أنا؟ ... أين.....؟

يمسك يدها غير مبال بأحد وهو يقول:

- حمداً لله... حمداً لله... حمداً لله على سلامتك. (ينفعل الأب، يحاول الاندفاع لمنع باسل من الإمساك بيد ابنته، شعر بغصة منعته من التعبير عن انفعاله وغضبه وكأنه مصعوق...)

الجميع يرددون:

- الحمد لله.... إنها بخير....الحمد لله على سلامتها.

أمرهم الطبيب:

- أرجو منكم الخروج من أجل صحتها... هيا... أرجوكم! أخرجوا جميعاً. (يدفع الجميع بمعصميه ويجبرهم على الخروج)

***

انقضت ساعات لا تخلو من نظرات الحقد والبغضاء والكراهية التي انبثقت من جبين نذير، حاول باسل امتصاص النظرات والانتقادات التي وجهها لهُ الأب في صمت. خرج الطبيب مبشراً الجميع أنها في تحسن مستمر، ويمكنهم الدخول إليها. دخلوا إلى الغرفة، وكان أولهم باسل، فمد يده وأمسك بيدها وهما يبتسمان لبعضهما البعض، يقول لها باسل بصوت يدثره الهدوء:

- حمداً لله على سلامتك.

بنظرات العجز عن الكلام، تكلمت عيناها صمتاً. تلك النظرات تحولت في لحظة إلى عالم من المفردات تتناثر وجوداً بداخل الوجود

- حمداً لله على سلامتك يا ابنتي. "قالت الأم وهي تغمر وجه ابنتها بقبلات"

كلما رمق نذير باسلاً يحضنُ يد ابنته بنظرات حادة تغني عما يدور في خلده، أمسك تامر بمعصميه وغمز له بعينه لعله يمنع أي تصرف أحمق من شئنه يعكر صفو مزاج ابنته، لم يدم هدوءه طويلاً، ويخفق في مقاومة التهور، وإذا به يجهض صمته مقاطعا:

- أظن أن سعاد تحتاج قسطاً من الراحة.

ردت الأم بغضب:

- قلها بصراحة... أخرجوا من هنا.

رد عليها:

- لنخرج من هنا، هيا دعوها ترتاح.

شعر الطبيب بنشوب توتر، أمرهم بالخروج.

***

كان الليل قد اِخْضَرَّ، خرج الجميع وذهب باسل، للحديث مع الأب، فرفض الخوض معه في أي كلام. ترجاه، لم يصغ إليه، خرج إلى فناء المستشفى وافترش العشب وجلس ينظر إلى نجوم الهزيج الأخير من الليل. دون تفكير، وفي صمت، استلقى على ظهره ويداه مشبكتان تحت رأسه يتأمل بُعد النجوم ويعدها حتى يتلخبط، ويعيد العد مرة تلو الأخرى حتى مال القمر إلى خلف الجبل وأصبح وجه السماء موحشا دون قمر يزين عقد النجوم. ظهر الصباح ونزع معطف الظلام واستبدله بالنور، وبدأت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من الشرق. عكرت عليه الشمس النظر إلى ذلك المكان، حرك رأسه إلى الجهة الأخرى. بعد أن سلبت منه الشمس الندى الذي تركه الفجر على جسده ووجهه، وراحت تزيد من جنونها وهذيانها بإرسال أشعة حارقة. أيقظ يديه من نومهما وسحبهما بصعوبة من تحت رأسه وكأن الحياة قد فارقتهما نهض من مكانه وأهدى الأرض أول خطوة متوجها إلى أمه في الفندق برفقة تامر، تفاجأت بخروجه من المستشفى، حاول التظاهر أمامها بالتعافي، وطلب منها العودة إلى القرية برفقة تامر، رفضت لأنها أرادت زيارة سعاد والبقاء إلى جانبه، قال لها بأنه لا يريد أن تلتقي بنذير خشية نشوب مشادة بينهما، مؤكدا لها أنهُ لوحدث ذلك سيخرج عن طوع نفسه ولن يصبر على نذير.

***

بدأت الشمس تسْترد الضوء الذي أحضرته عند مجيئها والعودة إلى أدراجها، اقتربت أم سعاد من باسل وأعطته قطعة خبز وكوبا من الحليب، رفض تناول الخبز مكتفيا بشرب الحليب. أمسكت على كتفه وقالت مخففة عنه ما أَلَمَّ به:

- هون عليك يا بني! لو كان الأمر بيدي لجمعت بينك وبين سعاد في اللحظة الأولى من لقائكما، لأني أحب ابنتي، وأحب أن أرى ضحكتها مشرقة ولكن الجبروت حال دون ذلك، أقسم لك إني أحببتك كما أحب ابنتي، ويزيد حبي لكما يوما بعد يوم لإخلاصكما ووفائكما الشديدين، ولي الفخر والاعتزاز أن لي ابنة بهذا الوفاء، وما همي الآن إن خسرتها من أجلك فأنت تستحقها. فلسعادتها، أتخلى عنها. خذها واهربا معا إلى عالم آخر يقدس حبكما، وليمت أبوها بحسرته وحقده وكراهيته.

انتزع من قلبه ابتسامة وقال:

- لا....لن أهرب معها، لا أريد أن ألحق بها العار فهي من بني عمي.... ولسنا مجرمين حتى نفر... سعاد لا تستحق الهروب، لا أرضى لها ذلك.
- بارك الله فيك. أنت رائع حقا كما قالت ابنتي "فيك من الشهامة ما في السماء من نجوم"...

قطع الأب حديثهما بصوت عال نوعا ما مصحوب بنبرات الغضب، معاتبا زوجته لحديثها مع باسل.

***

جاء الغد بمفاجأة جديدة كما عود البشر، وأذن الطبيب لسعاد بالمغادرة ناصحاً الأب بالتعامل معها برفق وعدم إغضابها، مذكرا إياه أنها حساسة جدا والعنف معها قد يُنْكسها. التزم الأب بنصائح الطبيب في الوقت الحالي. عند وصوله إلى القرية، جاءه بعض الأهالي يريدون التحدث إليه لرفع هذه العقبة. رد عليهم:

- سعاد ابنتي، ولدى الكثير منكم فتيات، فلماذا لا تزوجونه إحدى بناتكم؟

رد عليه أحدهم:

- لو كان قد أحب إحداهن، فليس لدينا مانع، ولكنه أحبها وهي أحبته. فلماذا تجهض حبهما؟ نحن هنا نلتمس الرجاء منك بالموافقة.

قال السيد نذير:

- لقد وعدت العمدة ولا يمكنني التراجع. وإن لزم الأمر، سأغادر القرية وأتركها لكم جميعا.

قال استاذ المدرسة:

- ما كنا لنأتي إلى هنا ونطالبك بمغادرة القرية، بل أتيناك طالبين الجمع بينهما، وهذا فخر وشرف لنا أن نجد إخلاصا ووفاء في قريتنا. تعلمنا منهما الكثير. فلماذا تقتل حلما أصبح حلمنا جميعا؟

أنطلق صوت أبو إسماعيل من بين الحضور:

- لأول مرة لا نتقيد بالعرف لأننا أدركنا أن علاقتهما عفيفة وليس هناك ما نبغضه، لو بنيت علاقتهما على باطل لوجدتنا ساخرين منتقدين.

تعلل بأوهى الأسباب:

- سأحاول إقناع ابنتي بألا تفكر به، وأظن أن هذا شأن يخص بيتي ولا يخص بيوتكم..

بَرِحَ الحضور فناء نذير وهم مكسورو الخاطر، والحسرة في وجوههم وكل واحد منهم يضرب كفا بكف. فقال أحدهم متهكما:

- لقد أسمعت لو ناديت حيا.... ولكن لا حياة لمن تنادي.

فرد الآخر:

- لا يمكن للحجر أن ينبض.

قال استاذ المدرسة:

- لا إحساس لفاقد الإحساس.

جاوبه العطار من الناحية الأخرى:

- صدق من قال "لا يوجد أكثر صلابة من الصخر إلا قلوب القساة".

صحيح أن المجتمعات المنغلقة ذات صفات سلبية أحياناً عندما تقف تحت عتبة العلاقة مع الآخر، إلا أن الاستثناء جاءهم زائراً ولأول مرة. هناك جفاف للمشاعر عكس الطبيعة والطقس المحيط الموهوب لهم من السماء. بسبب الجهل لا يستطيعون قمع تمرد ألسنتهم وانحيازهم إلى الباطل، إلا أن هذه الحادثة تعتبر سابقة في مجتمعهم، منها تعلموا معنى المواجهة التي يتمنونها ولا ينالون شرفها بحجة العرف والعادات والتقاليد الواهية. لأن الشك سيد الموقف دائماً، فإذا أنفراد حبيبين بادرهما الناس بسوء الظن دون أدنى اعتبار لآدميتهما خاصة الفتاة، وكما فعلواً بسعاد وباسل في بادئ الأمر حتى دارة عجلة السنين واكتشفوا أن جريمة العشق بنسبة لهم تحولت مع مرور الزمن إلى عالم من الإخلاص والتضحية في سبيل التوحد.

***

جلس باسل في البستان أمام الورود وهو يتساءل عما يصنع بعد حدث اليوم، وهل أغلقت كل الأبواب في وجهه. خطرت بباله فكرة وبدأ بجمع الورود من البستان. حينها، سمع صوت تامر يناديه. أجاب وطلب منه المساعدة في جمع الورود، كما طلب منه أيضاً أن يصمت ولا يسأل عن سبب ذلك أو الغاية منه. وبعد أن انتهيا من عملهما، قال تامر:

- الفضول يحرضني على سؤالك عن سبب جمع هذه الورود.
- سآخذها إلى منزل نذير.
- هل جننت؟□ ألم تسمع ما قاله اليوم؟□
- بل خطرت ببالي فكرة قد تكون جسر المحبة بيني وبينه.
- وما فكرتك هذه المرة؟□
- سنآخذ الورود إلى أمام منزله، وننشرها أمام الباب، وحول المنزل، وعلى رفوف النوافذ، وفي كل مكان

نستطيع وضعها فيه. وبهذه الطريقة، يمكن للورد أن يلعب دور الوسيط بيني وبينه.

- أي ورد يجدي مع رجل بمثل هذه القسوة والعنف.. كيف تفكر يا صديق؟!
- أرجوك ساعدني فقط.

ظهرت الأم فجأة، فسألتهما عن حاجتهما إلى كل هذه الورود، أخبرها تامر بالأمر، عارضت الفكرة، ولكن باسلاً كان عنيداً حتى أنها قالت: "إصنع ما تشاء فأنت الآن رجل". حمل الصديقان الورود إلى مقصدها، ووزعاها على كل ركن من أركان المنزل، ونثرا كمية كبيرة منها في الممرات وعلقا منها على كل النوافذ. وبعد أن انتهيا من ذلك، ذهب كل منهما في اتجاه من القرية لجمع أكبر عدد ممكن من أهلها، لمحاولة إحراجه. وبعد حضور عدد كبير من أهل القرية إلى الممر المؤدي إلى المنزل، طرق باسل الباب مناديا إياه وعلى النقيض مما توقع، خرج والتفت يميناً وشمالاً وهو يبتسم قائلا:

- هل أتيتم لتباركوا لسعاد بمناسبة خطبتها لابن العمدة؟ هذا لطف منكم.

قال تامر:

- ليس كذلك... ولكننا أتينا إلى هنا مجددا وأحضرنا الورود لتتكلم بدلا عنا.

أخرج سيجارته وعود الثقاب من جيبه وأشعلها ووضعها في زاوية من فمه تهتز كلما حرك شفتيه ثم نظر إليهم شزراً وقال:

- فات الأوان.

سأل باسل بهلع:

- وهل وافقت سعاد؟!

قال بنبرة ملؤها الكبرياء بعد أن بعث من فمه الدخان في وجه باسل وبعض الحضور:

- نعم... لقد وافقت ولا تريدك.
- أريد أن أسمع رأيها.

طقطق رقبته وكأنه بعير متخم:

- لن ينفعك عنادك، ومن الأفضل لك أن ترحل وتتركنا وشأننا أو سنرحل من هذه القرية، ونتركها لكم جميعاً.

قال باسل لنفسه متوعدا: "لو حصل هذا، سأقتل عمادا والعمدة وسأنظر في أمرك يا ابن عم أبي. سأضطر آسفا للتمرد على الأخلاق..." شرع باسل يرمق كل من حوله بنظرات مريبة لم يعهدها منه أحد. فقد أصبح إنسانا غير طبيعي يريد فعل شيء ما. بداتْ فكرة النيل من أعدائه تخْتمرُ، الانتقام خياره الأخير، ولكن كيف؟ لا أحد يعلم سواه. ربما يضع حدا لحياة عماد والعمدة، وبطريقة ما يعذب نذير. وربما يعلن تمرده ويعيث في القرية فسادا ليمنع أعداءه متعة الحياة، فهو قادر على ذلك. يطل برأسه من بين طيات إعصار الغضب ليقول لنفسه :"لا...سأنال من العمدة وابنه، أما أنت يا ابن عم أبي، فأشكوك لله". يعود ليركز على تجاذب نذير والأهالي. والكلام موجه لنذير من إمام الجامع:

- أتق الله يا أخي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم........

قاطعه السيد نذير بغضب وهو يوجه أصبعه نحو وجهه:

- أنت بالذات يا إمام! لا تتدخل في شؤوني عندك المسجد لتقول فيه ما شئت من مواعظك.
- هل هذا قرارك النهائي؟
- نعم، ولا جدوى من المحاولة.

استدار إمام الجامع نحو باسل وقال:

- اسمعني يا بني! إنه لا يريدك، وبصراحة هذا الرجل يكرهك، ونحن جميعا نعلم ذلك. فنحن مطلعون على هذه القصة منذ فترة طويلة، وقد أدركنا أنه لا جدوى من المحاولة، وأن الطريق مسدود أمامنا وأمامك. هذا الشخص نسأل له الهداية لا يعرف معنى الرحمة والتسامح. ولذلك، نفضل أن تبحث يا بني عن طريق آخر، عن امرأة أخرى،

وسنسهل لك الأمر الآن. ما عليك سوى الاختيار، ونحن سنجيبك بالموافقة.

- مازلت عند رأيي ولا مجال للتراجع.
- لا تكن متهورا... فكر بالأمر، ونحن ننتظر منك الإجابة.

قال العطار:

- فكر بالأمر جيدا يا باسل. لقد قال ما أردنا جميعاً قوله.

ذهب كلٌ في حال سبيله. طلب باسل من تامر أن يدبر له موعد لقاء مع سعاد لأنه لا يستطيع رؤيتها بشكل مباشر.

***

مازال العمدة متواريا عن الأنظار حتى الساعة لأمر ما في نفسه لا يعرفه إلا هو، لم يذهب إلى المدينة للقيام بالواجب مثله مثل أقل شخص في القرية، فمنذ إخفاق محاولة قتل باسل لم يلتقي نذير، اشعل شرارة من النار في كومة هشيم وتَأَبَّق. التمس له نذير عذرا عندما كان في المستشفى "غياب العمدة ضروري كي لا يتعرض لمساءلة قانونية عن الشروع في جريمة قتل كونه عمدة ومسؤول عن قريته" أما وقد عاد نذير إلى القرية فأقل واجب زيارة حتى ولو لمرة واحدة ولكن هذا ما لم يحدث، وليس لدى نذير عذر سوى خشية العمدة من ردة فعل باسل وتامر الذي عرف في السنوات الأخيرة بقدرته العالية على القتال. فهو يخاف من مباغتته والهجوم عليه بشكل مفاجئ وهذا ما دعاه إلى تقليص تحركاته. نذير رجل ينْساق وراء فكرة ما ولا يتعمق بها، هو ذو عقل محدود ينظر إلى الحدث من زاوية تهمه ولا يدور حول الحدث ليستطلع جوانبه وانعكاساته. عقله المحدود لم يوصله يوما إلى التفكير بنقطة الاختلاف بين المتحالفين على الشر ألا وهو المصلحة الذاتية التي تخون التحالف في نهاية المطاف، ولا إخلاص لمن اعتصموا بحبل الشيطان واختلفوا عليه. هذا عكس تفكير العمدة، ومن يدري لو أن السيد نذير تعمق وفهم ما يدور في خلد كل محتال وما يبيته لمن أخلص من أجله، وعرف أن

المحتال الماكر يعتبر من يقف إلى جانبه عند الشدة ساذجاً، مغفلاً لا يعرف أول الطريق من آخره، ربما لكان شخصا أخر وليس أداة بيد محتال جبان يعيش في هذه الدنيا باسم الشيطان ويقتات من لهيب جهنم.

***

جلس باسل باقي الليل متأملاً القمر تارة وظلال الأشجار تارة أخرى، وأمه تحاول تشجيعه على الصبر وإقناعه بما اقترحه إمام الجامع. قاطع كلامها، وطلب منها الجلوس معه ونسيان الأمر ليتذكر السنين الماضية، وراح يذكرها بأيام الصراع مع الجوع وبالصبر الذي صبرته عندما كان يعمل في الحقل لتوفير لقمة العيش. وبينما كان يتحدث مع أمه عن الماضي، بَرَعهُ النعاس تحت ضوء القمر. أما هي، فقد أحضرت وسادتين وضعت إحداهما تحت رأس ابنها واحتفظت بالأخرى لها ونامت بجانبه. أقبل الصباح وبزقَتِ الشمس، فمدت يدها لإيقاظه من نومه العميق، فتح عينيه فوجد أمه إلى جانبه، والندى يكسو أوراق الورد والفراش يدور حولها. أيقظ أمه واستأذنها للذهاب إلى الجبل. أذنت له. يمشي في طريقه وهو يفكر ماذا سيقول لسعاد، ويتساءل عما اذا استطاعت السيدة إحسان إبلاغها بالموعد أم لا. قطع حبل أفكاره مجموعة من شباب القرية، تحدثوا إليه عن مظالمهم نتيجة الإقطاع وطالبوه بانتزاع العمودية من العمدة الحالي الذي تولى هذا المنصب بالوراثة عن والده، وأكدوا له أنهم على استعداد ليكونوا رجاله الأشداء المخلصين له في شتى الظروف ومختلف الأحوال، لأنه الوحيد الذي يستطيع الوقوف في وجه الطغاة لشدة بأسه وصلابته. وعدهم بالتفكير، ولكن ليس في الوقت الراهن مؤكدا أن إحداث التغيير في القرية بحاجة إلى ثورة تؤدي إلى نهاية الإقطاعيين إلى الأبد.

***

وصل باسل إلى الجبل وجلس تحت شجرة الزيتون الجبلية لفترة طويلة، الشمس تزيد من جنونها وتهورها وكأنها في حالة ثمالة، لأن الصيف على وشك التوغل، جمع كومة من الأحجار الصغيرة وبنى بيتا صغيرا بحجم اليد، وجمع أيضاً بعض القش وضعهُ على سقف البيت الصغير. وما أن انتهى حتى ركله بقدمه، ووقف يضرب بيده الشجرة، فسمع صوت سعاد تقول:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟! هل تنتقم من الشجرة؟!

استدار بعفوية ونظر إلى وجهها. تناول يدها اليمنى واكتفى بمصافحتها وهو يسألها

- سمعت أنك أجبت طالب يدك بالموافقة، هل هذا صحيح؟!

قهقهت عالياً ونزعت ما كانت تغطي به شعرها وحركت رأسها بسرعة خاطفة نحو اليمين واليسار حتى تناثرت جدائلهُ على ظهرها وكتفيها وتساءلت:

- من قال لك هذا الكلام السخيف؟! أهو أبي؟!

أجاب بإشارة من رأسه. ففنّدت:

- غير صحيح، وهل تصدق كلام أبي؟! وهل صدق يوماً في أمرنا؟!
- ليس هذا ما أزعجني. ما أربكني ذلك العهد الذي قطعناه معا بأن لا نفترق وإن كلفنا الأمر حياتنا.
- وأنا على عهدي ووعدي لك.

جلس وطلب منها أن تجلس بجانبه، قطب وقال:

- هل تعلمين أني أحسد بعض العشاق الذين وفق الله بينهم، وأتساءل ألماً لماذا ينفصل العاشقان بعد اجتماعهما، هل وجدت فرصة كهذه ولم أمسك بها؟ بعض الناس لا يشعرون بقيمة الشيء وقداسته، فبمجرد ما يحصلون على شيء صعب المنال، يفرطون فيه بسهولة.
- هذه طبيعة البشر، الإنسان لا يشعر بقيمة الشيء الذي يأتيه بسهولة.

- هل سنحتْ لي فرص ولم انتهزها؟! "تساءل بألم"
- قدرنا أن نعيش معذبين. هذه مشيئة الله.

تمكن منه الجوع وكأن زمهرير الشتاء يجول بداخل معدته بكل حرية. سألها:

- هل أنت جائعة؟

ابتسمت وجمعت شعرها لتربطه وهي تقول:

- إذا كنت أنت جائعاً، فسأكون كذلك.
- هيا، لننزل إلى طرف الوادي، هناك سنجد أشجار التفاح.

انفجرت ضحكاً واهتزت حتى حبست أنفاسها من شدة الضحك وهي تقول بكلمات كررتها أكثر من مرة:

- وهل ستسرق التفاح كما سرقت الوردة؟

ضحك معها ثم قال:

- هل تذكرين ذلك اليوم؟ إنه أسوأ يوم في حياتي... لا تخافي، هذه المرة ليست سرقة، لأن كل شيء في هذه الدنيا ملك لنا.

توقفت عن الضحك وقالت:

- هيا لنذهب ونكمل حديثنا مشياً.

أرادت إخراجه من مطحنة الهواء التي بدت على وجهه من تصحر لملامحه الامتيازية العادية. فقد بدا مرهف الوجه، ذابل الحاجبين، أغبر الشفاه، فكله هم وحيرة تفتك بخلايا توازنه. حالها لا يختلف عنه، فشفرات الحسن في وجهها تبددت وأصبحت حللاً من ظلام تعلوه عناوين من رعب وخوف، ومازال الكلام لها بشوق نوّار في عتمة ليل معزول عن الوجود: "منذ زمن طويل وأنا أحلم بأن ألقاك وأتحدث إليك".

- وها نحن التقينا.

يمشط حنايا وجهها، ويحرك أمواج شعرها بريح محترقة تخرج من ضواء عينيه لترسم خارطة لعالمها الجميل المدثر بنسيم من حزن، تقترب منه قليلا، أنفاسة الدافئة أوجدت غابة من ثلج بين شفتيها، ها هي تشعر بالانهيار أمام ملكوت احتراق الحب في

مدخنة الروح، تبادله الأنفاس بتاريخ من عشق، وجلباب من حضارة. يسلمها دنيا من النظرات ونوبات من الحياة تدب بداخل ذكرى وطن مفقود، تذر في عينييه رماد الذهب، فتدمغ تفكيره:

- أهو اللقاء الأخير؟!

مفردات تعلمها تناثرت بين الخيال وبين اليقين، ركض لسانه خلف الصمت وبقي هو شارداً في ذكرى المستحيل. الموج الرملي في صحراء وجهه تلتهم الأحياء، ولم يعد يعرف إلى أين هو مسافر، أنحو فتاة هاربة من اللَّظَى لفردوس عينيه؟! أو نحو وجود أخفى بين طياته الوهم والشقى؟! أو نحو بحر من دم سكن بداخله روحاً من هم؟ مزجها بصدره، أيعقل أن بعد ساعات يفصل الدهر بينهما؟ شدته ببكاء حتى كادت أن تكسر ضلوعه، أمسك قلبها، غسلت سماءه بعنفوان، ملح الدموع يوثق لحظات الألم. أشفق عليهما الوقت وأنبت لهما جناحان من سعادة وأمل بعد حزن ويأس:

- مافائدة لقيانا ونحن نبكي غرائب الزمان؟! "ماقاله باسل قبل إقلاعه عزل نفسه عن نفسها"
- بعد البكاء يأتي الفرح.
- وبعد الألم يلتأم الجرح، هذا ما قلْتِهِ لي ذات يوم.
- أغتلتُ البكاء وخلقت السعادة. "قالت سعاد"
- إذا، إبتسمي.

ابتسمت وهي تمسح وجهها بعد زلزال عينيها، ولم تستتطع ابتسامتها محو أثر الدمار، وأعادت تكوين الحروف السومرية على وجنتيها، ولكنها تحاول إبقاء نفسها ربيعاً جاثماً فوق صدر الشتاء. نزلا من على الجبل وهما يتبادلان أطراف الحديث. عيناهما وشفتاهما تموج جميعها في ذروة سعادة غامرة بعد لحظات من الموت على أسوار العشق. فجأة، انزلقت من على الصخرة وخُدشت جلد رجلها اليمنى واتسخ فستانها، تألمت وحاولت أن تزيل اتساخه بيدها، لكن هذا لم يغير من شكله المتسخ شيئاً. أمسك بها ثم حملها ووضعها في مكان مستو،

كشفت عن ساقها لترى الجرح، مسح بيده على جرحها، بَجَّ كمه وربط الجرح ثم وقفا ليستأنفا رحلتهما إلى الوادي، اضطرت للتوكؤ على كتفه، تستنشق الهواء العليل وتفرغه على وجهه، الريح تمازحهما وتنثر نصف شعرها على ظهره، حينها، باغتته نوبة من السرور لا يعرف كم ستدوم. وصلا الوادي واصبح الصمت أسمى وأغلى أمانيهما. كانا يتبادلان الحديث بالنظرات التي لا تخلو من معاني جمة، دنيا من شجرة التفاح بادرته قائلة:

- كم تمنيت أن تطول المسافة.

رفعت رأسها من على كتفه، وهجرته برفق، افترشت عشب الأرض الطري الممتد كبساط من إستبرق عليه قبضة من اللؤلؤ. جلست وارتدت معطف ظلال شجرة التفاح. أمسك باسل بجذع الشجرة وتسلقها، جنى التفاحة الأشد احمراراً.

نادته خائفة عليه:

- إحترس من أن تقع... كم أنت متهور... أنت مجنون... احترس... ستقع على الأرض.
- لا تخافي، مدي يدك لالتقاط التفاح.

بسطت كفيها مقرونين وبدأت تستقبل حبات التفاح. نزل بحذر وأخذ تفاحات وطلب منها أن تظل في مكانها، ركض نحو منبع تراقص المياة فوق صخور السواقي، لكنها تبعتهُ، غسل التفاح ووضعها بين يديها، ضمتها إلى حضنها فاغترف حفنات ماء وراح يسقيها. مالت برأسها ببراءة وأدنت شفتيها، ارتشفت وهو يراقب حركتهما، حتى ارتوت واكتفت. جلس إلى جانبها وأخذ يقضم تفاحته ويمدها لها لتقضمها بجانب قضمته.

- ما أروعك وأنت تأكلين؟ "هكذا قال".
- وأنا آكل فقط؟
- كلا... أنت رائعة الزمان وبديعة الوقت. هل شبعت أم تريدين المزيد؟
- هذا يكفي.

وما أن ألفت آذانهما الصفير المجهول للوادي، والأصوات الخفيفة الصادرة عن الحشرات، وطرب خرير الماء، وخشخشة أوراق الأشجار، ولحن طائر الطنان وهو يحلق فوق رئسيهما وصوت نقار الخشب وهو يمارس هوايته المفضلة على الشجرة المائلة قبالتهما، حتى ظهر حصان أبيض يركض نحوهما، وقفت، دنا منهما فأمسكت برقبته ومسحت عليه وقالت:

- يا له من حصان جميل! يا ترى لمن هذا؟
- هذا لي، لقد اشتريت الإسطبل مع الخيول، أهديه لك.

ثم أدار الحصان رأسه إلى الجبال وحدق في الفتاة الماثلة قبالته وركض تاركاً وراءه الريح وصدى الصهيل. عادت لتجلس بجانبه، فعدل عن المكان الذي يجلس فيه إلى حيث تقابله قائلا: هكذا أحلق في وجهك الساحر بكل حرية.. ثم أردف:

- الجو جميل اليوم، أليس كذلك؟
- يبدو أنه على علم بلقائنا... لذلك استضافنا بهوائه النقي.
- هل تريدين أن أنجم لك؟
- قالت بشغف وهي تمد له راحة يدها:
- صحيح... هل تقرأ الفنجان أو الكف؟
- كلا... بل أقرأ العيون.
- أتمزح؟ "وهي تكور يدها وتوجه لكتفه لكمة أنثوية مطلقة"
- احتضنت يداه يديها وهو يقول:
- كلا... أنظري في عيني... لا تغمضي عينيك... أولاً: اسمك سعاد. ثانياً: طيبة القلب. ثالثاً: والأهم... أنت هدية الله لمتهور اسمه باسل.

قالت مازحة:

- كل هذا واضح. هل من جديد؟
- الجديد هو أني محتار ولست أدري ماذا أصنع.
- أتقصد أنك نادم؟

- وهل يندم القتيل إذا دبت في أوصاله الحياة؟! (يتذكر...) صحيح.. لقد نسيت إخبارك بالمفاجأة لقد اشتريت قطعة الأرض المجاورة للبستان.
- لقد سمعت هذا من أبي، ولكن من أين لك تلك الأموال؟!
- جمعتهُ في لندن. ومازال لي هناك رزقا وفير، شاركني رب عملي بمتجر.
- أنت تستحق الخير، لقد عانيت كثيراً.

طلب منها أن تغمض عينيها، لبت طلبه، أخرج من جيبه قلادة وألبسها ثم طلب منها أن تفتح عينيها، فرحت وقالت:

- أنها جميلة، هل هي لي؟
- نعم، أحضرتها لك من لندن.
- ذوقك رفيع.
- لوْ لم أتمتع بذوق رفيع لما اخترتك أنتِ بذات.

صمت لحظة، ثم غير موضوع الحديث:

- كنت أريد أن يعلم بقصتنا كل الناس في هذه الدنيا.
- الكل في القرية متعاطفون معنا. وعكس ما كنت أتوقع بأنهم يخدشون قيمنا وعرضنا، أحس أنهم طيبون، وما كان يتردد إلى مسامعي عنهم ليست سوى ادّعاءات واهية.
- إني فخور بهم جميعاً.
- وأنا أيضاً.. لقد أبلوا بلاء حسناً. ولكن ألا تظن أن الأمر يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم؟
- نحن في موقف لا نحسد عليه. ولست أدري أي طريق أسلك، لقد أغلقت في وجهي كل الأبواب، وأنا الآن أجهل المصير، وأسأل نفسي أحياناً عن الخطوات التالية، وماذا أصنع بعد أن سُدتْ أمامي السبل، ولا أجد مخرجاً.
- أيعقل أن يكون أبي حقوداً إلى هذه الدرجة؟ أمر يستحيل تصديقه

- ليتني أعرف السبب وراء كل حقده على أبي وكرهه لي. ماذا حدث بينهما، سبب الصراع غامض، كلما سألت أمي عن السبب تقول إن معركة نشبت بينهما أدت إلى هذا العداء. الحقيقة أني أجهل تمامًا كيفية التفاهم مع أبيكِ.
- لكن كيف ننتصر عليه ولا حول ولا قوة لنا؟
- لو لم يكن ابن عم ابي....(يصمت...)
- لمَ لا تكمل؟
- صراحة، لما تحملت ما فعل بي من قبل عودتك من المدينة، مزقني جراح (يكشف لها مواضع الطعنات في جسده...) ناهيك عن جراح القلب.

تتحسس بيدها جراحه الناتجة عن طعنات الخناجر:

- اعتذر لك نيابةً عنه. "قدمت اعتذارها وراحت تبكي لألمه وجروحه"
- لست بحاجة إلى اعتذار لأني سامحته لحظة شعوري بألم الخناجر.
- إن ما صنعه أبي مؤلم حقاً. لقد جرح مشاعري، وكم عذبني.
- لقد بذلت قصارى جهدي لإسعادك وأنت تعلمين ذلك جيداً. ولكن القدر لم يبتسم لي، فأنياب الحقد تطاردني ليل نهار. ماذا أصنع، قولي لي ما الحل؟ كيف أستطيع أن أنتزعك من بين أنيابهم؟

صمتت لتفكر ثم قالت وهي تلملم دموعها:

- وجدت الحل.... لنهرب من القرية ولنعش بعيداً.
- لا أوافقك الرأي. أخاف أن يطارد أباك وأمك العار، وقد يطاردنا أيضاً، وأنا لا أرضى بذلك.
- وهل ترضى لي أن أعيش في جحيم؟!
- ولكن الهروب جريمة.
- الجريمة أن نحرم من حقوقنا.
- وهل يجدر بنا أن ننال حقوقنا بالهروب؟!

- أو تظن أن من حقنا البقاء بعيدين عن بعضنا البعض؟
- لقد رفضت فكرة الهروب يوما ما.
- ماذا تقصد؟! "هنا علت علامة الاستغراب على جبينها".
- تحدثت إلي والدتك وقالت أن بإمكاني الرحيل معك إلى مكان يقدس حبنا بعيدا عن هذا الوسط المتعفن الذي لا مكان فيه للمشاعر الجميلة النقية.
- متى حدث هذا؟ وبماذا أجبتها؟
- عندما كنتِ في المستشفى، وأجبته بالرفض لأني لا أرضى لك العار.
- مادامت أمي موافقة فما المانع؟! أليس العار هو البقاء تحت رحمة الظلم؟!
- بالنسبة لي، أتمنى أن أعيش معك في عالم متحضر لا علاقة له بما سنته البشرية من خروقات تقود الكائن البشري إلى الهلاك.
- أو تدّعي أن ما يطاردني هو الذي يمنعك من الهروب من القرية؟!

فكر مليا وأمسك بيدها وقال:

- لو وافقت على الرحيل، إلى أين تفضلين أن ترحلي؟
- إلى أي بلد آخر تختاره أنت، لديك المال (تتفاعل...) الذي يمولنا ويأخذ بيدنا حتى نستقر.
- أتودين الرحيل إلى لندن؟

تلألأت عيناها فرحة وقالت:

- هذا يعني أنك موافق على الرحيل؟

أجابها بإشارة من رأسه مصحوبة بابتسامة، ارتبكت بشدة وطبعت قبلة سريعة على وجنتيه وقالت بانفعال وسرور:

- متى تود أن نرحل؟
- لم تجيبي على سؤالي، هل تريدين الذهاب إلى لندن؟
- وهل توجد مدينة أجمل منها؟!
- إذا، لنرحل مطلع الأسبوع القادم.

- هل يسمح لك بدخول تلك البلاد مجدداً؟

أخبرها بأنه يملك إقامة وبإمكانه اصطحابها معه وتحت مسؤوليته. سألته إذا ما كان ينوي العودة إلى القرية في المستقبل. أكد لها بأنه سيعود لمحاربة الإقطاع والإطاحة بالعمدة. عبرت عن انْشغالها بحال أمها وأمه بعد رحيلهما. طمأنها بأنه سيوصي تامراً بأمه لأن فترة غيابهما لن تطول. أما والدتها، فعليها توديعها لأنها لا تعارض ما سيقدمان عليه. وراح يملي عليها كيف ستجري الترتيبات وبأنه سيكون في انتظارها يوم السبت في فندق "لؤلؤة الشرق" بالمدينة حيث سيأخذها لاستصدار جواز سفرها...

طالما أن الحب ثمرة تُطعم من أراد، فإنها تطيل العمر وتمّد البشر بطاقة وتفاؤل وقدرة على التواصل، لذا، عادا إلى منزليهما وقد لبسا وجها جديدا من السعادة والترقب المتفائل للأيام المقبلة التي ربما تحمل في طياتها سعادة أبدية وخالدة دون تنغيص لحياتهما. حقن الحبيبان بحقنة السعادة وراحا يشعران بروعة التحرر من قيود القهر والعجز وكأن القيود تُصلب في تلك اللحظة على معصميهما. ذاب النوم في بحر الشوق الذي سيبحران من خلاله إلى عالم لطالما حلما أن يعيشا فيه سعيدين، قضيا اعتكار الليل بأكمله في ترقب وتخيل وتفكير.

***

جاء الصباح، وذهب باسل إلى تامر. ولَمَّا التقاه، كشف جانبا من نواياه:

- لقد عزمت على الرحيل وقد تطول فترة الغياب.

كم شعر تامر وقتها بالأسى وتلفظ بعفوية قائلا:

- آه، أيها البائس المنكوب والمغلوب على أمره!
- لا تهتم يا صديقي! سأكون على ما يرام.
- إلى أين تذهب هذه المرة؟! إلى بلاد الانجليز؟

- نعم، سأغادر القرية في الغد. ويا حبذا لو أسكنت أمي مع أمك حتى أرسل في طلبها لتلتحق بي.
- هذا ما سيكون.
- تصرف بالأملاك كما يحلو لك فأنت شريكي.
- هل تملك المال الكافي لرحلتك؟
- لدي ما يكفي.
- هل توصي بشيء آخر؟
- العمدة وابنه. إياك أن ينعما بالحياة. وبعد عودتي ستكون نهايتهما المؤكدة.
- أعرف كيف أبكيهما دما. الآن أصبح لي رجال أشداء ويمكنني المواجهة.

قضاء باسل باقي يومه مع أمه التي رحبت بسفره مع بعض التحفظ على أن يظل يعاني في القرية. قالت له وقد غمرت قلبها السعادة:

- هذا قرار صائب مع إني أفضل أن أرحل معك إلى المدينة بدلا من رحيلك إلى بلد آخر.

قال مطمئنا ليزيد من فرحتها:

- سأرسل في طلبك لتقيمي معي هناك.
- وإلى أين ستسافر؟
- إلى بلاد الإنجليز.
- ليوفقك الله....

***

جاء عنيد يركض إلى مكتب العمدة، وقف أمامهُ وظل يلهث، سأله العمدة عن سبب ارتباكه، لم يستطع الحديث حتى استعاد أنفاسه ثم أخبره أنه سمع بعض رواد المقهى يقولون إن باسلاً وعد أهالي القرية بأخذ العمودية، وأن الكثير من الأهالي قد بايعوه ليصبح عمدة. اشتط العمدة غضبا أمر أعوانه بالانتشار في أرجاء القرية وأن يكونوا على أهب الاستعداد لأي طارئ.

وأمر عنيد بالرجوع إلى مكان عمله ويعود إليه عند المساء وقد جمع المزيد من المعلومات وأسماء المتمردين عن طاعته. خرج العمدة ليمشط القرية ذهاباً وإيابا وهو يفكر ماذا يفعل وكيف يحافظ على منصبه. هو على يقين أن باسلاً أذا وضع فكرة العمودية في رأسه أصبح عمدة ولا أحد يستطيع الوقوف أمام شاب صعب المراس وشديد البنية وحاد الذكاء. وأكثر من ذلك حب الأهالي لهُ إكرما لأبيه وقدرته على تشغيل اليد العاملة بأجر مغر مما يؤدي إلى انقلاب ضده. اهتدى العمدة لفكرة، ضرب على راحة يده وهو يقول: "سأنال منك يا باسل بطريقة لم يهتدي لها أحد من قبل، فأنا أحمل بين أسناني سكينا ولن تستطيع نزع هذا المنصب مني، هذه قريتي أيها الوغد". هرول نحو منزل باسل، طرق الباب. فتح باسل الباب وألقى نظره في وجه العمدة لا تخلو من التساؤلات عن سبب الزيارة غير المألوفة، فقال مرحباً:

- أهلا وسهلاً بك.
- كيف حالك يا بني؟
- بصحة جيدة. تفضل إلى الداخل.
- أشكرك يابني على هذا الترحيب الحار برغم من العلاقة المتوترة بيني وبينك.
- أنت على الرحب والسعة. مادمت تحت عتبة داري، فأنا لا أحقد على ضيوفي.
- هذه صفة النبلاء يابني! المهم يا بني أني أريد التحدث إليك بأمر هام.
- خير أن شاء الله؟!
- خير طبعاً، أنا...(يصطنع التلعثم) أنا ... لا أدري كيف أبدأ الحديث معك.
- قل ما تريد.

اصطنع الخجل وكأنه يأسف لما بدر منه فقال:

- أنت يا باسل في مقام ابني عماد، وأنا ظلمتك وحاولت سلب حياتك بخطف سعاد لأبني وأنت الأقرب إليها من أي شخص آخر، فكرت طويلاً وعرفت أني أخطأت في حقك وقررت أن أفسح لك الطريق لتظفر بها ولن أقف أنا وابني حائلا بين عشيقين، وأعدك بالوقوف إلى جانبك ولن يتجرأ نذير أن يفتح فمه مادمت أنا واقفاً إلى صفك.

ابتسم باسل ابتسامة مصطنعه وقد أدرك أن في الأمر مكيدة وقال مستفسراً:

- ما المقابل؟!
- لا مقابل في البداية.
- مادمت ذكرت كلمة "البداية"، هذا يعني أن هناك مقابلاً.

هنا، راح العمدة يكشف جانباً مما يريد معتمداً على ضعفه وكبر سنه أمام شاب عُرف بعفوه وأصالة جذوره واحترام من يكبره سِنا:

- يا بني! أنت مازلت شاباً وأنا في مقام والدك رحمه الله (وهو يرفع يده إلى السماء ليترحم عليه) وأسكنه فسيح جناته. فقد كان بطلاً يشهد له الجميع، ومادمتُ في سن والدك رحمه الله، فأنت لاتريد لي الأهانة أمام الأهالي، أردت أخذ العمودية مني. ولكنك لا ترضى لي أن أهان. أنا أعرض عليك سعاد والحماية إذا لزم الأمر، وسأكون عصاك التي لا تعصاك ومطالبك مجابة إن كان لك مطلب. أحفظ لي ماء وجهي أمام الناس واحترم شاربي الأبيض (وهو يخلل شاربه ويغمض نصف عينيه وكأنه أفعى تصطنع النوم حتى تقترب الفريسة وبلمح البصر تجد نفسها في جوفها).
- ليس لدي مطلب، ومادمت قد قدمت إلى منزلي فأنا لن أخذ العمودية منك.

- كنت واثقاً من شهامتك. وسأقف إلى جانبك عند نذير وسأحمي ممتلكاتك وكأني وكيل لك.

قال باسل مراوغاً:

- إذا اتفقنا.
- أشكرك يابني، وأعدك إني سآتيك بالموافقة من نذير في أسرع وقت ممكن، إلى اللقاء.

رمقه باسل بنظرات وهو يغادر المكان مسرعاً نحو نذير. وما إن اختفى حتى دخل باسل البستان وأبهم الباب وهو يقول في سره: "فليكن، لقد اتخذت قراري، أنه مخادع ولم يصدق يوماً، فكيف لي أن أصدق تمساحاً".

***

استدعى العمدة نذير إلى مكتبه. وما إن حضر حتى طلب منه الجلوس أمامه، استغرب الأخير هكذا تصرف من العمدة الذي لم يسبق له وان جرؤ واستدعاه عن طريق معاونيه الذين رفضوا العودة إلى مقر سيدهم إلا بصحبته وكأنه تحت وطأة القانون. "منذ متى يستدعى العمدة نذيراً بطريقة همجية" هذا ما قاله نذير عندما أحضره رجال العمدة. بادره العمدة قائلاً:

- أرى أنك أسرفت في حق من يفترض أنه في مقام ابنك.
- ماذا تقصد؟!
- أقصد باسل.
- ماذا! باسل! أجننت يا عمدة؟! (بدا مستغرباً مصعوقاً وراح يفرك عينيه وكأنه يسمع بهما).
- لقد ظلمت باسلاً بما فيه الكفاية.

لم تراوده الشكوك قط أن العمدة سينقلب عليه ومازال غير واعياً ولا مصدقاً وكأن الأمر مزحة:

- أأنت تقول هذا الكلام؟! حتماً أنت تمزح!!

- نعم، (يقف العمدة ويصطنع براءة الطفل متأثر بحكاية خرافية، يكمل...) الحقيقة إني راجعت نفسي وعرفت أني مخطئ في حق باسل.

وجد نذير نفسه عاجزاً عن انتقاء الكلمات وراح يمد رأسه كالمخبول مندهشاً:

- وما هو... ما المطلوب برأيك؟
- يا نذير اتق الله ووفق بين ابنتك وباسل فإنهما عشيقان. وأنت إذا وقفت في غير هذا الموقف ستبدو كمن يحاول تمزيق قلبين صغيرين مفعمين بالحب والأمل. فكيف لي أن أزوج ابني من فتاة تعشق غيره ولاكتها الألسن!

للتو عرف نذير أن مكيدة ما تحاك ضده، وقف وقال بغضب:

- منذ متى أصبحت واعظا يا عمدة وأنا لا أرى فيك ألا قاتلاً أو محرضاً على القتل.

غير قناع وجهه من الطفولي إلى الشيطاني، استشاط غضباً وقال وهو يصرخ:

- إسمع يا نذير، دعني من هراك هذا، أنا الآن وكيل لأعمال باسل وأحذرك من أي تصادم بينك وبينه.

قال نذير متوعداً:

- أقسم أنك ستدفع الثمن. و...

مد العمدة يده نحو الباب وصرخ في وجهه:

- أنت مطرود! أخرج من هذا المكان! لا تدخل مقري وإلا سترى مالا يحمد عقباه.

شعر نذير بأقصى أنواع الذل والقهر، هم بالخروج، استوقفه العمدة ساخراً:

- قبل أن تخرج يا نذير الشر، أريد أن أبلغك أني عينتُ عضواً في المجلس الاستشاري للمدينة، ولي علاقات واسعة مع المسؤولين، سوف أتقدم بطلب لأحدهم بتعييني رئيساً لهذا المجلس. وكما تعلم، كلمتي مسموعة لدى المسؤولين لأن لي تاريخاً معروفاً في خدمة

الوطن، ولا أظن أن منصب رئيس المجلس الاستشاري كثير عليّ، أليس كذلك يا....

نظر نذير في وجهه نظرة لا تخلو من التوعد والرغبة بالانتقام جراء هذه الخيانة غير المتوقعة برغم من ظهور آثار لها، إلا أن العقل الخشن الذي لا يتراجع يعجز عن إدراك أوهن فخ، أطلق رجليه لريح لا يدري كيف يرجع كرامته ويلقن العمدة درساً لا ينساه، مشط القرية ذهاباً وإيابا وهو يدخن سيجارة الواحدة تلو الأخرى، فكر بقتل العمدة وتراجع عن هذه ألفكره حينما قال في سره: "لا يستحق الموت حتى لا يرتاح إلى الأبد من العقاب، يجب أن يتعذب مدى الحياة وتداس كرامته تحت أقدام الأهالي"، يقول هذا وهو مدرك أنه لا يقدر على العمدة، فرجاله من أبناء القرية يهتكون أبناء جلدتهم اذا أمرهم عمدتهم وولي نعمتهم دون تفكير وببلادة تامة. ليس منهم من يفرق بين الحق والباطل، أو بين صغير وطاعن. دون أن يدري وجد نفسه جالساً على ضفة النهر، حيث كانت ابنته تجلس عليها مع صديقيها في الصغر. راح يتذكر مواقف كان فيها حاضراً عن بعد عندما كان الأصدقاء يلعبون ببراءة أو يأكلون في ذلك المكان. سقط في دهليز القهر وكأنه يخاطب ابنته الصغيرة عن الماضي وهو يعض أصبع الندم:

- سعاد ليتك كنت ابنة هديل، تلك المرأة التي أسرت قلبي، ولكنك ابنه كريمة، التي لم أشعر بقيمتها إلا هذه الحظة، تحملت سوء طباعي وعاشت من أجلي، كانت تعلم بحبي العميق لهديل ولكنها تناست، أتدرين لماذا؟ لأنها كانت تحبني بقلبها السموح. آه! تعرضت للقهر ثلاث مرات في حياتي خلالهما كسر ظهري. (يرتفع منسوب الدموع في عينيه ويعجز عن البلع...) الأولى، عندما رفضتني هديل وتزوجت نبيل. والثانية، عندما مات ابني حرقا. والثالثة، عندما أهانني العمدة. (أشعل سيجارته وتابع الحديث...) السَّكّير الحقير الخائن باعني، فعلاً أنا غبي (يعاتب نفسه...)، دخلت في صراع مع ابن عمي نبيل، كان من

المفترض أن أبارك لهُ بزواجه من هديل، أليس على المحب أن يسعد لسعادة الحبيب، كان يجب عليّ أن أفرح لأن من أحببت سعيدة ولو مع غيري. (وها هو يُمني نفسه...) ماذا لو تحالفت مع ابن عمي الذي كان يحمل على عاتقه هم المجتمع؟ أليس من المنطق أننا الإثنين من يحكم هذه المنطقة، بسبب الصراع بيني وبين ابن عمي خسرتُ كل شيء. استطاع الِعرْبيد أن يسيطر على القرية بشكل تام من خلال كرهي لابن عمي واستغلني لتنفيذ مخططه الشيطاني، عمل جاهداً طيلة خمسة وعشرين عاماً على الإيقاع بيني وبين بني عمومتي. إنهُ وغد وأنا مغفل، آه...(وهو يتنهد حتى سمعت أذنيه حشرجته وقد بدا فاقداً لشعور بالوجود...). آه يا بنتي، هل تعلمين أن العمدة ليس من أبناء هذه القرية؟ نعم إنه ليس من هنا، قبل عقود جاء والدهُ إلى هنا طالباً اللجوء، ادعى أنه هارباً من صراع بين قبيلتين في قريتهُ الواقعة (وهو يشير بيده نحو الجبل) في تلك الجبال. جاء إلى هنا طامعا بخيرات هذه القرية بعد أن ذهب والده إلى جميع القرى طالباً اللجوء وما من أحد قبل مكوثه بينهم لمعرفتهم بجذوره الحقيرة، ماعدا هذه القرية التي أطلق عليها قبل قرون من الزمن اسم "التوليب"، وتعني مجموعة من النباتات المزهرة الزنبقية والتي تزرع في هذه القرية بسخاء. كان والده حاد الذكاء يتمتع بالقدرة على القراءة والكتابة على عكس أهالي القرية الذين غرقوا في بحر الجهل (يشعل سيجارة أخرى وينفث الدخان في الهواء، أعادت الرياح جزءاً منه إلى وجهه ودخل إلى عينيه، فرك عينيه وعاد ليقول...) لكنهم يا بنتي طيبو القلوب، وودودون، رحبوا بالضيف الذي سيطر عليهم بأسلوبه الشيطاني وأصبح عمدة وهو دخيل علينا، واتبع مبدأ "فرق تسد" حتى أصبح من ملاك الأراضي الزراعية، ثم ورث لابنه أسلوبه الحقير الذي ورث عنه العمودية أيضاً وتوسع حتى أصبح إخطبوطاً ينغص عيش الأهالي. (فجأة تفجرت أفكاره ينابيع من التحذيرات): يا إلهي لقد

حذرتني سعاد من ذلك الوغد... قــ...قــالت.. قالت لي يوماً (التمس حواره مع ابنته من الذاكرة...):

- أرى إنك تضعين شروط صعبة. هذا ما قاله لها.

يتذكر اندفاعها وتفاعلها حين قالت:

- لا أريد أن يكون العمدة سيد هذه القرية وأغنى رجلا فيها، أين ذهبت أنت يا أبي؟! يجب أن تكون الأغنى وليس هو، فـوالله لو أصبح أغنى منك لنال منك بطريقة ما، وما أبدى لك احتراما قط. أرجوك، لا تجعلني سلعة رخيصة ولقمة سائغة لتلك العائلة. بل اجعل لي قدرا لأصبح ذو قيمة في نظرهم سواء قبل الزواج أو بعده. ومهري الثمين جزءا من ثروتك، وجل همي هو بقاء عائلتي الأقوى ماديا لأن المال هو مصدر إلهام القوة والبقاء في هذا العنصر البشري.

ويتذكر أيضاً رده عليها:

- هذا ما يجب أن يكون، آه يا سعاد ليتك كنت ولدا، على أي حال أنت أدهى وأفضل من عشرة أولاد في نظري.

خرج من بين طيات الذاكرة ودخل عالم الحاضر، ضرب بيده على جبهته، (وقف وكأنه عازم على فعل شيء ما) آن لهذا الكابوس أن يزال من حياتي، أعدك صغيرتي أن أعيد لهديل منزلها وألبي رغبتكِ وأقف إلى جانب باسل الذي أرى فيه هذه اللحظة بطلاً لهذه القرية والقرى المجاورة، نعم...إنهُ المحرر الذي ينتظرهُ الضعفاء منذ زمن. هو الذي سيعيد لي كرامتي التي سلبها وأهانها العمدة (يقول ذلك لمعرفته بأنه بات عاجزاً عن الانتصار لنفسه. فالعمدة كالثعبان الذي يخرج من البيضة وهو ضعيف يكسوه الوهن وما أن يكبر حتى يلدغ بقصد القتل). الآن أدركت يا بنتي! حجم الكارثة التي كنت سبباً فيها. تسببت في انتشار الفساد والفوضى في القرية خاصة بعد وفات نبيل ابن عمي رحمه الله. لا سبيل للقضاء على العمدة وأمثاله سوى باتحادي مع بني عمي.

أسدل الليل ستارته واعتكر، رمى السيد نذير ماتبقى من سيجارتهُ في النهر وعاد إلى منزله تحت جناح الظلام بوجهه المصفر، والصمت عنوانه الجديد. دخل إلى المنزل سألته زوجتهُ عن سبب تغير لون وجهه، لم يرد عليها، صعد إلى سطح المنزل، تبعته، حاولت أن تستوضح سبب تصرفه الغريب، لم يتفوه بكلمة واحدة. شعرت زوجته بالقلق وهرعت لتنادي ابنتها التي بدورها حاولت أن تستوضح منهُ سبب تصرفه هذا غير المعهود من قبل. ينظر إلى وجه ابنته ثم يستدير ليوجه وجهه نحو الجبل شاعراً بالذنب والأسى. أشار إليهما بيده بأن تنصرفا. أمسكت زوجته يد ابنتها وسحبتها لتتبعها. احتارتا وهما تخمئنان سبب حسرته. فلم يسبق لهما وأن رأياه منكسراً وذابل الوجه من قبل. لم تتهاونا في الوقوف إلى جانبه. فمن وقت لآخر تصعدان إلى السطح تعرضان عليه العشاء أو النزول للنوم لكنه يرد عليهما بصمت مصحوب بدخان كثيف من سيجارته، وكأنه يريد أن يعتذر أو يعترف بشيء ما. ولكن ما تبقى من الكبر يمنعه من ذلك بالرغم من رسائل الاعتذار التي لم تخفها عيناه.

***

مرت ثلاثة أيام ونذير على حاله لا يخرج من منزله إلا لشراء السجائر والعودة إليه، وما زاد من عذابه، ذهابه للبحث عن باسل فقيل لهُ إنهُ غادر القرية. شعر، حينها، بالهزيمة. وأدرك أن ما من طريقة لاسترجاع كرامته المهدورة سوى اللجوء إلى قتل العمدة غدراً بالتعاون مع تامر الذي مازال يكن له شيئاً من الاحترام الذي زاد ليصبح متكاملاً بعد معرفته ماحيك ضده من مؤامرات، أو انتظار عودة باسل.

***

أشتد قلق سعاد على والدها، فصعدت إلى سطح المنزل وأمسكت بيده وهي تقسم عليه بأنها لن تبرح مكانها حتى يقول لها ماذا

حدث. أفصح لها جانباً مما ينغص عليه حياته فقال لها إنه أذنب في حقها وأنه حزين لرحيل باسل من القرية بسببه. ظلت سعاد صامتة غير مصدقة تغير أبيها المفاجئ. بدأ يتحدث بطريقة تلقائية وراح يمدح باسل وهو يهتز وعيناه تتلألأ وميضاً. أرادت سعاد احتضانه ولكن الدهشة أعمت بصيرتها في هذه اللحظة، وما إن قال الأب: لو أن باسلاً لم يرحل من القرية، لأنه يرغب بمصافحته وإهدائه يد ابنته، سألته ابنته محاولة الاستيضاح:

- أأنت جاد فيما تقول يا أبي؟!

عض على شفته من شدة الندم وقال:

- أشعر بالذنب، إعفي عني يا بنتي. بعد تفكير طويل، قررت قتل الإنسان المتكبر الذي اتخذ من قلبي مسكنا دون الحب والاعتراف بالخطاء وبالحق فضيلة. لو كان باسل موجوداً لقبلتُ زواجك منهُ.

احتضنته وقبلته قبلاً لا عدد لها وهي تقول:

- حتماً سيعود يا أبي، أنا متأكدة أنه سيعود في أقرب وقت.

غادرت حضن أبيها وهي تقول:

- سأتيك به يأبي عما قريب.

ركضت مسرعه لتخبر أمها بما قال والدها، استغربت الأم وذهبت إلى زوجها لتتأكد بنفسها.

***

أخذت سعاد ما يكفي لرحلتها وخرجت من المنزل مسرعة لتسلك طريقها إلى المدينة لتبشر باسلاً بموافقة والدها. وصلت إلى المدينة بعد معاناة طويلة من السفر، استقلت سيارة أجرة وطلبت من السائق إيصالها إلى فندق "لؤلؤة الشرق". أوصلها إلى المكان المقصود، ترجلت من سيارة الأجرة ونظرت إلى الفندق الكبير وقالت في سرها: "زال العذاب". دخلت إلى الفندق ووقفت أمام موظف الاستقبال الذي بادرها مرحباً:

- تحت أمرك آنستي!

قالت مستفسرة:

- يقيم هنا شاب اسمه باسل نبيل، ألا تفضلت مشكورا باستدعائه؟
- تحت أمرك آنستي!

بحث في القائمة، أخذ سماعة الهاتف وطلب باسلاً في غرفته وأبلغه أن هناك فتاة تطلب مقابلته. موعد وصول سعاد لم يحن بعد، بتوتر رمى سماعة الهاتف وركض متجاوزا السلالم بسرعة خاطفة، وقد دب الخوف في قلبه، استشعر خطبا ما وراء مجيئها قبل الموعد المحدد.

اقترب مرشد سياحي من الموظف الآخر وقدم له ورقة حجز في الفندق وقال:

- هذه ورقة حجز خاصة بالفوج السياحي الأوروبي.
- كم عددهم؟
- ثمانية عشر سائح.
- أطلب منهم الجلوس حتى أكمل الإجراءات وجمع منهم جوازات سفرهم لأطلع عليها وأدون المعلومات المطلوبة.
- حسناً.

وصل باسل إلى الطابق الأرضي، اقترب من طاولة الاستقبال متجاوزا مجموعة من السياح الأجانب باحثا عنها، وجدها، أمسك بيدها من الخلف وأدارها نحوه بهدوء وقال باستغراب:

- سعاد!!!
- باسل، أبي.......... **""في هذه اللحظة حدث انفجار مهول""**.

تطايرت الأشلاء، اهتزت المدينة، علت سحب الدخان، ألسنة النيران تلتهم المكان بنهم مخيف ومرعب، كل شيء أصبح رماداً، هلاكاً، دماراً، لا أحد من الأحياء يعرف له قرار. هرعت سيارات الإسعاف والحماية المدنية والشرطة إلى مكان الانفجار،

طوق المكان، أفواج من البشر تحت الأنقاض، ومن فوقهم ألسنة النيران. عمت الفوضى المكان، عمل رجال الإطفاء جاهدين على إخماد النيران، وبدأ الدفاع المدني بالبحث عن ناجين من تحت ركام الفندق المكون من سبعة طوابق انهار بأكمله. مرّ من أمام الركام شيخ أربى على السبعين، منحني الظهر، متوكئ على عصاه، نظر من خلال فجوة تعلو نظارته إلى الركام، لاذت عِبْراتهِ بالفرار من معتقل مقلتيه وهو يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله". مشط المكان فوجد على قارعة الطريق أشلاء جثث ممزقة ومحروقة، استأنف النظر إلى الركام، أبصر وردة ممزقة من بقايا مزهريات الفندق، تحسّر: "هذه حال الدنيا!". كفف دمعه وبَرِحَ المكان، قلبه مفعم حسرة وألما، يتساءل عن سبب انحلال البشر وعن سبب قسوة القلوب، ولماذا أصبحت الجريمة لعبة الحياة. وبأي حق تزهق الأرواح ويُسلب الضحايا حقاً منحهم الله ألا وهو الحياة؟! وكيف يحكم إنسان على آخر بالموت دون ذنب ودون غطاء شرعي. ومن المسؤول عن غسل العقول؟! وكيف السبيل إلى الرقي بالكائن البشري إلى درجة النضج والتخلي عن الجريمة والانتساب الزائف إلى السلالات الكريمة؟! هو على يقين بأن كل ما يتحكم في حياة الأبرياء لا علاقة له بنواميس الطبيعة أو شريعة السماء. كلما دخل الشيخ شارعاً حتى خرج منه ودخل آخر، مرّ من أمام الأحياء الشعبية والبيوت القديمة. أمام أحد البيوت القصديرية، تدحرجت كرة يلعب بها طفلان إلى قدميه، فتناولها وأعطاها إليهما، أمسك بالطفل الأول وقبله ومن ثم الطفل الثاني وعاد ليستأنف مشيه. وبدأ يمُني نفسه لو أنه يستطيع أن يوصل صوته إلى العالم المحاط بسياج من الأحقاد والكراهية والعنصرية ويقول: "لنكف عن قتل الأبرياء، لنكف عن إلحاق الضرر بعالمنا الجميل ولنعش بسلام". توقف عن المشي ونظر إلى السماء ومن ثم إلى الأرض وكأنه يريد أن يقول: "لابد للحياة أن تستمر... لا، لابد من نفض الغبار، لا، لابد أن تنقشع سحب الدخان، لابد من بناء جديد ....."

انتهى